
الشيخ ابراهيم خريب
المنهج السديد في التعريف بقطر الجريد



المنهج السديد في التعريف بقطر الجريد

الشيخ ابراهيم خريف



ISBN 9973 - 17 - 879 - 3

الحمد لله،

﴿ربي اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾

(صدق الله العظيم)

الإهــــداء

الى روح أبي الغالي **محمد البشير بن الشيخ ابراهيم خريف**،

هو ذا - **المنهج السديد في التعريف بقطر الجريد** - تأليف جدي يخرج الى النّـور كما تمنيت كثيرا، وكما بحت لي المرات العديدة عن رغبتك في طبعه واخراجه الى النور . . الى الناس . . الى الحياة.

لن أنسى فذلكتك اللطيفة سنة 1973 عندما أقيم ملتقى الأدباء العرب بتونس، يومئذ تحادثنا طويلا عن طلب الدار التونسية للنشر في طبع قصتك الدقلة في عراجينها، ويومها اقترحت أنت أن تطبع الى جانب قصتك، تآليف عمي مصطفى وجدي رحمهما الله وأذكر أنك قلت لي بالحرف الواحد - المؤتمر سيبقى بتونس أسبوعا، اي سبعة أيام، وسأمضي مع الدار التونسية للنشر 7 عقود أي على كل يوم من المؤتمر عقدا لطباعة تاليف، لكن الظروف التي كانت عليها دور النشر حالت دون تحقيق رغبتك، ومرت السنوات ولم تطبع إلا الدقلة، واسترجعت المخطوطات سنة 1983 أي أسبوعا واحدا قبل وفاتك بعد تلدد من دار النشر، في طباعتهم أو ارجاعهم وعشت تلك الظروف أنا وإياك لحد الحسرة، وكان الله سبحانه يشملك بعطفه، فرغبت الدار في إعادة نشر الدقلة في عراجينها وكان شرطك الوحيد ارجاع المخطوطات.

أبي الحبيب، لن أنسى يوم عدت من دار النشر وأنا أحمل إليك المخطوطات غير المطبوعة، ولن أنسى ضماتك وقبلاتك وفرحك الشديد باسترداد - وخاصة - مخطوط جدي الذي عشت في تخوّف من ضياعه أو فقدانه وضممت المخطوط بيد وبالأخرى ضممتني اليك وانت تقول «الحمد لله الآن أصبح بين يدي أعز شيء لي، ابنتي وعقل والدي» . . . لكن القدر لم يمهلك حتى تفرح أكثر بطباعته فوافتك المنية في نفس الأسبوع، رحمك الله، وبقيت الحسرة في قلبي أنا وحدي، كيف السبيل لتحقيق أمنيتك بطباعته وقد علمت منك بأن المخطوط من أنفس النفائس، لقد حافظت عليه كمحافظتي على ابنتي لاسيما وأنا أعرف مكانته بالنسبة لك ولمن يهمه أمره من علماء ومفكرين، وجاءت اللحظة الحاسمة اللحظة التي تمنيناها معا وربما جدي كذلك، حين زف لي تلميذك الأستاذ صلاح الدين العامري مساعدته لي على اخراجه للنور، فشكرا لله وللأستاذ صلاح الدين العامري، لقد تحقق حلم طالما حلمنا به جميعا جيلا بعد جيل، فهنيئا لنا بهذا الانتصار المعنوي، ونم هانئا أنت وجدي ابراهيم رحمكما الله وأسكنكما فراديس جنانه.

«فكل عمل بني آدم ينقطع بموته إلا علم في صدور الرجال «أو ولد صالح يدعو له» وها انذا العلم يسطع في النور في صدور الرجال.

■ **ابنتك سلمى**

مقـدمــة،

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، يقول العبد الفقير الى ربه الغني ابراهيم خريف بن محمد الكبير بن التابعي بن ابراهيم خريف الشريف الحسني أخذ الله بيده وكان له في يومه وغده.

الحمد لله المبدي المعيد، الفعّال لما يريد، القائل ان يشاء يذهبكم ويأت بخلق جديد، الذي فضل بالعقل نوع الانسان، وأفاض على من اختاره أنواع العرفان، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد خلاصة بني عدنان، أفضل ما خلق الله تعالى في كل زمان ومكان، وعلى آله وصحبه المهتدين، الذين نصروا الدين، وقارعوا بسيوفهم من عارضهم من الملحدين، حتى أظهرهم الله على كره من المشركين، صلاة وسلاما دائمين متلازمين الى يوم الدين،

وبعد، فهذه نبذة تاريخية مختصرة في التعريف ببلاد قسطيلية أو بلدان الجريد طلبها مني بعض الاخوان ممن له تعلق بهذا الشأن فأجبته لذلك بقدر الامكان وان كنت لست من فرسان هذا الميدان طالبا من الله العفو والغفران ومن الواقف الاغضاء والنظر بعين الرضا في كل أوان مما عساه أن يعثر عليه من الخطإ والنسيان مما لا يخلو منه إنسان، وسميته بالمنهج السديد في التعريف بقطر الجريد، في فضائل قطر الجريد وما اشتمل عليه من المحاسن.

الباب الأول

اعلم أن هذا القطر واقع في عرض ثلاثة وثلاثين درجة ونيف وأربعين دقيقة وطول شرقي في ست درجات وبضع دقائق وكان يسمى في القديم قسطيلية، وزعم بعضهم انه روماني وان معنى القسطال البرج وهو من الأوضاع العربية شبهه في تلون ازهار حدائقه بالقسطالنية التي هي قوس قزح في لغتهم ولذلك جعلوا النسبة اليه قسطلاني حسبما ذكره ابن الشباط لأن بلدان الجريد يبتهج عند رؤيتها الناظر مما يشاهده من حسن رونقها الطبيعي في أغلب الفصول فمن مياه دافقة وأشجار رائقة ونخلة باسقة ولذلك قال فيه بعض الشعراء يمدحه ويذكر ما اشتمل عليه من المحاسن وهو محمد بن عبد العزيز بن حماد :

يا سائحا ان رمت زورة جنه … تجري بها من تحتها الأنهار

بادر الى أرض الجريد تجد به … ما تشتهيه النفس والأبصار

نهر على رمل يسير كأنه … ورق يصاغ على النضار نضار

أبا وفاكهة حوت وحدائقا … غبا تغرد فوقها الأطيار

جناتها مثل الجنان فأرضها … مسك ونشر نسيمها معطار

دوح يزين ومنظر يسبي النهى … وبرود روض وشيها الأزهار

ومتأنف مثل القواضب جردت … خلعت عليها بلونها الأشجار

وتناثرت مثل الدراهم فوقها … أنوارها فتضاعفت أنوار

واذا يهب نسيمها ذاعت به … من نشر أزهارها لها أسرار

والنخل مثل عرائس مجلوة … تبدي بديع حليها الأطوار

تجلي بأغريض نضيد تارة … كالعسجد تطلع حسنها الأزرار

واذا غدا بلحا فذاك زبرجد … في جيدها فيه الحسان تغار

واذ كسا للحسن لونا احمرا … قل أنت ياقوت بدا ونضار

واذا قررت بجذعهن تساقطت … رطبا جنيا خيرها مدرار

بلد يحاكي طيبة بنخيله … وهو الفخار اذا يعز فخار

حيث استقام الدين واتضح الهدى … وشجى العدات نبينا المختار

قطر من الأقطار أشرق حسنه … تصبو لرؤيته حسنه الأبصار

وأمام معرفة على أوصافه … تتغاير الاعصار والأمصار

قطر كبغداد غدا في خطه … تصفو به الأفهام والأفكار

كملت محاسنه وطاب حديثه … فبطيبه تتزين الأسحار

يا أيها الشاوي به من أهله … أو غيره ممن حوته الدار

لا تصبون الى سواه فإنه … للدين والدنيا هديت منار

نعم الفضاء غدا اذا شئت التقى … والعلم ان خان الكريم قرار

فلذا اذا قحط البلاد فخيره … يكفيه اذ ما ترفع الأسعار

وبه المعارف فجرت أنهارها … وبحارها فلأنهن بحار

والفهم يشحذ فيه طبعا مثل ما … يهمي من السيف الصقيل غرار

لولا الحلال به لأصبح أهله … وهم بكل دجنّة اقمار

وهي طويلة قال ابن الشباط سألت والدي أطال الله بقاءه عما ذكره الشاعر في شعره من أن هذا القطر في خط بغداد فاخبرني ان هذا صحيح وانه في آخر الاقليم الثالث وان عرضه ثلاثة وثلاثون درجة وأربعون دقيقة وعرض بغداد ثلاثة وثلاثون درجة وسبع دقائق قال واخبرني ان جالينوس ذكر في بعض تصانيفه أن أهل الاقليم الخامس وأهل الاقليم الثالث مخصوصون بفرط الذكاء والفطنة والادراك في العلوم واحتج لذلك بأن ارسطاليس وأفلاطون وغيرهما من أكابر الحكماء كانوا بالاقليم الخامس وان بطليموس كان بالاقليم الثالث لأنه كان بالاسكندرية ونقل عن الدلائي في وصف بلاد قسطيلية انها بلاد كبيرة وبها أسواق عامرة وأرباض كثيرة وهي حصينة منيعة لقرب النخيل من صورها وفي بساتينها جميع الثمار حاشا قصب السكر وتشمل بلاد قسطيلية توزر ونفطة والوديان ويزيد ان هذا الاسم أعني قسطيلية من الأوضاع العربية ما ذكره بعض مؤرخي الرومان من أن اسم توزر في الكتب الرومانية توزوروس واسم نفطة اكاريسل قبطي

بالبـاء الموحدة وتسمى الوديان تقيـوس باسم أميرها البربري كما سميت صفـاقس باسم أميرها البربري بـالكاف وتسمى قفصة كابصـة وقد خربها القائد الروماني سنة 107 قبل الميلاد ثم جدد بناؤها بعد أن كانت ذات أهمية بموقعها الحربي وانما سموا هذا القطر قسطيلية لما تقدم كما أطلق عليه اسم الجريـد لما فيه من النخيل وهـذا الاسم وان كان يطلق على كل بلـد ذات نخيل كما ذكره ابن خلدون، لكـن غلب هذا الاسم الأخير على هذا القطر وصار اذا أطلق انما ينصرف الى بلـدان الجريد وهي نفطة وتوزر والوديان والحمّة ونفـزاوة وقفصة والجبل، أما نفزاوة فإنها كانت في القديم سبخـة متصلة بخليج قابس يعمها البحر ويمتد في جهة الجنوب الى الصحراء الكبرى ولا يعلم منتهاه على التحقيق ثم ينعطف الى نفطة وبلـدان الجريد وبمرور الدهـور وتقادم العصور أخذ البحـر في الجفاف حتى انتهى الى خليج قابس وذكر ابن الشبـاط فقال سمعت بعض علمائنا يقول أن في تواريخ اهل الكتاب من اليهود أن سيدنا يوشع بن نون عليه السلام غزا توزر في البحر اذ كانت هذه السبخة متصلة ببحر قابس لأن البحار تنتقل مـن أماكنها، وقال ايضا سمعت من شيخنا الفقيه الأجل الصالح ابي عبـد الله بن شمرون رحمه الله ما يؤيد هذا قال اني رأيت في نسخـة قديمة من نسخ الجغرافية وبها صورة قسطيلية دائرة يشقها نهر ويذهب مـدا الى ان يفرغ في بحر قابس وذكر في صفوة الاعتبـار ان الذي حققـه مؤرخـوا الرومـان بأن الجهة الجنوبية جهـة الجريد كـان بها بحر يمتـد الى دواخل القارة الافـريقية المسماة بالصحراء الكبرى ويتصل بـالبحر الرومي من جهة وذرف ولـذلك حاولت جمعية فرنسـاوية بواسطة الـرجل الشهير بأعمال خليج السويس فردينـاند دي ليسابس وحقق ان البحـر يمتد الى ثلاثمائة ميل وان يخرق البحـر من جهة وذرف ثم يمتد الى دواخل القـارة بعد التثبت في ذلك وعلمهم بما ينتج عن ذلك من الأرباح التجارية ثم توقفت الجمعية لأسباب سياسيـة مع اشتغالهم بخليج بناما بأماريكا وما نشأ عن ذلك من القلائل وبذلك يعلم أهمية موضع الجريد الجغرافي والتجاري وحسن وضعه واعتباره.

الباب الأول

في أولية نشأة هذا القطر وما قيل في نسب من ابتدأ عمارته

اعلم أن أول من عمر هـذا القطر أمة البربر لكن لما كـانت علائق هذا القطر السيـاسية والادارية مرتبطـة بالعواصم التي تداولتهـا أيدي الدول مثل قرطاجنة في زمن القرطاجنيين والرومان والواندال والقيروان في زمن الخلفاء الأمويين ومن بعدهم من الأغالبة أمراء بني العباس والمهدية في زمن العبيـديين ومن بعدهم من صنهاجة وتونس في زمن الموحـدين ومن بعدهم من الأتراك لزم الالمام بذكر أحـوال هذه الدول على سبيل الاختصار وما تـداولت عليها من الأطوار وكيفية تسلطهـا على بعضها شأن الزمان وتقلبـاته وتشبثه بأدنى سبب عند هـرم الدولة وادبارها وكـانت أول دولة انتظمت بالمغرب وشيـدت اعلام المدنية ووضعت هيكل السياسة الـدولة القرطاجنية اذ هـي التي امتزجت بأمة البربر وتسلطت عليهـا لزم التعـريف بأمة البربـر وكيفية نشأة عمـرانهم لهذه الأصقاع وكيف تسلطت عليهم دولـة القرطـاجنيين، أقول أن جدهم بربر من ولد كنعان ابن حام بن نوح عليه السلام نزح من بلاد آسيا الى بلاد افريقية حسبما نقله ابن خلدون عن ابن حزم وهو ممن يوثق بروايته فهم اخـوة القبط والحبشة والنوبة وعند انتشار أولاد نـوح في مناكب الأرض انتقل أولاد حام الى جهة مصر وافترقوا في قـارة افريقية فالقبط في الجهة الشمالية الشرقية منها والحبشة والنوبة في الجنوبية الشرقية منها واما البربر فانها تكونت منهم أمم لا يحصيهم إلا خالقهم وامتد انتشارهم في الجهة الشمالية الغربية منها من البحر المحيط الغربي مارا على ساحل البحر الرومي منعطفا الى جهة الجنوب في دواخل القارة عند انتهاء العمران ولازالوا في نمو الى أن ملـؤوا ضواحي الغرب وتلوله وجباله وهم رحالـة شأنهم سكنى الخيام وتمعشهم من نتائج المواشي مدة قـرون عديـدة فكانـوا يتخذون البيـوت من الشعر والـوبر والشجـر ويظعن اهل العز منهم والغلبـة لانتجاع المراعي فيما قـرب من الرحلـة ومكاسبهم الشـاة والابل والخيل للركوب والنتاج وربما كـانت الابل من مكاسب أهل النعجة منهم شأن العـرب ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السـائمة ومعاش المعتـزين أهل الانتجاع والاظعان في نتاج الابل وظـلال السوف بحيث أن بلاد المغـرب لم يكن بها عمران يغبطها عليـه الدول ذوات الشأن الـذين يرغبـون الفتوحـات حتى ان فراعنـة مصر الرعـاة الذين استـولوا على بـلاد مصر قبل المسيح بألف وسبعمائة سنة وبقوا أربعة قرون وفي آخر دولتهم ورد سيدنا يوسف الصـديق عليه السلام كانوا استولوا على الجانب الشمالي الشرقي منها ولما لم يجدوا له أهميـة تركوه وبقي على حـاله الأول الى أن وردت الأمة الفنيقية مـن نواحي بلاد الشام على بـلاد المغرب بقصد التجـارة وكان لهم مهارة في ابواب التجارة وهـم أول من اخترع صناعة الكتابة بحروف الهجـاء وأول من اهتدى الى السفر في البحر ولذا أحدثـوا مراكزا تجارية على شـاطىء البحر الـرومي ككـريت التي تسمى في الكتب القـديمـة اقريطش وقبرص وصقليـة وسردانيـة وغير ذلك من المراسي التي على شاطىء البحر بشمالي افريقية وكـان وفودهم على بـلاد افريقيا في حـدود سنة 1100 قبل الميلاد المسيحي وخـالطوا أهل المغـرب وداخلوهم بأنواع المتاجر وملكوا الأراضي الخصبة من أيديهم بثمن بخس لجهل البائعين بما ينتج منها وبما لهم من المهارة في أساليب الاستعمار اتخذوا مدنا على السـواحل لتكون مـراكزا تجارية مثل سوسة وبنـزرت وأتيكة التي هي الآن خرابات قـرب غار الملح فكان اتصالهم بالبربـر مجرد حركات

تجارية محضة الى أن أسسوا مدينة قرطاجنة وصارت موقعا حربيا فانتقلت الحركة من دور التجارة الى أدوار السياسة.

فصل في تكوّن الدولة القرطاجنية

هذه الدولة سميت باسم المدينة التي أنشأتها المرأة المسماة ديدون في خلال سنة 880 قبل الميلاد المسيحي وكانت وفدت من مملكة فنيقية مملكة بالشام قاعدتها مدينة صور وهي من عائلة ملوكية هاجرت مغاضبة لعائلتها فشحنت عددا وافرا من المراكب بما جلبته معها من الأموال والذخائر الملوكية والنفائس العزيزة والرجال المهرة العارفين بالفنون الهندسية فوقع اختيارهم على موقع مدينة قرطاجنة لما أدركوه فيها من الأهمية الحربية والتجارية وبما لها من الميل الى صبغة الملك بمقتضى نشأتها الفطرية بعد أن أحدثت المدينة اتخذت جندا من الفنيقيين واخلاط البربر تؤجرهم بالدرهم والدينار وأدخلت تحت سلطتها جميع المراكز الفينيقية وكثيرا من قبائل البربر تستميل البعض بالمال والبعض بالقوة الجبرية، ولما استقر لها الأمر جعلت حكومتها جمهورية يدير سياستها مائة عضو تحت رئاسة أميرين تنتخبهم الأهالي والرئاسة على الجميع لها وانتقل الأمر من طور التجارة الى طور السياسة والملك كما فعل تجار الانكليز بالهند وأخذت الدولة القرطاجنية في القوة والنفوذ وتمد سلطتها شيئا فشيئا الى أن استولت بقوة أسطولها الضخم الذي جعلت قيادته لأشهر قوادها المسمى (عنون) على جميع السواحل الشمالية الافريقية ثم على بعض الجزر بآسيا وأوروبا وأحدثت من المدن على ساحل البحر الرومي مثل بجاية وطانجة وسلا وغير ذلك مما سبق ذكره واكتشفت الجزائر الخالدات في المحيط الغربي وامتدت اكتشافاتهم الى الجزائر البريطانية بالجهة الشمالية من أوروبا واستأثر القرطاجنيون بالقوة السياسية والتجارية بحيث لم تتجاسر أمة على مزاحمتها في هذا الميدان من سنة 880 ± قبل الميلاد المسيحي الى سنة 630 قبل الميلاد وفي هذه السنة ابتدأت مزاحمة اليونان للأمة الفينيقية في التجارة والاستعمار فاختطفت من يدها عدة مستعمرات في الجهة الشرقية عند اشتغالها بالاكتشافات الغربية فاستولت لها على مالطة وصقلية وبرقة فلما اشتغلت دولة اليونان بحرب الفرس وذلك سنة 480 قبل الميلاد انتهزت دولة قرطاجنة الفرصة واستولت على قسم كبير من جزيرة صقلية وحاربها بعض الأمراء على بعض المستعمرات اليونانية ولم ينجح، وفي سنة 322 قبل الميلاد حاربهم بطليموس أحد قواد اسكندر المقدوني الذي استقل بالملك بعده فاستولى على قسم كبير من مملكة القرطاجنيين مثل طرابلس وبعض البلاد التونسية وأحدث مرسى قليبية وبقي متصرفا فيها استولى عليه الى سنة 306 + ولكن القرطاجنيين جمعوا قوتهم وحشدوا جنودهم وعسكروا قرب دخلة المعاوين والتحم القتال بينهم وبين الجنود اليونانية فهزمتهم العساكر القرطاجنية ومزقتهم كل ممزق واسترجعوا ما استولت عليه الدولة اليونانية وبذلك أصبحت الدولة القرطاجنية ذات ملك عظيم وممالك عريضة تمتد من جزر البحر المتوسط وسواحل افريقيا الى البحر المحيط الغربي وتنعطف شمالا الى أرض اسبانيا وجزائر بريطانيا وحاولت أن تمتد سلطتها الى بلاد مصر وأراضي الشام الذي هو منبتها فعارضتها قوة الدولة اليونانية بما لها من العظمة والسلطنة في ذلك التاريخ غير أنها حصلت على ثروة عظيمة بسبب اتساع مستعمراتها ومعرفتها بطرق المتاجر واستبطاعها للمحصولات السودانية والافريقية والشرقية ونقلها لمحل رواجها من غير مزاحم وكانت دولة الرومان التي أنشأت مدينة رومة سنة 788 قبل الميلاد مجاورة لدولة القرطاجنيين وكانت منقسمة الى عدة ممالك مستبدين وبما رأوا من قوة جارتهم وتسلطها على الممالك الواسعة وما حصلت عليه من النفوذ واتساع الثروة خشوا تسلطها عليهم فاتحدوا مملكة واحدة وأسقطوا جميع ملوكهم وأسسوا مملكة جمهورية وأنشأوا تنظيمات مهمة كافلة لهم بحفظ استقلالهم وتشيد ملكهم فاتسعت بذلك معارفهم واستفحل أمرهم ورسموا خرائط لممالكهم فاقتضى الوضع الجغرافي ضم بعض المستملكات القرطاجنية الى مملكتهم كجزيرة صقلية وأحجموا عن ذلك مما في نفوسهم من الحسد والتوهم العجز عن ذلك وهم لازالوا اخذين في القوة وكان البعض من جزيرة صقلية في يد قوم من الطاليان استوطنوا ذلك المحل وأخذوا في الاستعمار فطردهم القرطاجنيين فاستنجدوا بدولة الرومان لتحميهم من القرطاجنيين وبما هو مركوز في نفوس الرومانيين من الحسد والغيرة أبرزوا ما هو كامن بين جوانحهم من الحسد فاتخذوا هذه الوسيلة سبيلا لاشهار الحرب على دولة قرطاجنية.

فصل في تسلط دولة الرومان على دولة قرطاجنة واستيلائها على افريقية

هذه الدولة تكونت من أمم وأخلاط وفدوا من بلاد المورة من جسن الاغريق في أزمان مختلفة على بلاد إيطاليا وبما هم من الحضارة ومعرفة أساليب الاستعمار أخذوا في ارشاد أهالي البلاد الطالينية أولئك الأقوام المتوحشون وإدارة شؤونهم وبموجب ذلك حصل لهم نفوذ وسيطرة الى أن بلغ بهم ذلك الى التملك عليهم فاستولى منهم عدة أمراء على عدة جهات من تلك البلاد بعد أن أنشؤوا مدينة رومة في القرن الثامن قبل الميلاد المسيحي مع عدة مدن أخرى وقرى اقتضتها الحضارة وشوكة الملك وتسموا أولئك الأمراء ومن نسب اليهم بالرومان ولما رأوا قوة قوة جارتهم واتساع فتوحاتها أسقطوا جميع ملوكهم المستبدين واتحدوا مملكة واحدة تحت رئاسة جمهورية.

وحيث أن دولة قرطاجنة بلغت من العظمة والقوة الى درجة النهاية والشيء اذا بلغ لحده رجع لضده وكانت دولة الرومان دولة شابة آخة في عنفوان التقدم أعلنت الحرب على جارتها وجمعت قوتها وجندت جنودها وساقتها على دولة قرطاجنة وذلك سنة 264 قبل الميلاد تحت رئاسة رجل من أشهر قوادها يسمى ريكولوس فهجم على صقلية وانتشب الحرب بين أسطولي الدولتين في البحر وبين العساكر برا واستمر الحرب بينهما ثماني سنين وفي سنة 256 انهزمت أساطيل القرطاجنيين واستولى الرومانيون على صقلية وانسحبت العساكر نحو افريقيا فنزلوا بمرسى قليبية وتوجهوا للهجوم على مدينة قرطاجنة والتحم القتال بين الفريقين انهزمت فيها عساكر قرطاجنة في عدة جهات وعدة مواقع وأخيرا جمعوا قواهم وجندوا جنودهم تحت رئاسة رجل يوناني انخرط في عساكرهم يسمى شاقطيف فأظهر من البسالة والاستماتة مع ما عنده من التدابير والمكائد الحربية ما أعانه على استئصال عساكر رومة فهزمهم في محل قرب رادس ووقع قائد العساكر الرومانية أسيرا في قبضته وهو ريكولوس المتقدم الذكر فقتله القرطاجنيون سنة 255 قبل الميلاد، ثم جمعت جيشا عرمرما تحت رئاسة رجل يسمى عملقار من أشهر قواد العساكر القرطاجنية لاسترجاع جزيرة صقلية وانتشب الحرب بين الدولتين ست سنين دافعت فيها العساكر الرومانية مدافعة عنيفة وفي أثناء ذلك جمعوا أسطولهم وقطعوا المواصلة على القرطاجنيين بحرا فاضطرهم ذلك الى تسليم صقلية لهم بموجب صلح انعقد بين الأمتين وذلك سنة 241 قبل الميلاد.

ولما حصلت قرطاجنة على الصلح اطمأنت ورأت من حسن التدبير الاقتصادي التنقيص من أرزاق العساكر، ولما كان أولئك العساكر انما يخوضون معا مع الحرب للحصول على تلك الأرزاق ساءهم ذلك التنقيص وهاجوا ثائرين على الدولة فجندت من البربر خيلا ورجالا تحت رئاسة عملقار وقاتلهم فصدهم واقتفى أثرهم الى أن حاصرهم بمضيق بين جبلين بطريق القيروان وقطع عليهم أسباب المواصلات حتى نفد ما عندهم من الزاد ثم خرجوا من ذلك المحل فاستأصلهم عن آخرهم وقتلهم شر قتلة فاكتسب هذا القائد شهرة بما له من المعرفة بأساليب الحروب التي حصل بها على الانتصار وانتشال دولته من مخالب الثورة التي أدركتهم على وهن وفشل عقب الحرب الرومانية وحصل على وجاهة واعتبار في قومه وقد أدرك بثاقب فكره ان حياة الدول وقوام هيكل القوة والنفوذ فوضع النظامات العتيدة والتراتيب الحربية المقيدة وان يستميل رؤساء البربر ويسلك فيهم سبيل الرفق والعدل ولولا ما سبقت به الأقدار لدولة قرطاجنة من التقهقر والادبار لأخذوا بساعد هذا الرجل الشهير والشهم الخطير وأعانوه على نواياه الحسنة نحو دولته وأمته لكن لسوء الحظ حملهم سوء النية وفساد الطوية الناشئان عن فساد بواطنهم وخوفهم من عدم ادراك اغراضهم الشخصية التي هي الداء العضال المؤدي لمرض الدول وموتها لأنهم خافوا بسبب جريان التنظيمات العدلية والتراتيب المرعية فوات منافعهم الذاتية وعدم ادراك اغراضهم الشخصية فجعلوا مؤامرة في ابعاده بمكيدة خفية حيث انهم لا يقدرون على التجاهر بمعارضته فحسنوا له فتح بقية اسبانيا وما جاورها من ممالك أوربا فجهز جيشا كثيفا من البربر وسار نحو أوروبا فكمل فتح بقية اسبانيا وتوغل في جنوب غاليا وهي بلاد فرنسا ومات هناك وأجمع الجند على تقديم صهره اشتروبعل فتقدم في دواخل أوروبا فقامت لذلك دولة الرومان وقعدت وخشيت عاقبة تقدمه فهددت دولته بالهجوم على قرطاجنة وجهزوا أساطيلهم للزحف عليها فأوجست شرا عسى أن يجهز على بقية حياتها وبادرت لعقد صلح بينها وبين الرومانيين مفاده أن لا تتجاوز قرطاجنة نهر امبرة الذي في حدود اسبانيا فاسترجعت جنودها وذلك سنة 227 قبل الميلاد ومات بعد ذلك رئيس الجند اشتروبعل وقام مقامه شاب يدعى هنبعل ابن عملقار المقدم ذكره وكان شهما حازما مشهودا له في كتب المؤرخين بثبات الجأش والرسوخ في الفنون الحربية ويعدونه من أشهر رجال الدنيا مثل اسكندر المقدوني ونابليون بونبارت ويدعونه الافرنج أنّيبال بنون مشددة فنقض العهد وساق جيشه نحو نهر امبره واجتازه وعول على محاربة الرومان في بلادهم فأعلنت رومة الحرب على قرطاجنة لنقضها العهد وساق هنيبعل جنوده المجندة بقطع جبال البرنيات وسار مارا على جنو في بلاد فرنسا فانخرط منهم عدد عظيم في عسكره لشدة عدواتهم للرومان فتوغل في شمالي ايطاليا ومات من عسكره عدد وافر من البرد وانتصر على الرومان في جميع وقائعه وأشهرها واقعة كانه مدينة بالجنوب الشرقي من إيطاليا فاستأصل من جنود الرومان نحو سبعين ألف بين قتيل وجريح وذلك سنة 216 قبل الميلاد ولولا تقاعس دولته على امداده وانقطاعه شريدا فريدا وراء البحر لم تفتر به عزيمته على التقدم في بلاد العدو ولذا لما رأت دولة الرومان شدة اجتهاده وقوة جأشه وخشوا بأسه عزموا على سوق أساطيلهم الى قرطاجنة لتضطر دولته الى استرجاعه وجهزوا جيشا تحت رئاسة قائد يدعى شيبو الأكبر وأنزلوا عساكرهم قرب بنزرت واتيكة واستولوا على تلك المواقع الحربية وسرحوا جنودهم في تلك الجهات فلما رأت قرطاجنة ما حل بمدنها استرجعت قائد جيوشها الشهير هنيبعل فعجل الاوبة بجنوده واستعرت الحرب بين الفريقين وانقسم البربر قسمين قسم تحت رئاسة امير يدعى ماسينيسا فانظم الى عساكر الرومان وقسم تحت رئاسة امير يدعى صفاقس انظم الى عساكر القرطاجنيين والتقى الفريقان بمحل قرب وادي سليمان فانتصرت عساكر الرومان على القرطاجنيين بهمة رجال البربر وشهامتهم اذ ان البربر انتهزوها فرصة لما وغر في صدورهم من الحقد على القرطاجنيين بسبب ما سلوكه فيهم من سيرة التعسف والظلم كما هو الشأن من أن المظلوم يتربص بظالمه الدوائر حتى سنحت الفرصة وثب عليه وثوب المفترس وبهذه الهزيمة حاول قائدهم ان

يرتب نظامات عسكرية وتراتيب ادارية ولمّ شعث دولته فأوجست دولة الرومان خيفة وبادرت لعقد صلح غايته تمزيق ملك قرطاجنة وتفريق اشلائه فضربت عليهم غرامة حربية باهظة واشترطت عليهم تجريدهم من السلاح وتنازلهم على ممالك اسبانيا للدولة الرومانية واعترافهم باستقلال البربر من عمالة الجزائر والجهات الجنوبية والوسطى من عمالتي تونس وطرابلس وابعاد القائد هنيبعل الى بلاد انطاكيا بأرض الشام فرضخوا لهذه الشروط القاسية وطأطؤوا رؤوسهم لما حكمت به المقادير الإلاهية وذلك سنة 201 قبل الميلاد ثم ان ماسنيسا حليف الرومان بمقتضى المعاهدة التي حصلت عليها جهات البربر من الاستقلال استفحل امره وضم الى ملكته كثيرا من القبائل البربرية كما ظهر بالمغرب عدة أمراء مستقلين عن البربر بموجب ما حصل من الوهن لدولة قرطاجنة حتى صاروا يشنون الغارات عليها في بلادها ولم يبق تحت نفوذها الحقيقي الا الجهات الشمالية من المملكة التونسية فعيل صبرها وعزمت على دفاعهم وحيث ان الرومان رأوا من مصلحتهم السياسية تقليل نفوذ القرطاجنين وتقسيم ممالكهم وتقسيم البربر أمراء لادخال التنافس بينهم كي يبتلعوهم عند سنوح الفرصة وبحصول الحرب بين البربر والقرطاجنين أرسلت دولة الرومان احد السياسيين المسمى قاطون من مشاهير زعمائها لمشاهدة حال البربر والقرطاجنيين وما يحسن سلوكه من الطرق السياسية الكافة بمصالح دولته فلما حل بقرطاجنة وعاين ما استرجعته من الثروة والقوة ارتاع لذلك وعجل الاوبة وعقدوا مجلسا للتفاوض فيما يتخذونه من الوسائل لقطع دابر القرطاجنيين فأشار عليهم الرجل الشهير قاطون بأن مصلحة الرومان ليس في تقسيم البربر وتقليل نفوذ القرطاجنيين فقط بل انما هي في تخريب قرطاجنة ولما رأوا استعداد القرطاجنيين وسوقهم لجيوشهم على البربر اتخذوها ذريعة لنكث العهد وساقوا جيشا جرارا على بلاد قرطاجنة للأخذ بثأر البربر ظاهرا وحماية لذمارهم فلما نزلت عساكرهم بأتيكة ارتاع القرطاجنيون من مقاومة البربر ودفاع الرومانيين وآثروا عقد الصلح فاقترح عليهم القائد الروماني شيبو الأصغر تسليم أسلحتهم وأسطولهم والخروج من مدينة قرطاجنة الى دواخل البلاد فامتنعوا من ذلك وأخذوا في الاستعداد لحرب الرومان فثاروا يدا واحدة وبادروا لبناء الأجفان وتعبئة الأسلحة وتأهبوا لحرب الرومان ومدافعتهم مدافعة حزم واستماتة ولما تقدم الرومان لحصار قرطاجنة وقطعوا عنها سبيل المواصلات برّا وبحرا نفذ ما عندهم من الزاد وضاق ذرعهم ووهن عزمهم فقوي عليهم الرومان ودخلوا قرطاجنة عنوة واستمر بها القتل اذ قتل منها نحو ستمائة ألف نفس وخربتها العساكر بمقتضى الاذن لهم من حكومتهم وأضرموا فيها النيران فأصبحت تلك المصر المتمصرة اثرا بعد عين وذلك سنة 146 قبل الميلاد وقد اكتشف في سنة 1316 هجرية لذي البحث على الآثار القديمة بالخرابات القريطاجنية على تراب رمادي وبه قطع من حديد معوجة وأخشاب بها أثر حريق وأحجار بها كتابة دلت على أنها بقية المدينة القرطاجنية قبل عمارة الرومان لها ثم ان ماسنيسا البربري بعد انتصاره على صفاقس وضم بعض العمالات الشرقية له وكانت مملكة المغرب بيد رجل يسمى بيكا حصل ماسنيسا على ملك ضخم ونفوذ قوي غير أنه مات قبل استيلاء الرومان على قرطاجنة وعند استيلاء الرومان وتخريب قرطاجنة قسموا مملكة ماسنيسا بين أولاده الثلاث ميسبه وقلوسة ومنستبال وظاهر هاته القسمة اصلاح ذات البين وبين الاخوة لما لأبيهم من اليد عنده لانتصاره لهم وباطنها مراعاة القاعدة الحكيمة السياسية وهي قولهم أقسم تحكم ثم توفي الاخوان وخلصت جميع المملكة لميسبة وبقي برهة من الزمان ثم قسمها بين ولديه وابن أخيه جوغرطة أو يوغرطة خلاف في النطق بالحرف الأول وبقي جوغرطة وأبناء عمه كل واحد مستقل بما تحت يده بدون واسطة الى أن بدا لجوغرطة ان ينفرد بالملك دون ابني عمه فسعى في قتلهما واستأثر بملكهما فتأثرت من ذلك حكومة الرومان لما هو مناف لمقصدهم السياسي كما تقرر وجلبت جوغرطة الى مدينة رومة واحالته على المحاكمة لدى مجالس الحكم فأرشى الحكام وحكموا ببراءته من قتل ابني عمه فعاد لبلاده غانما سالما ثم قوي أمره وعظم شأنه وظهر ما كانت تخشاه حكومة الرومان من التفاف البربر على ملك واحد، ولما قتل من الرومان القاطنين بافريقية عددا وافرا ساقت عليه حكومة الرومان عساكرها وتأجج الحرب بين الفريقين فهزمها أولا ثم جهزت جيشا كثيفا تحت راية أحد قوادها المسمى مريوس فانهزم جوغورطة والتجأ الى المغرب الأقصى تحت حماية صهره الملك بوخوص فلما خشي هذا الأمير على مملكته أن تعبث بها أيدي الرومانيين قبض على جوغرطة وسلمه لحكومة الرومان وذلك سنة 106 قبل الميلاد فأودعته السجن حتى مات جوعا وقسم الرومان حسب قاعدتهم بلاد افريقية فأفسحوا الى بوخوص في مملكته جزاء له على حسن صنيعه معهم فصارت حدود مملكته الى بجاية وقسموا الباقي بين ابني أخ جوغرطة وصارت افريقية بين ثلاثة أمراء من البربر إلا أن الرومان بعد تخريبهم لمدينة قرطاجنة واستيلائهم على مدن افريقيا ظهر لهم أهمية موقع قرطاجنة الحربي فأعادوا بناءها بعد تخريبها بعشرين سنة ليحصل لهم بذلك التسلط المعنوي على بلاد افريقيا جميعها ولما رجع مريوس الى رومة تلقته دولته بما استوجبه من التعظيم والاجلال بما حصل له من الانتصار على الملك جوغرطة وحزبه فطمحت نفسه لرئاسة الدولة وكان رئيس مجلس العامة ونازعه رجل يسمى سيلاء رئيس حزب الأعيان وقد شاركه في الانتصار على البربر وله انتصارات عديدة في مواقع اخرى فحصلت بذلك حرب داخلية بين الحزبين وامتدت الحرب الى افريقيا وتشيع كل أمير الى حزب من حزبي الرومان فكان هياسال منتصرا لحزب سلا ويارباس منتصر الحزب ماريوس فزحف يارباس على مملكة هياسال وهزمه وقتل ثم ضم ما بيده من الأوطان الى مملكته لكن ماريوس انهزم حزبه برومة والتجأ الى افريقيا ثم عاد ثانيا

لروما وأشهر الحزب ثانيا كما اسعرت نار الحرب بافريقيا أيضا فانتصر حزب ماريوس بافريقيا وروما لكنه مات فهدأت الفتن بافريقيا وذلك سنة 86 قبل الميلاد، وتجددت بين أحزاب الرومان بأوروبا فحزب انتصر لزعيم اسمه يانبيون الذي فتح بلاد الشام وحزب انتصر لزعيم اسمه يوليوس الذي فتح أرض فرنسا وانكلترا وكان يوليوس من أشهر رجال الحرب والسياسة فانقسمت برابرة المغرب أيضا الى قسمين انحاز كل قسم لزعيم من زعيمي الرومان وآل الأمر الى انتصار يوليوس على عدوه وذلك سنة 46 قبل الميلاد وانفرد برئاسة الدولة وما زاد حتى ودع فقتل غيلة بروما وتولى رياسة الدولة حفيده أوقطاويوس ونازعه بعض الرؤساء فانتصر أوقطايوس عليه وانفرد بالسلطة الرومانية ومن حينئذ لقب اوغسطس أعني العظيم وذلك سنة 27 قبل الميلاد وعلى عهده سقطت الجمهورية الرومانية وانتقلت امبراطورية استبدادية وعلى عهد هذا الامبراطور ولد المسيح عليه الصلاة والسلام.

فصل في الحكومة الامبراطورية

قد سبق أن دولة الرومان جمهورية تدير شؤونها السياسية والادارية بواسطة مجالس شورية وبعد استيلائها على الدولة القرطاجنية بمعونة رؤساء البربر وبما ان البربر انما حملهم على اعانة الرومان ثقل وطأة القرطاجنيين فكان غاية أمانيهم حب الاستقلال والخروج من تحت شرك السلطة الأجنبية ولذلك استقرت نار الحرب في المالك الافريقية ولم يتمكن الرومان من اركاسها الا بعد معاناة شديدة ووقائع عتيدة وقعت بين قبائل البربر وأحزاب القواد الرومانية حتى تمكن أحد قوادها يوليوس من أعدائه وانتصر عليهم وعلى بقية الأحزاب واستأثر بالسلطنة لكنه مازاد حتى ودع لأنه بعد قليل قتل غيلة كما سبق وتولى حفيده أوغسطوس وتلقب بالقيصر وسقطت الجمهورية ورسخ قدمه في الدولة وعظم شأنه وارتفع سلطانه وكثرت فتوحاته حتى امتدت الى البلاد المصرية وكانت للدولة اليونانية منذ افتتحها اسكندر المقدوني سنة 332 قبل الميلاد وجعل قاعدتها الاسكندرية وبعد موته واقتسام قواده لممالكه استولى عليها أحد قواده المسمى بطليوس الأول وانتشأت الدولة البطليوسية حتى آلت الى المرأة المسماة كليوباطرة آخر ملوك اليونان وانحرفت سيرتها فأرسل عليها القيصر الروماني احد قواده بجيش كثيف لفتح بلادها فاستمالته لها وشغفته حبا وكانت فائقة الجمال فتزوجها ثم جهز القيصر جيشا آخر وساقه على بلاد مصر ولما أحست بزوال ملكها ناولت ثديها الى حية فنهشتها وماتت من حينها.

قال الشيد بيرم في صفوة الاعتبار : وقد رأيت صورة المرأة بعدة أماكن بأوروبا والحية بثديها وانقرضت بموتها السلطنة اليونانية وخلفتها الدولة الرومانية فكان من ممالك القيصر المذكور جميع البلاد الافريقية من شطوط البحر الأحمر الى البحر المحيط الغربي وغالب بلاد أوروبا وبعض آسيا واشتهر هذا القيصر وساعده البخت وخضعت له البلاد ودانت له العباد فاجتهد في تعمير الأراضي الافريقية لما أدركه فيها من الأهمية وبذل جهده في استخراج كنوزها الطبيعية فجلب لها الآلاف من الرومانيين العارفين بالطرق الاستعمارية ومنحهم الأراضي الفسيحة فشرعوا في تخطيط المدن وتشييد المعاقل والحصون وتسابقوا في ميادين العمران بغراسة الزيتون والحراثة وتفجير المياه وتقسيمها بطرق هندسية فاتسعت ثروتهم وتقاطرت الأمم الرومانية على البلاد الافريقية واستبحر عمرانها فانتهى بها العمران الى مدينة نفطة وصارت في أواسط القرن الثاني بعد المسيح يعبرون عنها بمخزن حبوب روما واستمرت عناية القيصر اغسطوس بالممالك الافريقية والقياصرة من بعده الى حد وفود القيصر اذريانوس بنفسه الى بلاد افريقيا في أوائل القرن الثاني بعد المسيح وعلى عهده أقيمت عمارات مهمة منها حناية قرطاجنة التي جلب فيها الماء من مسافة بعيدة ومنها قصر الجم الذي هو أحد المعاقل الجسيمة وعجائب الدنيا العظيمة وغاية أمانيهم ومطمح أنظارهم في جمع المياه وحصرها في منحدر الجبال وتوزيعها على المزارع لكثرة اعتنائهم بالأشغال الزراعية حتى أن الحنايا التي جلب الماء بواسطتها المسماة بالكتب القديمة بحنايا اقرش وقد انعدم أكثرها كانت تمتد على مسافة تسعين ألف متر وأما الحنايا الموجودة الآن القريبة من باردو فقد أصلحت على عهد حمودة باشا ابن مراد الذي أنشأ دار الباي بتونس وهي سراية المملكة الآن كما اهتم قياصرة الرومان باحداث الطرق الصناعية التي هي الوسيلة العظمى لاحتكاك العناصر وتبادل البضائع فأحدثوا طريقين عظيمين أحدهما موصل من عنابة الى طرابلس الغرب والثاني من بلد تبسة الى قرطاجنة وتفرع من هذين عدة طرق رابطة لبلدان افريقيا ببعضها ولا يخفى أن الطرق الصناعية زيادة عما ينشأ عنها من نجاح الأعمال الزراعية والتجارية لها فوائد سياسية اذ هي الواسطة الكبرى لضبط الأعمال واستكشاف أحوالها بسرعة وتسهيل الحركات العسكرية وهذه الطرق لم تزل بقية آثارها الى الآن وما أحدثه الفرنساويون من الطرق انما هو توسعه أو اصلاح لما اندثر من الطرق الرومانية وقد اعتنوا بغراسة الزيتون ولو أن ابتداء غراسته في عهد الدولة القرطاجنية لكن اتسع نطاق غراسته على عهد الدولة الرومانية حتى صار الراكب يسير في ظل شجر الزيتون عدة مراحل لأنهم أدركوا أن الجهات القليلة الذين يشغلونها بالزيتون مع ما ينشأ عن ذلك من الثروة العظمى وقد بلغت حدها في البلاد الافريقية يدل على ذلك ما صالح به سكانها الأمير عقبة بن نافع من قناطير الذهب المقنطرة ولما سأل بعض العرب أحد سكانها عن أسباب هذه الثروة العظمى أجابه بإشارة خفيفة الى أن ذلك سببه شجرة الزيتون وذلك بأن نكت الأرض بسبابته واستكشف قلب حبة الزيتون وبسط يده كاشفا له عن ذلك مشيرا الى أن هذا الغنى سببه الزيتون وان كان الكسب غير منحصر في

ذلك إلا أن أغلب الأسباب شجرة الزيتون ويدل على ذلك كثرة المعاصر في جهات المملكة الخربة فإنه مهما عثر على بعض خرابات عتيقة إلا ويجدون آثار المعاصر فقد بلغت غراسته الى جهة نفطة حسبما يدل على ذلك بقية جذور الزيتون في باطن الأرض عندما يعرض حفرها وآثارها المعاصر بين نفطة وتوزر بالجهة الجنوبية منها وكذلك بين توزر والوديان فضلا عما بقيت آثاره بين قفصة وصفاقس وبينهما وبين بلاد الفراشيش وقد وجهت دولة فرنسا عنايتها لاحياء ما اندثر من عمران بلاد افريقيا عند تخريب الكاهنة البربرية لها حسبما يأتي عند فتح المسلمين لهذه البلاد.

فصل في أسباب انحطاط السلطنة الرومانية

لا جرم ان الدولة الجمهورية الرومانية كانت فاتحة أعمالها في ظهور سطوتها ونشر اعلام سيطرتها وقوة شوكتها فتح البلاد القرطاجنية وكان ابتداء الحرب سنة 241 قبل الميلاد باستيلاء الرومان على صقلية والثاني في سنة 219 الى 202 قبل الميلاد وانتهى باستيلاء الرومان على مستعمرات قرطاجنة بإسبانيا وجزائر البحر المتوسط والثالث في سنة 149 الى سنة 146 وانتهى باستيلاء الرومان على قرطاجنة وتخريبها وضم بقية البلاد الافريقية الى مستملكاتها نهائيا وما انتهت هذه الحرب الثالثة إلا وأصبحت هذه الدولة الجمهورية الرومانية ناشرة اعلام سلطتها على كثير من الممالك الواقعة على ساحل البحر الرومي بحيث لم تقم الدولة الامبراطورية إلا وتحت سيطرتها انكترا وفرنسا واسبانيا وجزر البحر المتوسط وافريقيا واليونان وشبه جزيرة البلكان والأناضولي وبلاد الشام وأضاف القيصر اغسطوس الى مستعمراته البلاد المصرية وقام بعده قياصرة سلكوا سبيل الاستبداد ولم يثنهم على النظر في أسباب تقوية شوكة الدولة حتى أن القيصر اذريانوس تفقد الممالك الافريقية بنفسه مرتين هذه عنايته بأسباب العمران واستمرت تلك العظمة في الدولة الرومانية التي تجاوزت بحسن نظاماتها الحربية وقوانينها العدلية سلطنة اليونان والفرس الى أن جلس على سرير الملك القيصر نمديوس سنة 180 بعد المسيح فانغمس في اللهو والطرب وأخذ يتفنن في افانين الترف وأعرض عن تدبير شؤون مملكته وأوكلها الى رؤساء العساكر الذين هم دخلاء في الجنسية الرومانية اذ هم من الشعب الداخلين تحت حكمها بالقوة الجبرية ومع كونهم دخلاء لم تدعهم الى السكون والهدوء والتنظيمات العدلية والمساواة في الحقوق بين الراعي والرعية التي هي القوة الطبيعية في اخضاع الأمم وامتزاج العناصر بل لما رأوا السيرة الاستبدادية بتسلط الرئيس على المرؤوس واهمال التنظيمات الحربية وانسوا الخور والضعف من رئيس الدولة تاقت نفس كل رئيس الى السيطرة والاستبداد كما وقع لملوك بني العباس حيث قلدوا أمور الدولة للأعاجم واشتغلوا باللهو فكان ذلك سببا لخروج الملك من أيديهم وزاد في الطين بلة هياج القبائل البربرية النازحين الى الجبال والمستوعرات وقيام الأمم الجرمانية من الواندال والغوط فانتهزوا الفرصة عند اختلال السلطنة الرومانية للاجهاز عليها وأعان أمة الواندال للحصول على مقصدها وجود أغلب رؤساء الجند منها يولون ويعزلون فصارت خطة الامبراطورية تباع بالمزاد لمن يختاره الجند وكثر القتل والخلع وزاد اختلال الأحوال اضطهادا لقياصرة لمن اعتنق الديانة المسيحية حيث انها فشت في خلال هذه المدة فشوا كبيرا مع أن المسيحيين في أنفسهم تفرقوا شيعا فكثر بينهم الجدال وقوي البلبال ونشأ عن ذلك في الأحوال اختلال الى أن آل الى تلاش واضمحلال والى الله المآل وبموجب هذا الخلل مع اتساع اطراف المملكة ظهر للامبراطور قلطيانوس أن يقسم السلطنة الى قسمين غربية وشرقية ليكون له شريكا في الملك يستعين به على صد غارات القبائل الجرمانية واعادة الديانة الوثنية ومقاومة المسيحيين بالسلطنة القهرية فقسمها وذلك في سنة 326 مسيحية وشدد في اضطهاد المعتنقين للديانة المسيحية الى ان آل أمر السلطنة الشرقية الى قسطنطين الأكبر فدخل في الديانة النصرانية وأخذ بناصر المسيحيين وحول قاعدة سلطته الى قسطنطينة وذلك سنة 330 بعد المسيح وكانت تسمى بيزنطة وبتنصر الامبراطور مع رجال الدولة وصيرورة الديانة ديانة الدولة الرسمية أثرت في سياسة البلاد الافريقية تأثيرا عظيما، وذلك انه فضلا عن دخول غالب الشعب الروماني في الديانة النصرانية اعتنقها كثير من البربر بمساعي الرهبان ومع ذلك فإن البربر وان كانت ديانتهم الأصلية وثنية فإنهم كانوا يهرعون بغاية الحرص والرغبة الى الدخول في الديانة النصرانية لما كانوا عليه من الاضطهاد تحت نير القهر والاستبداد والاهانة والاستعباد والديانة المسيحية تأمر بالعدل والرفق والمساواة في الحقوق والأعراض عن زخرف الحياة الدنيا فكان دخولهم في الديانة المسيحية حاجزا حصينا بينهم وبين نيران المتسلطين الذين كانت تأكل أطرافهم فاستراحوا تحت ظل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فدخل الكثير منهم في الديانة المسيحية طوعا وقول بعضهم أن البربر اتخذوا علامة يتميز بها المسيحيون على الوثنيين وهي وشم على شكل الصليب بين أعينهم ولا تزال هذه القاعدة في عقبهم لهذا العهد وهم لا يشعرون ليس بشيء فإن هذه الدعوى مردودة من وجوه.

الأول أن هذه العلامة ان كان اتخاذها جبرا من المتسلطين فقد ذكر المدعي نفسه ان دخولهم في الديانة المسيحية طوعا بل ضد ارادة المتسلطين وحتى لو فرضنا انه جبري مع بعده كما علمت فقد ذكر المدعي نفسه أن الديانة المسيحية مبنية على الرفق واللين وعدم الضغط، فلا داعي حينئذ الى هذا الاقتراح وان كان اتخاذها اختياريا فما الحامل لهم على تعذيب انفسهم باتخاذ علامة تكون شعارا على اتصافهم بديانة تأمر

بالمعروف وتنهي عن المنكر مع خفائها على بعد فهلا اتخذوا شعارا من جنس الملبوس يدل دلالة واضحة على البعد مع زوالها في أي وقت شاء فأي علامة أوضح وأبين في هذه الظروف بين الاورباويين وغيرهم من اختلافهم في اللبس.

الوجه الثاني ان الوشم غير مختص بهذا الجيل فإنه موجود عندهم وعند غيرهم من الأمم كأمة الفرس والعرب وحتى الروم بل ان العرب يتمدحون به في اشعار الجاهلية بكثرة ومن ذلك قول طرفة :

لخولـــــة اطلــــــلال ببرقـــــة تهمـل   تلـوح كبـاقي الـوشـم في ظـاهـر الـيد

وكقول زهير :

ودار لها بـــــــــــالـــــــــــرقمتين كأنها   مــــــــراجيع وشم في نــــــواشر معصم

الوجه الثالث ان القبائل التونسية لهذا العهد ترى منهم الكثير بهذا الوشم مع أن التحقيق في نسبهم أنهم من العرب الداخلين أيام المعز بن باديس مثل الهمامة الذين يرجع نسبهم الى بني سلم ودريد وبني يزيد الذين يرجع نسبهم الى بني هلال فإن في بني يزيد بطن يسمونهم الأولاد ذياب يعني ذياب بـن غالب الذي اشتهر بالـوقائع الحربية بينه وبين خليفـة الزناتي كما أشار لـه ابن خلدون ولعله في القبائل العـربية وكذلك عرب طرود الذين هم من عـرب اليمن وأولاد تليل الذين هم من ذرية سيدنا عثمان بن عفان وغيرهـم ممن لا يحصون كثرة فهؤلاء كلهم تجد بينهم من يتخذ الوشم المذكـور وليس من البربر في شيء حيث أن القبائل سكان الخيام أشد محافظـة على أنسابهم بخلاف الحواضر فإنه يسرع اليهم اختلاط الأنساب بمقتضى انتحال الدخيل لنحلة أهل البلد الـوافدين عليها وتداخل المصاهرات بينهم حتى تكاد أن لا تجد من ينتسب لنسب مخصوص على التحقيق فاتضح بما تقرر أن هذه الدعوى لا تنهض لمدعيها والله أعلم بغيبه واليه الأمر من قبل ومن بعد.

فصل في تسلط الواندال على افريقيا وانتزاعها من الرومان

هذه الأمة احدى القبائل الذين هاجموا دولة الرومان عندما أدركها الهرم وتزعزعت أركان مجدها وذلك أن القبائل الجرمانية التي تقاطرت على أوروبا في أوائل القرن الثالث بعد المسيح واستخدمت رجالها بصفة جنـود للدولة الرومانية وبتمكنهم في أعماق السلطنة صارت السلطة الامبراطـورية اسم بـلا مسمى ولم تزل السلطنـة في انحطاط الى ان سقط القسم الغـربي منها نهائيـا بعد أن احتلت قبيلـة **الانكل** والسكسون بجنوب ابـريطانيا فسميت انكلترا يعنـي أرض الانكل وقبيلة الافرنج نـزلوا أولا بالشمال الشرقي من غليـا ثم استولـوا على جميعها فسميت افرنجة أو فرانسا وقبيلة الوالندال نزلوا بجنوب فرانسـا وجنوب اسبانيا وبهم تسمى الأندلس يعني بلاد الواندال فأسسوا بالقسم الغربي من أوروبا مملكـة نسبت اليهم من ذلك الوقت فصـارت تعرف بأنـدلوسيـا وبما لهم من سابق الانخراط في سلـك العساكر الـرومانيـة واحتكاك العناصر ببعضها انتحلـوا منهم التنظيمات الحربية وادارة الأمور السياسية ونـادوا بنصب أحد رؤسائهم المسمى **جنصرين** ملكا عليهم فشمر على ساعد الجد ورتب جندا عتيـدا وأخذ يلتقم أطراف الممالك الرومانية الشاسعـة فرسخت قدمه وقوي صيته، وبينما دولة الـوالندال الشابة أخذت في النمو والـدولة الرومانية آخـذة في الانحطاط حتى استوى **وانضياقوس** على عرش الامبراطـورية الرومانية الغـربية سنة 422 بعد المسيح وكان في السـادسة من عمـره فقامت أمـه بتدبير الملك وكـانت تحت أمر أحـد رؤساء الجنـد المدعو **ايطيوس** فتأثر من ذلـك الكونت **بونفياس** الوالي العام بافريقيا حيث كانت بينه وبين ذلك الرئيس احقاد شخصية وانف من البقاء تحت سيطرته كما وقع للمعز ابن باديس حين انف من وزير الفاطمي وخلع طاعة العبيديين فكانت عليه القاضيـة كما يأتي ثم أن الكونت بونفياس حاول الاستقـلال فأرسلت عليه دولة الرومان جيشا فهزمه ثم توقع اعادة الكرة عليه فاستنجد بملك الواندال فكان ذلك سبب خذلانه والضربة القاضية على أم رأسه فانتهز الملك جنصرين هذه الفرصـة الثمينـة التي هي الضالة المنشودة والدرة المفقودة وبـادر بالزحف فأجاز عساكره الى سـواحل المغرب الأقصى وطنجة بكلاكله فعاث في طريقه بضروب الفساد وتخريب البلاد وسفك دماء العباد ولما رأى **بونفياس** ما حل ببلاده من التدمير ندم ولات حين ندم وأخذ في الاستعداد لطرد الوانـدال وتقدم نحوهم في جيش كثيف فانهزم والتجأ الى بلد عنابة فحاصرهـا الملك جنصرين واستولى عليها وفر بونفياس وذلك سنة 430 مسيحية وفي اثناء هذا الحصار مات ببلد عنابة، **صازاوعستان** وهو من مشاهير رؤساء الديانة المسيحية بافريقيا وفي سنة 434 هاجم جنصرين بلاد افريقيا فانهزم بونفياس وأرسل قيصر الروم جيشا لايقاف الواندال فأظهر جنصرين الخضوع ورضي بالصلح على أن يدفع الـواندال خراجـا لدولة الرومـان ثم لم يلبث إلا ريثما راجع أمره وجمع جنوده وآنس الاطمئنـان من دولة الرومـان فنقض العهد وزحف على قرطاجنة بجنوده فدخلها عنوة وبذلك انقرضت السلطنة الرومانية من بلاد افريقيا وذلك سنة 439 بعد المسيح ودامات الى سنة 534 وباستيلاء جنصرين على افـريقيا تأسست بها أول دولة ملكية وراثيـة لأن بلاد افريقيا كانت اول عمـرانها يسكنها البربر وكـانـوا شعوبا وقبائل لا يعرفون الملك فلـم تكن بها دولة منظمة ثم أسست الدولة القرطـاجنية بيد الفنيقيين وكانت حكومة جمهـورية ثم صارت مستعمرة رومانيـة ثم أسست بها دولة الـواندال دولة مستقلـة قاعـدتها قرطاجنـة دامت اربعمائة وتسعين سنة تـوارثها ستة ملـوك من عقب جنصرين مؤسس هذه الدولة فإنه استولى على عرش الملك سنة 439 مسيحيـة وسلك مع البربر طريق المجاملة والرفق فاتخذ منهم جندا وأفاض عليهم

من احسانه ما جذب به قلوبهم فكانوا أقوى مساعد له على توطيد سلطنته وقهر الرومان وكان الواندال متذهبين بمذهب اريوس الاسكندراني الذي يرى انكار التثليث وأن المسيح مخلوق فاضطهد نصارى افريقيا وعمد الى أسقف قرطاجنة وقسوسها فربطهم على ألواح ورمى بهم في البحر وكان الواندال قد اتخذوا أسطولا ضخما على عهد الملك جنصرين فاستولى به على مالطة وسردانية وصقلية وكرسيكا وأخذ يشن الغارات على بلاد ايطاليا فصادف ثورة في إيطاليا نشأت عن ابتزاز **مامسموس** لسرير الملك وثار به العامة برومة فانتهز جنصريق هذه الفرصة وزحف بعساكره الجرارة على مدينة رومة ودخلوها عنوة فعاثت تلك الجنود البربرية والجرمانية في تلك المدينة الزاهرة القاهرة لمدينة قرطاجنة بالهدم والحرق سنة 146 قبل المسيح فعادت الكرة عليها سنة 455 بعد المسيح وذلك بعد ستمائة سنة فزعزعت أركانها ودمرت حصونها وبقيت العساكر البربرية تدوسها بأقدام الاهانة أربعة عشرة يوما ولما مات الملك جنصريق وخلفه **هونريق** في الملك وذلك سنة 477 سار سيرة خلفه في اضطهاد نصارى افريقيا الذين ليسوا على وفق عشيرتهم فأمر بابعاد خمسة آلاف من الرهبان الى مدينة الكاف ثم نفاهم الى الصحراء واغتصب جميع كنائس الكاتوليك فكانت هذه السياسة الخرقاء مؤثرة في الاستعمار الروماني فأخذ في التناقص والتأخر إلا أن دولة الواندال رفعت عن البربر ثقل الاستبداد ووطأة الاستعباد فانبعثت فيهم روح الحياة القومية وطمحت الى الآمال السياسية وقد اخذت السلطنة الواندلية في الانحطاط بسبب طموح البربر للرئاسة وتأخر الاستعمار الروماني باضطهادهم وتأخر موارد الثروة وانغماس اليد الحاكمة في ضروب الترف وافانين النعيم وأعراضهم عن التنظيمات الحربية والتراتيب السياسية اللتين هما حياة الدول فاضمحلت منهم تلك الشهامة الطبيعية وانعكست لضدها فكان الملك لا يهمه إلا مرسح او حديقة او جنة أنيقة فتطاول البربر الى ما تحرك في نفوسهم من حب الاستقلال فتكونت لهم ممالك وأمراء بالمغرب الأقصى والأوسط ولم يبق للواندال الا المملكة التونسية وبعض السواحل الشمالية من عمالة الجزائر ثم مات هونريق سنة 484 وخلفه **عونداموند** ثم مات سنة 497 بعد المسيح وخلفه **شراسيموند** ثم مات سنة 533 وخلفه **هيلويق** وكان ضعيف النفس ناقص الرأي فظهر له التزلف الى قيصر الروم بالسلطنة الشرقية فبلغ به ذلك الى درجة شبيهة بالتبعية والانحطاط فاستنكف رجال الدولة ونادوا بخلعه وذلك سنة 532 وأجلسوا ابن عمه **جاليمار** وكان قيصر الروم **يوستنيانوس** الشهير يتربص الدوائر للوثوب على دولة الواندال واعادة البلاد الافريقية للدولة الرومانية فانتهزها فرصة واقترح على الواندال اعادة ملكهم الأول فآنفوا من ذلك وأجابوه جوابا عنيفا فأعلن القيصر عليهم الحرب وساق جنوده المجندة فدارت الدوائر على الواندال وذلك سنة 533 .

فصل في تسلط الروم على بلاد افريقية

من المعلوم ان هذه الأمة فرع من دولة الرومان وانما حسن الكلام عليها بانفرادها من وجوه :

الأول : أن الدولة الرومانية انقسمت الى شرقي وغربي كما تقرر وكانت دولة الروم منفردة تحتها القسطنطينية .

الوجه الثاني : ان باستيلائها على ما كان بيد الأمة اليونانية من الأناضول وشبه جزيرة البلكان وبلاد الشام ومصر قد اكتسبت صبغة يونانية فصارت لغتها وأدابهاونظاماتها كلها يونانية .

الثالث : ان هذه الأمة هي التي أدركها العرب الفاتحون وابتزوا ما كان بيدها من الممالك .

الرابع : ان المسلمين ورثوا هذه الأمة في سياستها وعلومها ونسج على منوالها جميع الملوك الاسلامية في النظامات الملكية اذ احتكاك العنصرين كان له أعظم تأثير في اقتباس علومهم وتمدنهم فانتحل منهم ذلك الأمويون والعباسيون ثم السلجوقيون والعثمانيون من بعدهم وعلى عهد الخليفة المأمون ترجمت عدة كتب في العلوم العقلية واستفاد منهم الأمم الاسلامية فوائد مهمة وزاد امتزاج العنصرين استحكاما دخول الكثير من الروم في الديانة الاسلامية طوعا ولذلك كان عامة المسلمين يطلقون لفظ الرومي على كل مسيحي الى الآن كما أن سوريا بلاد الشام وهي أول قطعة افتتحها المسلمون من ممالك الروم فصار عامة المسلمين عندما يطلقون لفظ سوري على غالب الأقوال والأفعال الأرباوية فيقولون كلام سوري وطعام سوري ولباس سوري الى غير ذلك فاذا علمت ذلك تعلم ان دولة الروم إذا أطلقت فإنما يراد بها السلطنة الشرقية الرومانية وقد سبق أن القسم الغربي من السلطنة الرومانية لم يزل في وهن وانحطاط الى أن سقط نهائيا فتغلب الأمم الجرمانية عليه وذلك سنة 439 مسيحية على عهد الملك جنصريق وبقي القسم الشرقي محافظا على استقلاله حيث أن البحر الأسود ونهر الطونة وجبال البلكان كانت لها حاجزا حصينا لصد هجمات القبائل الجرمانية وقبل ظهور الاسلامية كانت هذه الدولة تعاني حرب أمتين عظيمتين وهما أمة البلغار التي نزحت من بلادها الشمالية واستقرت ببلادها المنسوبة لها الآن والثانية أمة الفرس التي تمتد من حدود الشام الى بلاد الهند وقد أمكن لدولة الروم بمحافظتها على نظاماتها وحسن تراتيبها صد غارات هاتين الأمتين ولم تزل محافظة على شرفها لم تزحزح عن موقعها الى أن جلس القيصر يوستنيانوس على تخت الملك في أواسط القرن السادس بعد المسيح وكان هذا القيصر له من الشهامة وثبات الجأش وقوة العزم وعلو النفس ما خلد له جميل الذكر في التواريخ القديمة فانه تسنى له بشدة حزمه الانتقال من حيز الدفاع الى مجال الهجوم لأن همته سمت به الى لمّ شعث السلطنة الغربية الرومانية القديمة التي تغلبت عليها القبائل الجرمانية وأقيمت على أطلالها دولة الواندال ثم استولى على سردانيا ومالطة وصقلية وجنوى وايطاليا وآل به الحال الى أن استولى على بقية افريقيا كما يأتي قريبا وقهر دولة الواندال والغوط وذلك بعد أن

استولت دولة الواندال على دولة الرومان وقهرتها وانتزعت منها البلاد الافريقية وبقي الروم أهل السلطنة الشرقية يعللون النفس بالانتصار الى اخوانهم واسترجاع ما استولى عليه الوندال وضمه الى الممالك القيصرية وأبرزوا هذا الفكر من حيز القوة الى الفعل فساق القيصر اليون الأول أسطولا وحاول الاستيلاء على قرطاجنة لكنه لما قرب من المدينة وثبت عليه أساطيل الواندال وطحنته بكلاكها وذلك سنة 468 مسيحية فلم تزد الروم هذه الهزيمة إلا قوة على قوة عزمهم وشدة لوثوق حبل آمالهم ولكنهم ركنوا الى المسالمة ريثما تسنح لهم الفرصة وعلى عهد القيصر بوستنيانوس الشهير الذكر انتهز فرصة الثورة التي أنزلت الملك هيلويق من تحت الملك بسبب ميله وانقياده لسياسة القيصر فوثب هذا القيصر على دولة الواندال وهذا القيصر يسمى في تواريخ العرب المترجمة يوشطينانش وكان من أعظم القياصرة شهرة وهو الذي قصده امرؤ القيس مستنجدا به على قاتلي أبيه وإياه يعني من قوله وقصيدته :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه   وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

وقد افتكر طويلا في اعلان الحرب على دولة الواندال لبقاء تلك الهزيمة التي أذهبت أساطيلهم في أعماق البحر وأزهقت أرواح رجالهم ولكن احساسات هذا الملك الدنيئة وعلو همته طوحت به الى الترامي في الأخطار سعيا وراء الحصول على مرغوبه ورد على ذلك اغراءات رؤساء الديانة فساق على الواندال جيشا عرمرما يحمله أسطول ضخم مشتمل على خمسة آلاف فارس وستة آلاف راجل مع ما يلزم من الذخائر الحربية تحت رئاسة أحد أركان حزبه المسمى بلزار وذلك سنة 533 مسيحية يعني قبل ولادة نبينا عليه الصلاة والسلام بسبع وثلاثين سنة لأنه صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل الذي هو سنة 570 بعد المسيح وبرز هذا الأسطول من القسطينية في 23 يونية من السنة المذكورة وسار في عرض البحر على وجل من أسطول الواندال الى أن أرسى على صقلية مترقبا استطلاع أحوال الواندال فبلغه أن أسطولهم حمل قوة عسكرية قصد بها جزيرة سردانية لاخماد ثورة وقعت بها كما بلغه أن جهة طرابلس عصت الواندال وحاولت تسليم البلاد الى عساكر الروم فالتقمتها دولة الروم وحصنت قلاعها وقوي اذ ذاك عزم بلزار فرأى من المكائد الحربية أن لا يتعرض لاقتحام قرطاجنة بحرا بل ساق عساكره برا من طرابلس بعد أن أنزل أسطوله بمرسى بين المهدية وطرابلس اسمها كبودية واجتمع الجيشان هناك وأمر بعدم التعرض لأموال الناس وأحسن معاملتهم فتلقاه الأهالي بالترحاب ثم سار نحو الشمال فاستولى على لمطة ثم على سوسة ومن هناك سار الى قرطاجنة حيث بلغه اهمال تحصينها مع أن من بها من بقايا الرومان مستعدون لفتح أبوابها بدون قتال وكان جليمار مستخفا بأعدائه غير مكترث بتأديب الزمان حتى أنه وقت هجوم الروم على قلاعه هو في بعض منتزهاته مع رجال دولته الى أن دهمه السيل وهو بداخل المملكة بعيدا عن قرطاجنة مستقر حاميته وعاصمة بلاده واذ ذاك انتبه من سنة غروره وسار نحو قرطاجنة بمن معه من العساكر وقد فات الأوان وأيقن بادبار الزمان فأدرك جيش بلزار بمحل يبعد نحو خمسة وعشرين ميلا من قرطاجنة يسمى ديقيموم فلم تكن الا ساعة حتى ولت عساكر الواندال الادبار وانهزموا شر هزيمة وتقدم بلزار بعساكر نحو قرطاجنة فرأوا أسطوله محاذيا له بحرا حتى نزل بقرطاجنة تلك المدينة الجليلة فانذهل أهلها وقام من بها من الرومان وفتحوا أبوابها لعساكر الروم فدخلوها ولم يحدثوا بها أدنى ضرر الى أن نزل بلزار بقصر الملك جليمار وتناول مع أركان حربه طعاما كان أعده أرباب القصر للاحتفال برجوع الملك من منتزهاته وكان دخول بلزار في سبتمبر سنة 533 مسيحية ثم بادر الروم لترميم حصون قرطاجنة وأسوارها وأحاطوا بها خندقا عظيما فأصبحت من المعاقل المهمة المنيعة وبهذا الفتح اكتسبوا وجاهة عظيمة قذف بها الرعب في قلوب السكان فأصبحوا كلهم طوع يدهم وأقبل أمراء البربر على رئيس العساكر خاضعين ملتزمين بالدخول تحت الطاعة القيصرية ثم جمع جليمار ما أمكنه جمعه من العساكر واستدعى ما تيسر له من الجيش الذي كان وجهه الى سردانيا وكان معسكرا بدخلة أولاد بوسالم وأخذ يبذل الأموال الى رؤساء القبائل البربرية ليعسكروا معه فانضمت اليه بعض الأخلاط من سقط المتاع وسار نحو قرطاجنة ولما رأى مناعتها وحصانتها قطع عنها الماء من الحناية الجالبة له من زغوان وكان بلزار لم يتزحزح عن مركزه الحربي ولا يبدي حركة الى أن حانت الفرصة فزحف بجنوده على جليمار وكان ضاربا بجنوده على نحو عشرين ميلا من قرطاجنة فأوقع به الوقيعة العظمى وشتت شمله فسقطت بهذه الهزيمة دولة الواندال وذلك سنة 533 في ديسمبر وتوطدت سلطنة الروم بافريقيا ثم أن جليمار فر بشرذمة قليلة من الفرسان وتبعه عساكر الروم الى أن وصل عمالة قسنطينة المسماة نوميدية والتجأ الى جبل زوارة المسمى تاربرت وحاصره هناك بلزار حتى اضطره الى الاستسلام في مارس سنة 534 فأخذه أسيرا وعامله معاملة حسنة وأكرم مثواه عنده الى أن وصل قسطنطينية فلما مثل بين يدي القيصر بوستنيانوس نطق بعبارات تدل على تجلده أمام نكبات الدهر وتقلبات الزمان فأكرمه القيصر وأنعم عليه بما كمل به بقية حياته ولله الأمر من قبل ومن بعد وقد ذهبت دولة الواندال أدراج الرياح وسبب اضمحلالها ميلها لأسباب الترف والراحة والتعصبات الدينية واضطهادها للرعية فهذه الأسباب المنفرة للقلوب قد استوجبت انحلال عرى السلطنة وهدمت أركان عزمها ولله في خلقه شؤون.

ولما فتح الروم افريقية واستولوا على ما استطاعوه منها وكانت عامرة بعناصر كثيرة منها الواندال الذين هم حكام البلاد وأرباب الثروة ثم بقية الرومان الذين عمروا البلاد وأحيوها ومنها البربر الذين هم السواد الأعظم وهم أرباب البلاد الذين نزحوا الى ضواحي افريقيا

واعتصموا بالجبال وانبعثت فيهم روح الحياة القومية باختلال أحوال الرومان واستيلاء الواندال عليه ثم انحلال عرى سلطنة الواندال واهماله للتنظيمات الحربية والسياسية واستقل منهم عدة أمراء بعدة جهات ولما تغلب بلزار على افريقية حمل من الواندال عددا وافرا الى قسنطنة واتخذهم القيصر حرسا خصوصيا ونقل الباقي الى الحدود الفارسية وما بقي من الواندال بافريقيا استقروا تحت مذلة الروم فعاملوهم بالخسف والهوان وعند رجوع بلزار الى الديار الرومية استخلف على افريقيا أحد امراءه المسمى سولومون ولما كانت القبائل البربرية قد استقلت بها عدة أمراء كما سبقت الاشارة اليه ولم يبق خاضعا لسلطنة الواندال الأرض البلاد الشمالية مثل جزيرة شريك المسماة دخلة المعاوين، وجبال ماطر وباجة وخمير ووشتاتة من المملكة التونسية وجبل زواوة من عمالة قسنطينة فاستولى عليها الروم بمجرد انقراض سلطنة الواندال وبقية الأمراء المستقلين أخذ الروم يستميلونهم بأنواع السياسة وهعم عدة أمراء منهم الأمير برحة تحت رياسة عدة قبائل أعظمها قبيلة لوابتة غربي طرابلس ومنهم الأمير انطلاسي وكانت رئاسته على عدة قبائل أعظمها قبيلة الفراشيش التي اندمج فيها أغلب من بقي من الواندال كما يدل على ذلك بقية الدم الجرماني الجاري في عقبهم الآن ومن جملة من هم تحت رعاية هذا الأمير قبائل ماجر وغيرهم الضاربين بجهات قفصة وأحواز فريانة وما ولاها من ناحية الغرب الى عمالة قسنطينة ثم ايعيره أمير جبل أوراس وكان أعظم أمراء البربرقوة وبسطا فكان جميع أمراء البربر تحت سيطرته شبه الخاضعين ولعله هو جد الكاهنة المشهورة التي اشتهرت بالوقائع الحربية الشهيرة بينها وبين العرب الفاتحين لأنه بين دخول الروم الى افريقيا في تاريخ هذا الأمير وبين دخول العرب سبع وتسعون سنة وهناك أمراء أخر يحكمون عدة قبائل بالمغرب الأوسط والأقصى وجنوب افريقيا مثل التوارق وغيرهم وقول الشيخ بيرم ان قبائل التوارق أصلهم عرب وأن اسمهم التوارك لأن قبيلة من العرب نزحت الى بلادهم ثم رحلوا وتركوا شرذمة منهم في تلك الجهة فسموهم التوارك ليس بشيء وهو مردود من وجوه.

الأول : ان لغتهم بربرية الى الآن ويبعد كل البعد انهم يهجرون لغتهم ويتشبثون بلغة أخرى مع أن البربر أنفسهم بمجرد دخولهم في الاسلام وامتزاجهم بالعرب تركوا لغتهم ولم يبق الا المنقطعون في الجبال لم يختلطوا بالعرب.

الوجه الثاني : ان التوارك بمقتضى كلامه جمع تارك وهو جمع مذكر لمن يعقل مع أنه لم يسمع من العرب فواعل جمع فاعل، جمع لمن يعقل غير فوارس وهو سماعي يحفظ ولا يقاس عليه.

الثالث : ان قبائل التوارق لا يحصون كثرة فهم معدودون بالملايين فإذا كان هذا العدد المتروك بلغ الى هذا القدر فكيف بالقدر الذي رجع مع أن العرب الذين وفدوا على بلاد افريقية أما في زمن الفتح فقد استقروا بالمدن وأما الذين وردوا في عهد المعز بن باديس وهم قبائل معروفة محفوظة انسابهم الى الآن لا يتجاوزون ثلاثة آلاف كما حققه ابن خلدون وغيره من المؤرخين ولم ينقل عن أحد من المؤرخين ان التوارق من العرب بل أنهم قبائل بربرية أصليون نزحوا الى أعماق الرمال وتوغلوا في دواخل البلاد ليس للروم ولا الواندال ولا الرومان عليهم أدنى تبعية وكانت سياسة الروم مع البربر منقسمة الى قسمين سياستهم مع الرعية وسياستهم مع الأمراء أما سياستهم مع الرعية فإن مدارها على الرفق وعدم التعرض الى عوائدهم وقلة الضرائب وغاية ما يهمهم من ثمرة استيلائهم تشييد الحصون والقلاع واحياء معالم السلطنة وأما سياستهم مع الأمراء فكانت منقسمة الى قسمين أيضا استجلابهم واستمالتهم نحوهم بما يرون لديهم من الهدايا الثمينة والألقاب الشرفية ومن جهة أخرى فهم يبذرون بينهم الشقاق والعداوة لكي لا تجتمع بينهم عصابات تعسر عليهم حلها بل ربما يتسنى لهم انكسارهم ببعضهم ويؤيد ذلك ما ذكره المؤرخ الشهير بروكوبيوس الذي كان كاتبا على القائد بلزار فكان عمدة مؤرخي الروم توفي سنة 56 قبل ميلاد نبينا صلى الله عليه وسلم بخمس سنين لأنه عليه الصلاة والسلام ولد سنة 570 مسيحية وقد وافق هذا المؤرخ بلزار في جميع غزواته ضد الواندال فكان يحكي جميع الوقائع الافريقية على مشاهدة وعيان ولذلك يعده مؤرخوا الافرنج من عمد المؤرخين وله مؤلفات عديدة فقد ذكر في بعض مؤلفاته ان الواحد من أمراء البربر اذا اضطر الى الدخول تحت النفوذ الرومي أما لخشية انسحاب القوة الجبرية عليه أو لمعاكسة بعض الأمراء من أعدائه المضادين له وللروم كان يكاتب الوالي العام بقرطاجنة بما يقتضي التزلف والخضوع لدولة القيصر مشيرا لبقائه تحت أكنافه مع أقراره على امارته متمتعا باحترامه ونصرته على أعدائه عندما يقتضي الحال ذلك فيطلب منه الوالي بعض قرابته رهنا وعنوانا على خضوعه واذ ذاك يخلع عليه خلعة التبعية القيصرية وصورة ذلك أن يلبسه شعار الامارة وهو برنص مزركش بأسلاك الذهب ثم علالة بيضاء موشحة ثم نعال بطراز من الذهب ويصحب مع ذلك هدية جسيمة من طرف الوالي وتمضي المعاهدة بين الطرفين على شروط.

أولها : دفع الحكومة القيصرية للأمير مرتبا سنويا.

ثانيا : التزام الأمير بانجاد الروم بما لديه من القوة الجندية عند الاقتضاء.

ثالثا : التزام الأمير باقرار الراحة وتأمين السبل.

رابعا : أن تكون تصرفاته تحت مراقبة الوالي، انتهى كلام المؤرخ الرومي.

وقد أشار ابن خلدون الى هذه الشروط غير أن ابن خلدون عكس الأمر في ذكره دفع الرومي الى الأمراء مرتبا فذكر أن الافرنج الذين استولوا على البربر ويعني بهم الروم لأن الافرنج اذ ذاك لم يستولوا على افريقيا كانوا يعسكرون معهم في حربهم ويدفعون لهم خراجا مؤقتا مع ان المؤرخ بروكوبيوس ذكر أن دولة الروم هي التي تدفع مرتبات الى الأمراء استجلابا لهم كما سبق ولعل الخراج ضرب على البربر بعد موت بروكوبيبوس لأن ابن خلدون نقل ذلك عن مؤرخي البربر أنفسهم ورب الدار أعلم بما فيها.

ويؤيد ما ذكره ابن خلدون سرعة انحراف البربر على الروم وكثرة الحروب والثورات بينهم وبين القبائل البربرية بحيث لم ترسخ أقدامهم إلا في المدن ذوات الحصون والعواصم مثل قرطاجنة وسبيطلة وتبسه والمدن التي على شاطىء البحر ولما رأى سولومون ما أحدثه القبائل البربرية من الفساد وشق عصا الطاعة جمع جيشا عرمرما مؤلفا من الجنود الرومية ورجالات البربر وزحف به على البربر وقد اتفقوا على أمير يقال له انطلاس فالتحم القتال واشتعلت نار الحرب بينه وبين البربر والتقي الجمعان بمحل قرب تبسة فوقعت الهزيمة الشنعاء على قوم سولومون الوالي العام الرومي وقتل في المعركة وتشتت جموعه وذلك سنة 542 مسيحية وبهذا الانتصار قويت قلوب البربر وارتفعت شوكتهم وفي سنة 546 مسيحية تولى أمر افريقيا من قبل القيصر جان طوقياطه فبذل جهده في تحصيل العافية واستقرار الراحة فلم يمكنه ذلك حيث أن البربر ذاقوا حلاوة الانتصار فانبعث في نفوسهم روح الحياة القومية وحب الاستقلال ولم يزل أمر افريقيا في دفع وجذب من اختلال الأحوال بسبب هذه الحروب حتى وردت أمة الغوط المستقرة بالأندلس الى المغرب الأقصى سنة 618 مسيحية فأذعن لها بعض القبائل المجاورة للبحر وقوي أمر البربر بافريقيا وصار لأمرائهم الظهور على الروم وأقوى الأمراء بالبربر المرأة المدعوة الكاهنة دهيا التي مقرها جبل أوراس فهي بما لديها من كثرة العدد واتساع الملك وقوة الشوكة وما عندها من بعض علم الحدثان صارت صاحبة السيطرة على جميع أمراء البربر يأتمرون بأمرها وينتهون بنهيها وفي سنة 647 ميسحية وفق سنة 27 هجرية وفد العرب على بلاد افريقيا تحت لواء أميرهم سيدي عبد الله بن أبي سرح.

الباب الثاني

في فتح العرب لافريقيا ومبادي ذلك

كان الروم عند استيلائهم على افريقيا وانتزاعها من يد الواندال على يد القائد الشهير بلزار كما سبق وأمّن الوسائل السياسية والمكائد الحربية التي تعينهم على اخضاع البربر نهائيا وصد غارات الأمم الأجنبية أن يتخذوا معاقلا وحصونا واستحكامات مهمة فحصنوا المواني البحرية وجعلوا مركز ذلك مدينة قرطاجنة ثم بالغوا في تحصين القلاع والحصون البربرية وجعلوا مركزهم مدينة سبيطلة ولما رأوا من أهميتها بتوغلها في دواخل البلاد مع حسن موقعها الحربي فشحنوها بالذخائر الحربية والرجال العارفين بالطرق السياسية والحربية فاستمالوا أمراء البربر تارة بالوسائل السياسية وتارة بالقوة الجبرية حتى تم لهم التسلط المعنوي على أغلب افريقيا وكان مركز الولاية العامة مدينة قرطاجنة ورديفتها سبيطلة والأمير بها يدعى جرجير والسلطنة العامة على الجميع لصاحب قسطنطينية فيمدهم بالذخائر الحربية والقوة الجندية عند الاقتضاء ويستظهرون في حروبهم بأمراء البربر الى أن ظهر لأمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه أن يأمر بغزو افريقيا فأذن لسيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه عامله على مصر أن يجهز جيشا ويوجهه لغزو افريقيا برا على طريق طرابلس فعقد لواء جيش كثيف من وجوه الصحابة والتابعين رضي الله عن جميعهم منهم سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب وسيدنا عبد الله بن العباس وسيدنا عبد الله ابن الزبير وسيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص وبقية العبادلة السبعة وغيرهم من أولئك الأخيار وجعل قيادة هذا الجيش لسيدنا عبد الله بن سعد بن ابي سرح أخ سيدنا عثمان بن عفان من الرضاعة وذلك سنة 27 هجرية وسنة 647 مسيحية فاجتاز طرابلس وبلاد الأعراض والجريد قاصدا عاصمة البلاد وبعث السرايا في الجهات يناوشون الى ان أناخ على سبيطلة دار ملك افريقيا فتهيأ صاحبها للدفاع وتجهزت جنوده والتفت عليه اخلاط البربر فجمع لديه من الجنود مائة وعشرين ألف مقاتل والتحم القتال بينهم وبين العرب وانتهت بهزيمة الروم والبربر وقتل أميرهم جرجير وسبي عبد الله بن الزبير لابنته لعهد المسلمين له بذلك عند قتله لأبيها وخلص هو بخبر الفتح لسيدنا عثمان رضي الله عنه فوصل المدينة في خمسة وعشرين يوما مارا على عمرو بن العاص بمصر فانفذه من حينه للمدينة المنورة ثم بعد قتل جرجير وهزيمتهم هذه الهزيمة الشنعاء رغب الروم في الصلح فصالحهم عبد الله على ثلاثمائة قنطار من الذهب الوهاج دون المغانم التي غنمت قبل الصلح فقبض المال ورجع على طريقه لمصر بعد أن أقام بافريقيا سنة وشهرين وكانت بلاد افريقيا جنة تجري من تحتها الأنهار عامرة بالقصور مزخرفة بالأشجار من بلد طرابلس الى نهاية طانجة الى أن وقع تخريبها على يد الكاهنة دهيا كما يأتي قريبا وما رجع عبد الله من غزوته هذه حتى وجد أمير المؤمنين سيدنا عثمان توفي واشتغل المسلمون بحرب الجمل وحرب صفين للأسباب الناشئة عن قتل سيدنا عثمان المشروحة في محلها وفي

سنة 45 هجرية وسنة 665 مسيحية بعث سيدنا معاوية جيشا تحت لواء معاوية بن حديج مشتملا على عشرة آلاف مقاتل فقدم افريقيا وبعث صاحب قسطنطينية جيشا في البحر لدفاعهم واجتمع الفريقان قرب قصر الجم فوقعت الهزيمة على الروم وافتتح في هذه الغزوة مدينة سوسة ومدينة جلولي وبنزرت وبنى بعض الآبار ومحلات تأوي اليها جيوشه ثم رجع الى مصر فأمر أمير المؤمنين سيدنا معاوية واليا عليها وذلك سنة 51 هجرية وسنة 671 مسيحية ووجه الأمير عقبة ابن نافع فقام مقام ابن حديج واختط بلاد القيروان في هذه السنة وجعل دائرة صورها اثنا عشر ميلا وجعلها رباطا لجيش المسلمين وذخائرهم الحربية وشرع في قتال البربر والروم ففتح ما أمكنه فتحه من المدن وشرد البربر الى ضواحي البلاد القاصية الى أن ظهر لمعاوية أن يقلد ولاية مصر الى الأمير مسلمة بن مخلد الأنصاري وحيث أن افريقيا من جملة أعمالها بعث مولاه أبا المهاجر دينارا واليا عليها فارتحل عقبة الى المدينة وحل أبو المهاجر محله فكره النزول بالقيروان التي اختطها عقبة لحقد بينهما وأحدث مدينة أخرى وأمر بعمارتها فاثر ذلك في نفس عقبة حيث نشأ عن ذلك خراب مدينة القيروان بإقبال الناس على مدينة أبي المهاجر وشرع أبو المهاجر في غزو ما حوله من المدن فافتتح جزيرة شريك وبلغه أن عسيلة البرنصي الذي كان أسلم ارتد وجنّد جنودا من البربر وعزم على قتاله فعمد له أبو المهاجر والتحم بينهما الحرب الى أن هزم كسيلة وجنوده ولحق بهم الى نواحي تلمسان فهزمهم شر هزيمة، ولما توفي سيدنا معاوية وتولى أمر الخلافة ابنه يزيد رد عقبة بن نافع الى ولايته على افريقيا فلما وصل القيروان خرب مدينة أبي المهاجر واعتقله وعمر مدينة القيروان ومنها خرج في جند عظيم الى غزو بلاد البربر واستخلف عليها زهير بن قيس البلوي فتوغل في بلادهم وفتح بلاد الزاب وما حولها وبلاد تاهرت وضواحيها وشتت جموع البربر ومن انظم اليهم وعطف بجموعه ظافرا منصورا الى بلاد المغرب الأقصى لا يمر على بلد أو حصن أو حي من أحياء البربر إلا ويخمد شوكته الى أن وصل البحر المحيط الغربي ودوخ تلك البلاد كر راجعا وأخذ كسيلة معه أسيرا ولما وصل الزاب وكانت جموعه قد تقدمته انتهز كسيلة الفرصة وأرسل قومه في اغتيال الأمير عقبة فثاروا به وقتلوه حيث لم يبق معه من الجيش كفؤ وقتلوا معه من المسلمين نحو ثلاثمائة ودفن بالزاب وقبره يزار الى الآن به وقتل أبو المهاجر في هذه الواقعة وزحف كسيلة على بلاد افريقيا بالقتل والنهب الى أن بلغ مدينة القيروان فحاصرها ودخلها بعد أن طلب منه أهلها الأمان وخرج زهير فارا الى برقة وأقام بها الى أن توفي يزيد بن معاوية وتولى أمر الخلافة ابنه معاوية ثم توفي واجتمع أناس على مروان بن الحكم فاستحكم أمره ثم توفي سنة 65 وسنة 682 مسيحية فتولى أمر الخلافة ابنه عبد الملك ابن مروان فاشتد أمره وقوي سلطانه وبلغه خبر كسيلة وما فعله بالمسلمين بافريقيا فعزم على استطاله وبعث الى زهير بن قيس يأمره بالتوجه الى افريقيا وبعث بالمال والرجال فزحف بما له به من الجنود وطحن البربر وأميرهم بكلكله ولما قتل كسيلة بمن معه من وجوه رجاله خضع له البربر ودانت له البلاد ولم يبق من يعارضه الا من فنزح الى معتصم الجبال وتوغل في واحات الصحراء ومحرفات الرمال.

ولما رآى زهير ما عليه من سعة الملك وقوة التبذخ وكان رجلا ورعا نفرت نفسه من الدنيا وزخرفها وأعرض عن الولاية فكر راجعا الى الشرق وكان قد فتح في هذه الغزوة باجة والكاف والاربص فلما انتهى الى برقة وجد في طريقه أقواما من النصارى قد أسروا جماعة من المسلمين فعزم على قتالهم واستنقاذهم منهم وكان في فئة قليلة من المسلمين فمحصهم الله وقتل من بينهم زهير رحمه الله فلما بلغ ذلك عبد الملك بن مروان عظم عنده قتل زهير وكان مصيبة على المسلمين أعظم من مصيبة عقبة رحمهما الله تعالى، فلما ارتآى عبد الملك بن مروان في أمر افريقيا رأى ان لا أحد يقوم بأمرها مثل حسان بن النعمان الغساني وكان مرابطا بمصر فبعث اليه يأمره بالتوجه الى افريقيا وأطلق يده في أموال مصر يأخذ منها ما شاء وذلك سنة 76 هجرية وسنة 695 مسيحية فجهز جيشا عتيدا قدره أربعون ألفا بما يلزمهم من الذخائر الحربية والاقوات لهم ولدوابهم بحيث لم يدخل افريقيا جيش المسلمين مثله ولما وصل القيروان سأل عن أعظم ملك بها فقالوا له صاحب قرطاجنة وهي المدينة العظمى وكان بها من جموع الروم أمم لا تحصى وقد شحنوها بالعدة والعدد فاقتحمها الأمير حسان وافتتحها عنوة وقتل منها عددا كثيرا ونجى من نجى منها هاربا لصقلية في البحر وكانت قرطاجنة من أعظم مدن العالم ثم ان حسانا بلغه أن النصارى تجمعوا له والتف عليهم البربر فسار اليهم بجموعه وشردهم واقتفى أثرهم الى أن وصل لبرقة، ثم رجع للقيروان فاستراح بها وسأل هل بقي أحد من عظماء ملوك افريقيا فقيل له ان امرأة تدعى دهيا وهي المعروفة عندهم بالكاهنة ناشرة علم السيطرة على جميع أمراء البربر يهابها الروم والبربر وهي معتصمة بجبل يقال له جبل أوراس في جموع عدة كعدة الحصى فتقدم لقتالها وجمعت جموعا لا تحصى بين روم وبربر فالتقى الجمعان والتحم القتال فانهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وأسرت منهم ثمانين رجلا وفر حسان في عدد من المسلمين حتى جاوز عمل قابس واستقر ببرقة بمحل يسمى الى الآن بقصور حسان واعلم عبد الملك بما محص الله به المسلمين فأمره بالمقام حيث أدركه كتابه الى أن يأتيه أمره فما يعتمده فأقام هناك خمس سنين الى أن جاء كتاب من عبد الملك وأمده بالمال والرجال فلما سمعت الكاهنة بعزمه على اعادة الكرة عليها جمعت رجال دولتها وتبادلت معهم المشورة فيما تسلكه مع العرب فاستقر رأيها على تخريب بلدان افريقيا وقطع أشجارها وتغوير مياهها حيث أن العرب انما يقصدون من نتائج أعمالهم ما ينتهبونه من المغانم وهو انما سهل عليهم بالمدن والقصور التي يتعذر عليها الرحيل بما احتوت عليه من الذخائر النفيسة والأموال الطائلة فيدركونها ويعيثون فيها وينتهبون ما وصلت اليه أيديهم مغنما باردا أما الذين يظعنون على ظهور ابلهم الى رؤوس الجبال ويتوغلون في دواخل البراري والقفار فلا يقدرون على الوصول اليهم ولا حاجة لهم بهم وشرعت في قطع الأشجار وتخريب الديار وتغوير الأنهار فصيرت تلك المدن القاهرة والجنات الزاهرة والقصور الفاخرة والحصون الشاهقة والأسواق النافقة اثرا بعد عين بعد

أن كانت يسير في ظلها الراكب وتحت أشجارها لا يحمل الزاد من برقة الى طانجة فبينما هي على تلك الحالة وسكان افريقيا يتقلبون على جمر الغضاء ويتذمرون من سوء صنعها ولا يقدر أحد على معارضتها واذا بالأمير حسان بن النعمان عقد لـه أمير المؤمنين عبد الملك جيشا جرارا وزحف به على افريقيا وكانت الكاهنة قد أطلقت أساوس المسلمين ولم تترك عندها إلا واحدا اسمه خالد فآخت بينه وبين ولديها وقالت لهم اني مقتولة وكأنها ترى الى رأسها يركض به الى ناحية الشرق وأوصت خالد بأن يمضي بولديها الى حسان ويستأمنه بعد موتها ثم تقدم حسان الى ناحية قابس وانخرط في جيشه عدد كثير من روم وبربر وتلقاه من النصارى أمم لا تحصى يستغيثون من صنيع الكاهنة وسلك طريق قفصة ولما كان أهل الجريد بما حصل لهم من الثروة والراحة بورود القوافل عليهم من جميع الجهات يحملون لهم ما يحتاجونه من الضروريات والحاجيات يستبدلون ما عندهم من النتائج بسبب ما خصص الله به هذا القطر من النخيل والثمار وجميع الفواكه التي هي روح حياة عمران بلادهم بادروا لتلقي الأمير حسان وأهدوا له من نتائج بلادهم ما أقروا به عينه واشتكوا له مما يتوقعونه من فساد الكاهنة ودخلوا في دين الله طوعا لما رأوه وعلموه من حسن عدل المسلمين ورفقهم بمن دخل تحت طاعتهم والمساواة في المعاملة فوعدهم بحمايتهم والانتقام منها وقصد التوغل في تلك الديار بذلك الجيش الجرار فاقتحم الجبال الصعبة وقصد الكاهنة في بلادها والتحم القتال بين الفريقين فهزمها وقتل من جنودها عددا كثيرا وقتلت الكاهنة عند بير بجبل أوراس يقال لها بير الكاهنة وتسمى الآن بير العاتر بقطع رأسها وبعث به الى عبد الملك بن مروان وشتت تلك الجموع ووفد عليه خالد وأبناء الكاهنة وأسلما على يديه في اثني عشر ألف رجل فأحسن قبولهما وقلد كل واحد منهم رئاسة ستة آلاف رجل الذين أسلموا معهما ونظمهما في جيشه ثم بلغه ان اخلاط البربر وبعض النصارى تجمعوا بقرطاجنة وقتلوا بعض من أسلم ولازال الروم يشنون الغارة بمراكبهم على قرطاجنة فزحف عليها وحاصرها وكسر القنوات الموصلة لها الماء ثم اقتحمها عنوة وفتحها وقتل منها عددا كثيرا ثم أخذ في عمارة تونس وخرق لها البحر من ناحية حلق الوادي وبني دار الصناعة لانشاء السفن الحربية وجلب ألف قبطي وألف قبطية يشتغلون بها لما أدركه بثاقب فكره من حاجة هذا المعقل الى أسطول بحري فأنشأ السفن ودون الدواوين وبعث الجيوش وعقد السرايا لبلاد المغرب يجاهدون في سبيل الله وضرب الخراج على الروم والبربر ودانت له البلاد وخضعت له العباد ولم يبق في افريقيا من يعارضه الى أن عزل وولي موسى بن نصير فاتح بلاد الأندلس على يد مولاه طارق بن زياد وحيث ان فتح الأندلس وتداول الولايات عليه من قبل عمال افريقيا تكلفت المؤرخون به وتناقلوه بكثرة حتى صارت أخباره في حكم الضروري، فنقلنا اليه في هذه العجالة يصير ضربا من تحصيل الحاصل اما بلاد الجريد فإن تاريخه وأخباره مفصلة كادت أن لا تعلم لأن المؤرخين يذكرونها مقتضبة بحسب الصدفة على سبيل الاستطراد وانما يتعرضون لذكر العواصم التي تأثلت بها الدول وتداولها الملك مثل القيروان والمهدية وتونس وبجاية وتلمسان وفاس ومراكش ولما لبلدان الجريد من الأهمية بالنظر الى أسباب الارتزاق الطبيعية مما تجود به من النتائج والخيرات التي لا تحوج الى كبير كلفة وكانت هي أول بلاد الصحراء التي اكتسبت أهلها شهامة وقوة جأش ولما جلبوا عليه من عدم تحمل الضيم وثقل وطأة المغارم لركونهم الى ظهور إبلهم وتمكنهم من التوغل في البلاد القاصية والمفازات البعيدة المحرقة وآخر المستعمرات الرومانية التي انتشرت بها بذور التمدن الروماني فانتحلوا منه الطرق الاستعمارية من تهذيب الأخلاق الانسانية والتجافي عن التوحش البربري ووسائل الاسترزاق الطبيعية واقتباس العلوم بكيفية نسبية كانت من الاعتبار بمكان ولذا استغلت بها عدة أمراء في الأزمان الغابرة حتى بعد الفتح الاسلامي وكان الموجب لتحرير هذه العجالة حسبما سبق التكلم على تفصيل أحوال الجريد على سبيل الاختصار وجب ان تفرده بالكلام وما تقدم من الالمام بتاريخ الدول الغابرة انما هو توطئة لذلك ونثني عنان القلم للتعرض الى ما عرضت الى بلاد الجريد من الأطوار وما تقلب فيه من حوادث الليل والنهار.

الباب الثالث

في أحوال بلاد الجريد وما تداولت عليه من الأطوار

قد سبق الكلام في طالعه هذه العجالة على وضعه الجغرافي وأولية امره ونشأته وحسن موقعه ومحاسنه ونتكلم الآن عليه بالنظر لفضله بسبب ما طلعت في سمائه من علماء الملة واشرقت في أفقه من الشموس والآهلة من لدن الفتح الاسلامي الى هذا العهد.

اعلم أن هذا القطر بلغ من الحضارة وسعة العمران واستحكام التمدن الى غاية قصوى فقد ذكر ولي الدين ابن خلدون عند ذكره لمدن المغرب الشمالية وبلاد الجريد قبلة تونس وهي نفطة وتوزر وتقيوس وقفصة وبلاد نفزاوة وتسمى كلها قسطيلة مستبحرة العمران مستحكمة الحضارة مشتملة على النخيل والأنهار، واعلم ان قطر الجريد مشتمل على عدة مدن وهي بلاد الوديان وتوزر ونفطة والحامة وبلدان نفزاوة وقفصة وكل بلد مما ذكر نعقد له فصلا يخصه نتكلم فيه على ما يتعلق بها وبساكنيها.

ولنبتدي ببلد الوديان، تيمنا بذكر أصحاب الكهف الذين ذكرهم الله في كتابه الذين يسمونهم الآن بالسبعة الرقود ولكونها عاصمة بلاد الجريد في أول أطواره ولذلك اهتم بها الرومانيون كما يدل عليه وجود الهياكل وبقايا القصور التي تدل على قوة الاعتناء بهذه البلاد، تسمى

الآن بالوديان مشتملة على عدة بلدان وقرى أشهرها بلاد كريز ودقاش لكونها محل سكنى الولات اما بلاد كريز فهي البلد العتيق وتشمل بلد الزرغان وأولاد ماجد التي هي فرع من الزرقان وانما تفرقوا بسبب الشحناء الناشئة غالبا بين الأجوار وبلاد كريز هي التي بها قصر الامارة وتمتد عمارة هذه البلاد الى بلد سداده واسمها القديم البربري تقيوس باسم أميرها البربري وكان هذا الأمير الذي تسمت به البلاد بلغ من الشهرة وضخامة الملك ما خلد له ذكرا في بطون التواريخ وعلى عهد هذا الأمير كانت الدولة القرطاجنية هي التي ناشرة علم السيطرة على البلاد الافريقية وقد سبق ان الدولة الرومانية أعلنت الحرب على الدولة القرطاجنية في سنة 264 قبل الميلاد واشتغلت الثانية بمعاناة هذه الحروب وكان الظفر لدولة الرومان الى ان استولت على الدولة القرطاجنية نهائيا سنة 146 قبل الميلاد وفي هذه المدة أعني من ابتداء هجوم الرومان الى نهاية استيلائهم وقع لدولة قرطاجنة وهن وتقلص ظلها على أطراف ولايتها فانبعثت روح الحياة القومية في نفس هذا الأمير البربري وتاقت الى حب الاستقلال فارتفع صيته وقوي سلطانه وامتدت شوكة سلطنته الى نواحي طرابلس وانتشرت غزواته الى حيث انتهى به أمله فطغى وتجبر حتى ادعى الربوبية في قومه وكانوا وثنيين فانقادوا لمزاعمه وخضعوا له وعبدوه من دون الله وكان له سبعة وزراء ورئيسهم يسمى يمليخا وكان ذا مكانة عنده وكان في بعض الأيام واقفا عند رأسه واذا بمخبر اخبر بأن بعض أطراف المملكة طرقها ملك من أعظم الملوك وعثى فيها بجنود عديدة ويوشك أن ينسحب عما تحت قدمي الملك فارتاع الملك تقيوس لذلك واضطرب حتى سقط التاج عن رأسه فلما رآه أكبر وزرائه وقع في نفسه أن الملك حادث لا محالة وانه مربوب لفاعل مختار جارية عليه تصاريفه القدرة وإلا لما احتاج لمن يدبر أموره ويرتاع من غيره وانبعث في نفسعه أن هناك ربّا خالقا له حاكما على كل شيء واجب الوجود قديما باق قاهرا لكل شيء وهو على كل شيء قدير فاختلى في محل بنفسه وبينما هو يفتكر في هذا الأمر واذا ببعض خواص الملك دخل عليه فوجده على غير الحالة المألوفة ولما سأله عن سبب تغير حاله كتم عليه وبعد إلحاح أجابه عما اختلج في فكره فأجابه بأنه وقع له مثله ثم دخل عنهم ثالث ورابع الى أن اجتمعوا سبعة وزراء فتناجوا مع بعضهم في هذا الأمر وتفاوضوا مع بعضهم في كيفية التخلص من هذا الجبار فاستقر رأيهم على الهجرة بأنفسهم وتبعهم كلب احدهم يسمونه قطفيرا، فوجدوا كهفا في جبل خارج البلد اختفوا فيه ريثما تسنح لهم الفرصة وينتقلون الى بلد بعيد عن بلد الملك، فلما استقر بهم القرار وفي ذلك الكهف ألقى الله عليهم النوم وبقي الكلب حارسا لهم حتى ألقى الله عليه النوم أيضا وفي خلال بقاء هؤلاء الوزراء في الكهف وهي مدة تزيد عن ثلاثمائة سنة بعث الله سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام وانتشر دين النصرانية في أقطار الأرض واستولى الرومان على أغلب المعمور كما تقدم وانتشر عمرانه وعوي سلطانه فاعتنق قسم كبير من البربر دين المسيح ولما انتهى العمران الى بلد الجريد وبسطت دولة الرومان يد سلطتها عليه دحضت ما كان لأمراء البربر من السيطرة وأقامت من طرفها أميرا مكان الأمير السابق فدبر البلاد وساس العباد الى أن قدر الله بازالة ما غشي أولئك الأخيار من النوم فلما أفاقوا وقد ألقى الله عليهم من الجوع ما حملهم على ارسال أحدهم ببعض ما لديهم من المسكوكات الفضة التي استصحبوها حين دخلوا الكهف ليشتري لهم طعاما يقتاتونه وأكدوا عليه أن يتحفظ بغاية جهده من أن يشعر به أحد لكي لا يوشي به الى الملك تقيوس فلما دخل المدينة التبس عليه أمرها بتكرار الدهور والسنين وأنكر ما عليه من المسكن والساكنين وصار يتأمل مندهش البال حائرا فيما عرض له من تغيير الأحوال ولما ناول لبائع الطعام ما عنده من المسكوك ليستبدل به طعاما أنكره وزعم انه عثر على كنز من كنوز الأقدمين فحصل بينهم شيئان الى ان آل الأمر الى الوقوف بين يدي الأمير فلما استنطقه على سبب وجود هذه الدراهم العتيقة لديه حكى لهم ما وقع له مع رفقائه ووجد الأمير وأهل المدينة متدينين بدين النصرانية يعبدون الله الذي لا إله إلا هو وقد تناقل أهل المدينة خبرهم خلف عن سلف وبقي أمرهم مجهولا لا يعلم ما استقر عليه حالهم الى أن عثروا على هذا الرجل وقرر لهم ما وقع وفي ضمن حكايته أنه ترك بعض أولاده صغارا وعين محل سكناهم فلما بحثوا وجدوا من عقبه شيخا انهكه الهرم فأحضروه له وتبين انه من عقبة ببراهين قاطعة فلما تحققوا صدقه أجمع رأيهم على أن يزوروا أصحابه واحتفل الأمير وحاشيته لزيارتهم واخراجهم من كهفهم فلما وصل صاحبهم وأخبرهم بأن الملك تقيوس مات وانقطع خبره وتولى بعده عدة أمراء وانتهى الأمر الى قوم يعبدون الله وقد بعث الله سيدنا عيسى عليه السلاة والسلام وهذا الأمير مع رجال دولته في انتظاركم وقد مر علينا من السنين أزيد من ثلاثمائة سنة، فلما سمعوا مقالته بسطوا أيديهم وسألوا الله ان يقبضهم اليه قبض الله أرواحهم ولما لم يرجع للأمير من أرسله اليهم دخلوا عليهم في كهفهم ووجدوهم أمواتا فتركوهم على حالهم واتخذ الأمير عليهم مسجدا تذكارا لهم ورجع الى مدينته واستمرت تلك المدينة عامرة بأهلها من بربر ورومان الفاتحين لها وقد أنشؤوا القصور وشيدوا الاستحكامات الحربية فمنه المسمى بكبة الذي ينقل عنه أنه بنا له الحاكم الروماني معقلا حصينا وأعده لذخائره الحربية قرب قصر الحكومة الذي هو معد لسكنى الملوك ورجال الدولة ويدل على فخامة بنائه واعتباره بقية اثاره التي مضى عليها من السنين آلاف وهو كأنه بني قريب عهد ومنها تنبعث الجيوش العديدة والقوة العتيدة الى أطراف البلاد.

ويقال أن صاحب كبة عندما انحرف صاحب سبيطلة على والي قرطاجنة العام من الفينيقيين وحاول الاستقلال وعجز عن اركاسه والتف عليه البربر زحف عليه صاحب كبّة بجيش جرار وقهره ومازال يردد عليه الغزوات المرة بعد المرّة الى أن اضطره الى بناء بلد قفصة بصفة حسن بين جبلين وأودع فيها من الجيوش ما يكون حاجزا بينه وبين كبّة كي لا يفاجئه بالهجوم.

ومن بناءات الرومان القصر المسمى بنو اصوار الذي هو الآن اسم سانية نخيل وبقيت هذه البلاد مأهولة بعناصر شتى منها البربر الذين

هم أهالي البلاد القديمة ومنها الفينيقيون ومنها الرومان ومنها الواندال الذين تسلطوا على الرومان عندما أدركه الانحطاط والهرم حسبما سبق عند ذكر تسلطهم وتاريخ ولاية ملوكهم وأسمائهم ثم الروم الذين تسلطوا على الواندال الى أن افتتحها العرب على يد الأمير سيدنا عبد الله بن سعد بن ابي سرح أحد عمال سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنهم وذلك سنة 27 هجرية وسنة 647 مسيحية حسبما سبقت الاشارة اليه وتواردت على افريقيا الغزوات من لدن خلفاء الاسلام الى أن وقعت غزوة حسان بن النعمان الغساني الأولى وهزيمة الأميرة البربرية وأسرها من جيشه عددا وافرا وأعقب ذلك تخريبها لمدن افريقيا وتغوير مياهها وقص أشجارها الى ان أتى التخريب على مدينتي كريز وذقاش اللتين هما قرب مدينة تبسة ولازالت بقية آثارها الى الآن وينزلون بها بقية قبائل بربرية بخيامهم فينزل بالأولى قبيلة أولاد محمد من اولاد خليفة وبالثانية أولاد مراح منهم وعندما خربت تينك المدينتين انتقل بعض سكانها وتفرقوا شذرا مذرا فتطلبين محلا يأوون اليه ويأمنون من ظلم الكاهنة وفسادها وقد بلغهم أن أهالي الجريد لم تطرق بلادهم لأنهم استأمنوا الأمير حسان ودخلوا تحت كنفه واعتنق أغلبهم دين الاسلام طوعا فهرع أهل تينك البلدتين الى بلدان الجريد.

فأما أهل دقاش فإنهم نزلوا بمحل يبعد على بلد كبّة نحو ثلاثة اميال وعمروا ذلك المكان عمرانا وقتيا ريثما يتسنى لهم الرجوع الى وطنهم عندما تسنح لهم الفرصة وتطمين نفوسهم مما يخشونه من العدوان وبعد مدة من الزمان لما تحققوا موت الكاهنة رجعوا الى أوطانهم حيث دخل بقية القبائل البربرية في دين الاسلام واتخذوا خياما من الشعر والوبر يأوون اليها مثل القبائل البدوية ولم تعمر بلاد دقاش بعد ذلك الا في أواسط القرن العاشر الهجري لما وفد عليها بعض الأفاضل من العرب المهاذبة وسكنها وهو العارف بالله سيدي عبد الله أبو رويس كان من العلماء الاعلام ينتسب الى مولاي عبد السلام بن مشيش فهو من الاشراف عكف على العبادة والزهد في الدنيا وأحدثت زاويته بدقاش وبها مدرسة وبيوتا يأوي اليها المتعلمون ويقوم بمؤونتهم مما أوقفه عليها ونما عدد ذريته ثم وفد بعد ذلك بعض أولاد خيار من ناحية التل ونما نسلهم وكثر عمرانهم حتى صاروا هم العنصر الأكثر بدقاش.

وأما أهل كريز فإنه بما بقي لديهم من الذخائر والثروة فامتزجوا في أهالي البلد وتبادلوا معهم أنواع المتاجر والمساكنة والمصاهرة حتى صاروا كأنهم مجانسون لهم في النحلة وكذلك بلد الزرقان وأولاد ماجد فإنهم من أهالي البلاد الأصلية مثل بلاد سدادة وقد وفد على هذه البلد الشيخ البركة الأستاذ سيدي أبو هلال من ناحية القيروان في القرن السابع هجري وتشرفت به رضي الله عنه.

وأما زاوية العرب فإنهم وفدوا على بلاد الجريد في القرن الثاني عشر هجري من ناحية الكاف وفد جدهم الشيخ البركة سيدي أبوناب رضي الله عنه وهم ينتسبون الى عرب أولاد يعقوب واستندوا الى بلد الزرقان وكان اول امرهم انهم وصلوا امرهم بالقطب الأكبر الشيخ سيدي ابرهيم خريف وأخذوا طريقته وأخذ في ارشادهم لمصالحهم الدينية والدنياوية ووقع لهم به ارتباط كبير حتى أنهم لا يبتون أمرا من أمورهم إلا بواسطة الشيخ أو أبنائه من بعده وحصل لهم بذلك اعتبار عظيم وشاهدوا بركة ذلك ماديا ومعنويا رضي الله عن الجميع.

ولنرجع الى الكلام على بلد كريز فإنها بقيت مأهولة بأهلها الأصليين والواردين عليهم المندمجين فيهم في القرون الأولى من الهجرة الى أن اندلع لهيب الفتنة اليزيدية من بلاد الوديان وعم سائر البلاد الافريقية ودمر المدن والقرى وخرب الحصون وسفك الدماء حسبما هو مقرر في أخبار الفاطميين أمراء افريقية وعند ظفر الفاطميين بأبي يزيد زعيم هذه الفتنة وقتله وحشوهم جلده تبنا كما يأتي قريبا أراد تخريب بلاده فجيّش الشيعة جنودهم وعمدوا الى بلاد الوديان وخربوها وبقيت بقية من الاثار فلما وفد العرب في أيام المعز بن باديس في أواسط القرن الخامس هجري عمروا من هاته البلاد عدة قرى مع بقية من أهلها الأصليين وامتد العمران بها من أواسط القرن الخامس هجري وهي تابعة لولاة توزر التابعين لأمراء المهدية من صنهاجة وسلاطين تونس من الموحدين وان كان وقع بعض استقلال لولاة توزر كما يأتي لكن غير معتمد به كما أنه حصلت بعض ثورات من أهل الوديان واعتصموا بالجبال فيناجزهم ملوك تونس بالتأديب ويقتحمون عليهم ملجأهم ويضطرونهم للخضوع والنزول على حكمهم مرارا عديدة الى أن هرمت دولة بني حفص وانقطع خبرها وأقيمت على اظلالها دولة الترك فوجه السلطان سليم سنان باشا بأسطوله الضخم وعساكره الجرارة على مياه تونس لانقاذها من مخالب دولة اسبانيا وذلك في حدود الثمانين وتسعمائة هجرية فطحنها بكلاكه ورتب أمورها ونظم دواوينها وخلف بها جيشا مرؤوسا برؤساء لحراستها تحت نظر باشا وهو حيدر باشا يدير شؤونها وكر راجعا للاستانة وبعد ذلك تغلب اولئك الرؤساء على البلاد وهم المسمون بالدايات واتخذوا رئيسا منهم سموه بالباي رئيسا على المعسكر الذي يسافر لأطراف البلاد لجباية الخراج وتقرير راحة البلاد مما عسى أن يطرأ بها من التشويش وبقيت دولة الدايات شبه الجمهورية الى ان تغلب عليهم أحد البايات المسمى مراد باي بن حمودة باشا بن مراد باي وقد قلد مراد باي هذا الذي هو جد مراد المتغلب رئاسة المعسكر سنة 1022 هجرية وأصله من جزيرة كرسيكا وكان شهما حازما ثم سعى في خطة الباشا لنفسه من قبل الدولة العلية وتقلد ابنه حمود باي رئاسة المعسكر وذلك سنة 1041 هجري وتوفي في عامه هذا وقام بمنصبه ابنه المذكور فقمع الثوار وأوقع بالشيخ عبد الصمد الشابي أحد المتغلبين وانتزع من يده احياء قبائل دريد وهم من العرب الداخلين أيام المعز بن باديس وهو الذي رسم منهم طائفة عظيمة في ديوان جنده فجلب منهم عند الحاجة ما يحتاجه من الرجال والفرسان والابل للحمل وله مآثر عديدة ليس هذا محل ذكرها ثم قلد رتبة الباشا ونزل لابنه مراد المتغلب عن رتبة الباي فتقلدها وتغلب عن الدايات وأورث الملك لعقبه وهو الذي بنى ابنه محمد بن مراد دار الباي بتوزر

والمدرسة بها والجامع الذي هو المحكمة الشرعية الآن تركه على وشك التمام وفي دولته عصت بلدان الوديان فجهز لهم جيشا عرمرما فغلبهم واقتحم بلادهم وخربها وشردهم من البلاد فانتشروا في دواخل البلاد فوفد سكانها الآن على بلاد كريز وعمروها وكان جدهم ورد من بلاد المشرق من خراسان العجم واسمه سليم احد قواد سنان باشا الفاتح لهذه البلاد ومن ذريته عطية وهو جد أصولهم الثلاث تواتي وعثمان وحمد واخ تريكي وهؤلاء أصول عروشهم الأربعة المعمرين لبلاد كريز الآن وقد اندمج مع هؤلاء أناس آخرون ويسمونهم اعضاء ولازالت بلاد كريز عامرة بهم الى الآن، وأهلها أهل شهامة وبسالة وذوو نفوس أبية وقد تكاثفت عليهم سحب المظالم من قبل الولاة وقابلوها بالتجلد تارة وبالمقاومة أخرى بحيث أن ما عارض لجيرانهم من ذلك طحنهم بكلاكه وهم لا يزالون مستمرين على عمران بلادهم لولا انه يغلب عليهم الكسل شأن القرى والمداشر وذلك، والله أعلم، بسبب ضغط الولاة حيث يرون ان نتائج أعمالهم يغتالونها بدون مقابل فكسر ذلك من حدة شهامتهم وعودهم التكاسل اذ لولا ما هم عليه من الكسل الطبيعي لاتسع نطاق العمران ببلادهم بمقتضى قابلية بلادهم لذلك فهي صالحة لانتاج النخيل والزيتون والحبوب والمواشي مع وجود المياه وجودة الأرض واتساعها وزد على ذلك اقتدارهم على صنع الثياب الرفيعة.

فصل في الكلام على مدينة توزر وأولية أمرها

قد قدمنا الكلام في أول هذه العجالة ان توزر هي قاعدة بلاد قسطيلة التي تشمل توزر ونفطة والوديان والحامة وقد ذكر ولي الدين ابن خلدون أن هذه البلاد اول من قطنها قبائل البربر وكان أول أدوارهم رحل ينتجعون الفيافي ثم يأوون الى هذه الديار في بعض الأحيان الى ان هاجت السيول بعض أماكن منها وتفجرت منها عيون من الماء فجهروها ووسعوا مجاريها ونبت في حافتها النخيل غير أن هذه الحالة غير منتظمة لا من جهة نبات النخيل ولا من جهة جريان الماء بل هي عيون متفرقة تقف عندما تصادمها الرمال وبقيت هذه البلاد وما جاورها من بلدان الجريد على هذه الحالة مدة قرون عديدة الى أن استولت الدولة القرطاجنية على شمال افريقيا ونفخت فيها روح المدنية ولو أن هذه الجهات الجنوبية لم تتمكن من ارضاخها لكن قلدوهم بعض التقليد في ضروب بعض أسباب الحياة ولما هجمت دولة الرومان على هذا القطر بعد أن خرب القائد الروماني مدينة قفصة وذلك سنة 107 قبل التاريخ المسيحي خضعت له مدن قسطيلية فضمها الى املاكه الافريقية وكانت دولة الرومان لها اعتناء شديد بالزراعة فتأملت في حالة بلاد الجريد وتربتها وطقسها ومياهها فرأت ان انجح ما تنتجه الحركة الفلاحية هو النخيل والزيتون لحرارة البلاد التي تلاءم مزاج النخيل والزيتون وقلة المطر التي يتعسر معها نجاح الحبوب ويصلح بفقدها التمر فشرعت في جمع المياه المتفرقة وتوزيعها بكيفية هندسية وشرع الأهالي بما لهم من ملازمة غراسة النخيل يوسعون المجال للغراسة وأعانهم على ذلك اجتماع الماء الذي كان تفريقه عائقا لهم على الانتفاع به فنما مجموع هيئة النخل وما فضل عليه من الماء يرسلونه للزيتون لأنه يكتفي بالماء القليل ولو بعد شهر وامتد الأمر الى بلد نفطة ففعلوا فيها كذلك واستبحر عمران هذه المدينة مدة قرون عديدة في يد الرومان ثم الوندال ثم الروم ذوو السلطنة الشرقية الى سنة 647 بعد الميلاد أعني سنة 27 هجرية فهجم العرب على بلاد افريقيا وفتحوا معاقلها وحصونها ودخلت بلاد الجريد تحت حكم العرب صلحا كما سبقت الاشارة اليه فأقروهم على ما هم عليه تحت حفظ ذمامهم على ان يؤدوا ما اتفقوا عليه من الأداء السنوي ثم في خلال هاته المدة اعتنق منهم البعض الديانة الاسلامية طوعا وما وصل القرن الثاني للهجرة حتى لم يبق فيهم متدين بغير الدين الاسلامي لأن من بقي منهم على الديانة النصرانية انتقل الى بلاد سردانيا ولم يبق من البربر ولا من الروم الا من اعتنق الدين الاسلامي غير أن الذين اعتنقوا الديانة الاسلامية لما كان تلقيهم لأصول الديانة مجرد تلقف يتلقفونها من العوام لم يأخذوها على حقيقة كانت عقائدهم مدخولة الا ما قل ممن ارتحلوا الى الديار الشرقية ولقنوا أصول الديانة على حقيقتها ولذلك لما تكونت دولة العبيديين وكانوا على مذهب الشيعة قام زعيم يقال له أبو يزيد الخارجي مخلد بن كيراد من بني يفرق احد بطون البربر وذلك سنة 323 هجرية وانتدب أحزابا من قبائل البربر منتصرين لمذهبهم ضد مذهب الشيعة والتحمت الحرب بينه وبين القائم العبيدي الى أن هزمه العبيدي وقتله سنة 334 هجرية وبموت هذا الزعيم تقلص ظل مذهبه وانتشر مذهب الشيعة.

فصل في مبدا اشراق المعارف في هذا القطر

كان العلماء الذين يرتحلون للخارج ويرجعون متضلعين بالعلوم لا يزالون مجاهدين في بث العقائد الحقة وينتزعون فيما طرأ عليهما من الأدران الى ان زالت تلك العقائد الباطلة بالمرة وأعان على محو آثار الشعائر المضلة المعز بن باديس الصنهاجي امير افريقية وألزم الناس بالتزام مذهبا الامام مالك بن أنس وذلك في أثناء سنة 441 هجرية وفي هذه الأثناء وفدت قبائل العرب من النواحي الشرقية وهم بنو هلال بن عامر وبطونها وبنو سليم وبطونها وهجموا على صنهاجة وقبائل زناتة من البربر كالسيل المفعم وعاثوا في البلاد بالسلب والنهب والقتل حتى استولوا على غالب البلاد الافريقية واستوطنوها وفي خلال هذه المدة استوطنت بعض البيوتات بلاد توزر ونما عديدهم وكان أغلب هؤلاء

العـرب شيعية على مـذهـب ملوكهم إلا أنهم عـوام ساكني البراري والقفـار وبمخالطتهم لبعض العلماء ومسـاكنتهم في المدن أخذت عقـائد الشيعية تمحى من هذه البلاد الى أن زالت وان بقيت فيهم اثار عوائد الخوارج كاحتفـالتهم بعاشوراء الذي فيها مأتم سيدنا الحسين رضي الله عنه وهم لا يشعـرون بذلك وكلهجهم بذكر سيدنا علي على مذهب الشيعية كـذلك وفي هذه الاثناء ارتحل منهم عدد ليس بـالقليل وأخذوا العلوم الفقهية والعقائد الدينية على أئمة اعلام كـالامام أبي عبد الله المازري وأبي الحسن اللخمي وعبد الحميد الصائغ وغيرهم من علماء الملة ومن هنا نشروا العلوم في هذه الأصقاع وتهذبت أخلاقهم وصارت البلاد زاهية زاهرة بالعلوم والاداب وظهرت فيها علماء ألفوا في كثير من الفنون منها من هم من بلد تـوزر ومنها من هم من نفطة سيأتي ذكرهم عند الكـلام عليها وفي سنة 425 هجرية ورد الامـام أبو محمد بن ابي زكريا من بلد القيروان عائدا لتوزر ممتلئا وطابه بالعلوم فنشر درها ورتعت الناس في رياضه وكرعت من حياضه وقد أخذ العلم على الامامين أبي الحسن اللخمي وعبد الحميد الصائغ وعبد الخالق السيوري وابي حفص العطاري وابي عمران الفاسي وأبي بكر بن عبد الرحمان وعبد الحق الصقلي وقد علق تعليقا على المدونـة سنة 429 هجريـة ومن الأئمة الاعلام أبـو زكريا والـد أبي محمد المذكور كانت لـه رحلة للمشرق فلقي أعلاما وأئمة أخذ عنهم العلوم الدينية والفنون الأدبية وذلك في خلال 402 هجرية ثم رجع للقيروان ومن شيوخه أبو محمد عبد الله ابن أبي زيد وأبو الحسن القابسي وقـد ذكر في تعليق له أن جملة من أخذ عنه اثنـان وسبعون إماما من المشرق والمغرب وله مـرثية في شيخه ابن ابي زيد ومطلعها .

خَـطـبٌ ألَـم فعمَّ السهْـلَ والجَـبَـلا	أم الحـمَــامُ بعَبْـد اللّــه قـدْ نَـزَلاَ
نَـاعٍ نَـعَـى بنَ أبـي زَيْـد فقلْتُ لـه	أشَمْسُنَـا كسَّـفَتْ أم بـدرُنَـا أفَـلا

وهي طويلة ونسبه يرجع الى قَريش من صميمَ العرب ومن علماء الأمة أبو الفضل النحوي صاحب التآليف العديدة والارشادات المفيدة ارتحل الى المشرق واجتمع بأئمة أعـلام فأفاد واستفاد وارتحل الى الأنـدلس واجتمع بالقـاضي أبي بكر بن العربي ووقعت لـه معه محاورات في حلقة درسه وفي آخـر المجلس أشهد الحاضرين بأن الشيخ أبا الفضل شيخه ومن أفراد العلماء الامام محمـد بن علي بن الحصري المعروف بابن الشباط وله عدة تآليف منها الغرة اللائحة ومنها الشبيبـة ومنها تحف المسائل ومنها أنيس الفريد ومنها شرحه الجليل على قصيدة الشقراطسي في السيرة النبوية في أربعة أجزاء صحاح أجاد فيه وأفـاد توفي سنة 681 ومنهم عبـد الملك ابن كردبوس ومنهم التـواتي شرح المدونة وكتاب سبويه ومنهم العلامة أبو يزيد التوزري ولي قضاء الجماعة بتونس في خلافة المستنصر سنة 647 .

ومن العلماء الأعلام الإمام القسطلاني ومن علمائها أبو سعيد بن يحيى بن خراش أخذ على الامام محمد بن العربي التميمي ومنهم أبو بكر بن ابن منصور الحامي تلميـذ بن أبي زيد ومنهم الإمـام عتيق بن محمد الـواعظ ومنهم الفقيه أبو علي الحسن بن يحيـى ومنهم الخطيب الواعظ محمد بن يحيى وأبو عمر وعثمان بن الطوبي ومحمد بن عبد العزيز بن حماد ومنهم محمد بن يخلف بن الامام والفقيه المحدث أبو علي عمر بن ابي الحسن والفقيه المحافظ أبو محمـد عبد الحق القاضي أبو عبد الله المغربي وأغلبهم من ابنـاء القرن الخامس رحمهم الله ونور أضرحتهم ولهؤلاء الأفاضل تآليف انتهبتهم أيدي الجهل والعدوان ويمكن نفاء البعض وبعثر عفا الله عن الجميع .

فصل في تبحر عمرانها

وبما تأثل فيها من العمران الـذي بذرت أصوله أمـة الرومان والتمدن الشرقي الذي حملـه اليها المترحلون من أهلها والـوافدين عليها من المشرق صارت من الأمصار المتمصرة والمدن المعتبرة فاتسعت عمارتها وامتدت بساتينها يسير الراكب تحت ظل جدرانهاوبساتينها نحو العشرة اميال وبقـربها عدة قـرى من جهاتها الأربع لا تبعد القرية على الأخرى أكثـر من ثلاثـة أميال وهذه القرى كلها مشغولـة بغراسـة الأشجار ولاسيما الزيتون ، يدل على ذلك كثرة ما يوجد تحت أطباق الأرض من اثار معاصر الزيت والقنوات والأقواس بين توزر ونفطة وبينهما وبين الـوديان والحمـة ، وامتـدت عمارتها وازداد رونقها ونفقت أسـواقهـا ونمت صادراتها وارداتها فترد لها القـوافل من دواخل السـودان ومن المغرب الاقصا ودواخل افريقيا فتمـلأ خوابئها من نتـائجها ونتائج مـا هو مخيم حولها من البـوادي الذين يضعنون بأنعـامهم وينتجعون بها المراعي ثم يـرجعون ويأوون حـولها في فصلي الخريف والشتاء وفي بلد تـوزر نهر عظيم ينقسم على ثـلاثة أنهار كبار وينقسم كـل نهر الى ستة جداول وأحد جداولها يدخل من المدينـة الى القصبة ثم يخرج منها الى ساقية للرجال ثم الى ساقية للنسـاء ثم يدخل القصبة من موضع ثان ثم يخرج الى دور المدينة ثم يخرج ويمر تحت صور البلد الى أن يجتمع في محل القسم فيسقي بساتينها وبها جامع على شكل جامع القيروان وفخامته وبه عدة ابواب كل باب ينفذ الى سوق من أسواق البلد ونقل عن الدلاء ان مدينة توزر هي أم الأقاليم كبيرة شريفة بها جامع شريف وأسواق عامرة حولها ارباض كثيرة وهي حصينة منيعة وفيها جميع الثمار عدا قصب السكر تخرج منها قوافل التمر في أغلب الأيام أكثر من ألف حمل .

فصل في سياسة بلاد توزر

وهي في سياستها تابعة لخلفاء تونس والقيروان والمهدية سوى بعض الاحيان اختطفها ملوك مصر على عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي وذلك سنة 565 وفي بعض الأحيان دخل أهلها تحت سلطة بني حماد ملوك بجاية ولم يطل ذلك وبما دخل أهلها من البطر بما حصلوا عليه من الثروة والقوة واشتداد أزرهم بالاعراف الذين حولهم واشتغال الدولة الحفصية بتوطيد قدمها في ثغورها المغربية تارة وتمهيد أمر الثوار تارة أخرى ومدافعة المزاحمين لها من ملوك بني مرين انسلخ هذا القطر وتطاول الأعياص الى الرياسة فآل أمرهم الى اتخاذ عدة رؤساء في البلد ولتبادل المصالح الضرورية بين المتساكنين صار الأمر شورى بينهم وذلك في سنة 678 هجرية ومن ذلك التاريخ أخذ أمر الجريد في الانقلاب حيث أن بعض الرؤساء تارة يستظهر برؤساء الأعراب فيغلظ أمره ويكون له ظهور على الآخرين ثم يستظهر الآخر برؤساء الدولة فيجده مستظهرا به على بقية أقرانه واستمر الحال على هذا المنوال الى حدود سنة 715 هجرية فاستبد بالرياسة على توزر وأعمالها احمد بن يملول وعلى نفطة بنو خلف وعلى قفصة بنو العابد وعلى الحامة ابن ابي المنيع ورسخ قدم ابن يملول هذا في الرياسة وقوي أمره وارتفع صيته ثم هلك احمد بن يملول سنة 718 فخلفه ولده في هذا السبيل وكان طموحا الى الامارة منافسا في الاستقلال مزاحما لمن يرنو اليه مستظهرا بأشياعه وأحلافه على من اشرأبت نفسه لذلك فاستعل على نظرائه حتى تطارحوا في هوة الهلاك ومزقهم كل ممزق بين قتيل ومغرب فخلا له الجو واستوثق له الأمر واستقل بأمر البلد بالحل والعقد بأوفر من استبداد أبيه وبقي في الامارة مستقلا بها الى سنة 734 هجرية ثم هلك وتلقفها من يده أخوه محمد تربه في الرئاسة ومجاريه في مضمارها فاقتعد كرسي الامارة واستظهر على أمره بمصانعة أمراء البلد وكانوا ردءا له فعظم صيته ونفذ استيلاءه وامتدت أيامه وعني الملوك بخطابه وأقام على ذلك الى أن هلك سنة 744 هـ فقام بالأمر بعده ابنه عبد الله فوثب عليه عمه ابو زيد ابن احمد فقتله على قبر أبيه وثارت به العامة لحينه وكان مصرا على سفك الدماء واستباحة الحرم وغصب الأموال حتى كان ينسب الى الجنون مرة والى الكفر أخرى فاستولى الضجر على نفوس أهل البلد وراسلوا أخاه أبا بكر وكان معتقلا بتونس فأطلقه السلطان من محبسه بعدأن أخذ عليه المواثيق بالطاعة والوفاء بالجباية فصمد لها واحتشد قرى نفزاوة والمجاورين من القرى وأجلب عليها فاقتحمها وبادر الناس الى القبض على أخيه فاعتقله ثم قتله واستمر ممتطيا متن الرئاسة تحت اشراف صاحب أعمال الجريد الأمير أبي العباس احمد بن السلطان أبي بكر وضم الى اعماله بلاد نفزاوة وما حولها من القرى والمداشر وما خيم بنواحيها من الأعراب وضرب المنحرفين عليه ببعضهم حتى خضع الكل له واستخلص عليهم من الجباية ما اشتد به أزره وقوي به أمره واستمر كذلك الى ان هلك وقام بالأمر أخوه يحيى ابن احمد بن يملول فانتحل مذاهب الملك ومساربه واقتعد الأرائك وهيئوا في ايوانهم شارات الملك واتخذوا الالة في الاحتفالات حتى لقد حدثته نفسه بألقاب الخلافة وأقام هذا الأمير وعائلته أدوارا والدولة في شغلها الى سنة 777هجري.

فصل في تقلب السلطان أبي العباس احمد ابن محمد بن أبي بكر الحفصي على بلاد توزر وبقية بلدان الجريد

ان الدولة الحفصية لما آل أمرها الى السلطان أبي بكر بن زكياء، واشتغل بأمر الثوار ومدافعة المتحزبين وتوغلت جنوده في دواخل البلاد، تاقت نفوس بعض البيوتات الى الرئاسة ثم صار الأمر شورى بين رؤساء أمصاره وكان أمر هذه الشورى مهيئا من قبل دولة السلطان أبي بكر لكن انقطع هذا الاقليم انقطاعا كليا في دولة هذا السلطان وبقي كذلك الى أن استقل بالامارة رئيس كل بلد كما سبق ومن ضمن المستقلين ابن يملول بتوزر، ثم لما توفي السلطان أبو بكر وذلك سنة 747 هجرية وبايع اهل الحل والعقد ابنه أبا حفص عمرو بقي أمره مضطربا الى أن هجم على دولة الموحدين السلطان أبو الحسن المريني وانتزع منهم الملك ومحى الدولة الحفصية وقتل السلطان عمرو وبقي أمره في اضطراب الى ان تفرقت جموعه ورجع الى الغرب شريدا، ثم تراجعت الدولة الحفصية أمرها وبايع الملأ السلطان أبا العباس الفضل ابن ابي بكر وأخذ في تجديد رسوم الملك لكن لم تطل مدته لأنه ولى الأمر سنة 750 هجري وتوفي سنة 751 هـ وبويع أخوه السلطان ابو اسحاق ابن ابي بكر وكان يومئذ غلاما مناهزا فاضطربت عليه الأمور واستبد صاحبه ابن تافرجين بأمور الدولة فاغتاظ لذلك أمراء بني حفص واختطفوا من يده بعض الأطراف وكذلك أمراء المغرب اشرأبت نفوسهم الى تونس وجهز سلطانهم جيوشه برا وبحرا ولم يزل أمره في هرج ومرج الى أن فاجأه الأجل في رجب سنة 770 هـ وبويع ابنه ابو البقاء خالد وكان صبيا فلم يقم كافلوه بأمره فتضعضع أمر الدولة وتجرأ أولوا البغي والفساد فلم يستقر له راحة وحينئذ نادوا أبا العباس احمد بن محمد ابن أبي بكر ابن عمه صاحب قسنطينة لما علموا من كفاءته وعدله فوجدوه مستجمعا للوثوب فتعاقدت الوفود على نصرته وهرعت اليه من كل جهة فنزل على الحاضرة وراوجها القتال حتى دخلها وتقبض على ابن عمه أبي البقاء خالد سلطانها واعتقله ولما تمت بيعته وجه ابا البقاء الى قسنطينة فأتلفه قاصف من الريح ثم وجه عنايته وصرف عزائمه ونهض

لاسترجاع أطراف ممالكه وجمع ما تشتت من شملها فجمع عساكره من الموحدين وطبقات الجند من الموالي وقبائل زناتة ومن استألف اليه من العرب وكان للدولة على قبائل بني يفرق وهوارة ونفوسة ومغراوة مغارم وجبايات وافرة فلما تغلب الأمراء على كل مقاطعة انقطعت هذه المغارم على خزينة الدولة كما ان الدولة كانت تستظهر بهم في حروبها فانقطعوا عليها فلم عزم السلطان على جمع شمل ممالكه ورأى القبائل عدم اقتدارهم على مقاومته خضعوا لأوامره لما طلب منهم الأسرى وبعثهم للسجون واكتسح اموالهم فجمد ذلك من عتوهم وقص من جناحهم ثم رجع الى القيروان وارتحل منها يريد قفصة ثم استعد صاحب توزر للمقاومة والتفت عليه الأعراب وسرب فيهم الأموال فلم تغن شيئا وزحف السلطان الى قفصة فنازلها ولجوا في عصيانهم وقاتلوه ثم تسايلت له الرعية من أماكنهم وأسلموا له مقدمهم احمد وابنه محمد المستبد فانقادا له أهل قفصة بعد حصار شديد ثم ارتحل يجد السير الى توزر وقد طار الخبر لابن يملول بفتح قفصة وقصد السلطان اليه فركب لحينه واحتمل اهله وما خف من ذخائره ولحق بالزاب وطير الخبر اهل توزر الى السلطان فتقدم الى البلد وملكها واستولى على ذخائر ابن يملول ونزل بقصوره فوجد بها من الماعون والمتاع والسلاح وانية الذهب والفضة ما لا يعد لأعظم ملك من ملوك الأرض حسبما أشار اليه ولي الدين ابن خلدون ثم جمع ما وجده من نفيس الجواهر والحلي والثياب وعقد لابنه المنتصر على توزر وانزله قصور ابن يملول وجعل اليه امارتها واستقدم الخلف صاحب نفطة فقدم اليه وأتاه طاعته وعقد له على حجابة ابنه بتوزر وولاية بلده وانزله سنة 777 هـ وقفل الى الحاضرة ظافرا.

ثم ان يحيى بن يملول لما استولى السلطان أبو العباس على بلدان الجريد وانزاح هو الى الزاب استقر ببسكرة في جوار اميرها ريثما ينتهز الفرصة ويراجع امره فيعود الى محل امارته فلم يلبث إلا مدة يسيرة ومات ببسكرة بعد ان أجلب على توزر سنة 784 هـ في لفيف من الأعراب ولم ينجح ورجع خاسئا حسيرا فخلف ابنا صغيرا اسمه أبو يحيى فلما كان سنة 785 هـ وقع انحراف من الأعراب عن السلطان فانحدروا الى مشاتيهم والتفوا على هذا الصبي ابن يملول وزحف بهم الى الوثوب على توزر فاقتحموها في هذه السنة وفر المنتصر تحت ذمام يحيى بن طالب احد رؤساء الأعراب فأجاره وأبلغه الى مأمنه بقفصة واستولى ابن يملول على توزر واستنفد ما وجده بها من الذخائر وما معه في عطيات العرب وزادهم جباية السنة فلم يغير شيئا لأنه لما بلغ السلطان استيلاؤه على توزر شمر على ساعد الجد وجمع جنوده واستمد من يستظهر بهم من العرب وجد السير فلما وصل الى قفصة قدم أخاه الأمير ابا يحيى وابنه الأمير المنتصر على العساكر ومعهما صولة بن خالد يرأس الأعراب الذين معهم وسار على اثرهم فلما انتهى أخوه وابنه الى توزر وحاصروها وضيقوا عليها حتى وصل السلطان فزحف بالعساكر من جوانبها وقاتلوها يوما كاملا ثم باكروها بالقتال فخذل ابن يملول واشياعه وذهب ناجيا بنفسه الى حلل العرب ودخل السلطان البلد واستولى عليها وأعاد ابنه الى محل امارته وكر راجعا الى تونس سنة 78 هـ ثم عاد ابن يملول الى الاجلاب على توزر في السنة القابلة وخرج السلطان في عساكره فكر راجعا الى الزاب ونزل السلطان بقفصة فوافاه ابنه المنتصر هناك وتظلم أهل توزر من حاجبه ابي القاسم الشهرزودي فسمع شكواهم وتقبض عليه واعتقله بقفصة وحمله معه مقيدا الى تونس ثم استقال ابنه المنتصر فأقاله من الامارة واستولى على توزر الأمير زكريا من ولده الأصاغر لما كان يتوهم فيه من النجابة فصدقت فراسته فيه وقام بالأمر احسن قيام فأحسن المدافعة وقام باستيلاف الأعراب الشاردين واستمال أمراءهم حتى تم أمره وحسنت ولايته.

فصل في أولية بني يملول والتعريف بنسبهم

نسب هذا البيت في طوالع العرب من تنوخ فيما زعموا استقر سلفهم في هذا الصقع منذ اول الفتح وتاثلوا ووشجت عروقهم نسبا وصهرا حتى انتظموا في بيوتات الشورى المتقدمين في الوفادة على الملوك وتلقى العمال القادمين من دار الخلافة والنظر في مصالح الكافة في دولة بني حماد ودولة بني عبد المومن وآل بني حفص وبني واطاس وبني فرقان وكان بعض سلفهم انتظموا في بيوتات الشورى وانتدبوا للرياسة في ايام عبد الله الشيعي وهو الذي أخرج أبا يزيد الخارجي حين شعر به بأنه يريد القيام على ابي القاسم العبيدي ومنهم النازع الى أمراء المغرب الأوسط خارجا عن آل بلكين ملوك المهدية حين انقسمت دولة آل زيدي وذلك سنة 403 هـ بين بني باديس وبني حماد ثم انتقلت الرئاسة من بني يملول الى بني مروان لأول دولة الموحدين ومنهم الذي تلقى عبد المؤمن واعطاه الطاعة عن نفسه وعن أهل بلدة توزر فتقبله منه ووصله وصار الأمر للموحدين فمحوا منها اثار الاستبداد والمقت بمالكهم الافريقية يديرون شؤونها ويجبون مغارمها وترد عليها العمال من العاصمة لتوطيد الأمن واقتضاء المغارم وقد اتفق ان بعض سلف هذه العائلة وهو احمد بن محمد بن يملول سعى به بعض وجوه البلد الى شيخ الموحدين وقائد المعسكر أيام السلطان ابي حفص محمد الفزاري وذلك في حدود سنة 684 فنكبه وصادره على مال امتحنه عليه كان أول نكباته التي أورت من زناده وأوقدت من جمره وقد نشأ احمد هذا متراميا الى الرئاسة يدافع بالراح ويزاحم عنها بالمناكب من وجوه البلد واشراف الوطن فتخلص الى الحضرة يؤمل اعتقال مطيئته وثبوت مركزه من دار الخلافة فأوطنها يباكر أبواب الوزراء ويلثم أطراف الأولياء والحاشية وينزل كرائم أمواله فيما يقربه اليهم ويزدلفه لديهم ويؤثره بعنايتهم حتى استعمل بديوان البحر لجباية الاعشار من

التجار الواردين من الخارج وبما له من الاضطلاع بالأمور متقلدا سار أعمال الدولة بإمضاء الجرايات واستدرار الجباية واستمرت على ذلك حاله وتضاعفت فائدته فأثرى واحتجز الأموال واستخرج الذخائر قاطعا ألسنة السعاية بالمصانعة والاتحاف بطرف ما يجلب من بلاد الروم من البضائع حتى ابطره الغنى وبلغ رجال الدولة انه تهيأ للانحراف وذلك في حدود سنة 712 هجرية فتقبض عليه الحاجب بأمر من السلطان ابي يحيى اللحياني وصادره على مال مقدر بمئين من الالف من الدنانير ونكبه النكبة الثانية وسجنه ثم أطلق وبقي مترامیا على الأبواب لاثما اطراف الاعتاب لكن ساعده الحظ حينئذ شغلت الدولة بأمر الثغور المغربية وقامت بمدافعة بعض الأمراء المتوثبين على الدولة فبادر احمد بن يملول للوثوب على الاستبداد بأمر البلاد التوزرية كما سبق واستتب أمره الى ان مات وقام بنوه بالأمر بعده حتى وقع بهم ما وقع كما مر ولله في خلقه شؤون.

فصل في من استوطن هذه الديار وما تداولتها من الأطوار

قد سبق ان أول من استوطن هذه البلاد قبائل البربر من هوارة ومغرارة وبني يفرق وهم يظعنون بخيامهم الى حيث ينتجعون المرعى لمواشيهم ويأوون لهذه البلاد شتاء ثم اتخذوا أكواخا من الشجر وبيوتا من الطين يسكنون اليها عند الحاجة وبقوا على هذه الحالة قرونا عديدة الى ان وفدت على البلاد الافريقية أمة الفينيقيين من بلاد الشام بحرا وبما لهم من صبغة الملك والرسوخ في فنون التمدن وقد جلبوا آلات الفلاحة والبناء وتوسعوا في انشاء السفن والمدن والغراسة والحراثة وخالطوا امة البربر باستخدامهم في فنون الاستعمار وذاقوا لذة الحياة الاجتماعية واستدرار خيرات الأرض بعد ان كانوا مشتتين في البراري والقفار يتمعشون بما تدفعه لهم الطبيعة من لحوم الحيوانات وألبانها ويتقون عادية الحر والقر بأصوافها وأوبارها فكشفوا لهم صناعة النسج وفروع البناء واهتدوا الى طرق الفلاحة فأحدثوا مساكن واستوطنوها وهذا أول أدوار لأمة البربر وأول درجة في الترقي من حضيض المتوحش الى معارج الرقي وعلى عهد الفينيقيين اختطت مدينة توزر وغيرها من بلاد الجريد وذلك سنة 1100 قبل الميلاد المسيحي وانتقلوا من حالة البداوة الى حالة الحضارة وقلدوا الأمة الفينيقية ببعض التقليد ولم يمتزج الفينيقيون بأهالي هذه البلاد كل الامتزاج لبعدهم عن مراكزهم التجارية والسياسية وبقي الأهالي قرونا وأحقابا مخضرمين بين الخضوع لدولة قرطاجنة والنفور عنها الى ان هاجمت هاته دولة الرومان وذلك سنة 146 قبل الميلاد وطحنتها بكلاكلها وخربت مدينة قرطاجنة وبعض مدن أخرى واستولت على ما كان بيد القرطاجنين من البلاد وامتد نفوذها الى ما وراء ذلك حتى تناولوا هذه البلاد وعمروها وقد سبق أن القيصر أغسطوس وجه عنايته الى تعمير البلاد الافريقية واستخراج كنوزها الطبيعية فجلب آلافا من الرومانيين العارفين بالطرق الاستعمارية ومنحهم الأراضي الفسيحة فشرعوا في تخطيط المدن وتشييد المعاقل والحصون وتسابقوا في ميادين العمران بغراسة الأشجار ولاسيما الزيتون وحراثة الأرض وتفجير المياه وتقسيمها بالطرق الهندسية فاتسعت ثروتهم وتقاطرت الأمم الرومانية على البلاد الافريقية استبحر عمرانها فانتهى من جهة الجنوب الغربي الى مدينة نفطة من بلاد الجريد واشتهرت افريقية في أقطار الدنيا على عهد القياصرة الرومانيين بالخصب والثروة ونمو المحصولات الزراعية حتى صاروا يعبرون عنها بمخزن حبوب روما وبلغت من عنايتهم بها حتى وفد عليها القيصراد ريانوس بنفسه في أوائل القرن الثاني بعد المسيح وعلى عهده أقيمت عمارات مهمة لأن غاية أمانيهم ومطمح أنظارهم تفجير المياه وجمعها وتوزيعها على المزارع الكثيرة لاعتنائهم بالأشغال الزراعية وبما وجدوه من الحياة الغزيرة في البلاد الجريدية تقاطروا عليها وخالطوا أهلها وأخذوا في جمع المياه وتوزيعها بكيفية معتدلة وشرعوا في غراسة الزيتون والأشجار المثمرة من تين وعنب ومشمش واترج واجاص بأنواعه وبقول أرضية وخضروات مما لم يكن سكان البلاد يعرفون له اسما ولا رسما وامتدت غراسة الزيتون من نفطة الى بلد صفاقس شرقا ثم بلاد سبيطلة شمالا سوى ما يتخلل ذلك من بعض الفراغ يترك مرعى لحيواناتهم أو بعض ضرورياتهم وفي هذا الدور صار العنصر الغالب في عمران هذه البلاد التوزرية هو العنصر الروماني ولو أن العنصر البربري امتزج به لكنه صار تابعا للعنصر الحي في جميع حركاته فامتد عمرانها واستبحرت حضارتها وقوي شأنها الى أن فشل ريح دولة الرومان وأدركها الهرم فسطت عليها دولة الواندال واستولت على ممالكها الافريقية ومركزها مدينة قرطاجنة وصارت افريقية دولة ملكية وراثية وذلك سنة 439 بعد المسيح وانتشرت أمة الواندال في الفرس والامصار وساكنوا أهل البلاد فصارت سكانها اخلاط من البربر والرومان والواندال واستمر الواندال متسلطا على البلاد الافريقية الى أن هجمت عليهم أمة الروم سنة 533 بعد المسيح وهي القسم الشرقي من السلطنة الرومانية فسقطت دولة الواندال نهائيا واستولت دولة الروم على بلاد افريقية الشمالية ولم تتمكن من اخضاع أمة البربر المتوغلين في دواخل البلاد ولذلك لم يختلطوا بهم في هذا الدور وكذلك أمة الغوطي التي كانت مستقرة غربي أوروبا ثم تسلطت على غربي البلاد الافريقية سنة 618 بعد المسيح فلم تختلط بأهالي هذه البلاد أيضا وغاية الأمر ان البربر أهالي البلاد الأصلية لما ضعفت فيهم سلطة الأجنبي انبعثت فيهم روح الحياة القومية وصار أمر البلاد بيد أمراء من البربر ولهم نوع ارتباط بالمركز السياسي الى أن وفدت أمة العرب من بلاد المشرق على افريقية تحت لواء سيدنا عبد الله بن ابي سرح وذلك سنة 27 هجري وسنة 647 مسيحية وساق على المراكز جنودا جرارة والتحم القتال بين العرب وبين الروم والبربر في عدة مواطن انتهت بفوز الجنود العربية

واستيلائهم على الأراضي الافريقية بعد مقارعات عنيفة ومن هنا نقتصر على التاريخ الهجري لأن بمعرفته تبين ما بين التاريخين فيقع الاستغناء به وبعد أن استقر قدم العرب ورسخ ملكهم دخل أغلب البلاد في الديانة الاسلامية طوعا لما رأوه في طبيعة الديانة الاسلامية من المجاملة والرفق وانها تدعوا الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمساواة في الحقوق الشخصية والمدنية التي هي الضالة المنشودة والأساس الذي قامت عليه الشرائع السماوية والوضعية وبذلك استقرت عدة عائلات بالبلاد التوزرية بصفة مامورين وبعضهم من أخلاط الجند وباحتكاك الأهالي بالعنصر الغالب مع حسن معاملته جذبتهم طبيعة الدين الاسلامي لاعتناقه وأخذ في الانتشار واستمر الحال على ذلك الى سنة 440 وفي هذه الأثناء هاجمت القبائل العربية من بني هلال وبطونهم وبني سليم وشعوبهم بلاد افريقية للأسباب المقررة وانتشروا في سهولها وجبالها فانتزعوا من البربر أغلب ما بأيديهم من الأراضي وامتد تسلطهم الى المدن والقرى فانتزعوها من أربابها وفي هذا الدور زاحموا سكان هذه البلاد الجريدية واندمجوا فيهم وزحزحوهم عن مراكزهم وضعف العنصر البربري مع العنصر الروماني والوندالي ولم يبق منه في هذه البلاد إلا القليل يظهر من أول نظرة للرائي الدم الروماني والجرماني الجاري في عروقهم أما ما هو موجود الآن في البلاد التوزرية فأغلبهم من الجنس العربي اذ الزبدة أصلهم من مذحج قبيلة من عرب اليمن الا بعض الدخلاء فيهم ومسغونه أصلهم من دريد الذين هم من قبائل العرب الداخلين والخطبة فرع من بني يزيد احد عشائر بلد نفطة أصلهم عربي سيأتي الكلام عليهم في التعريف بعشائر نفطة . والشرفاء فرع من عشيرة الشرفاء بنفطة يأتي تعريفهم أما اليقطنة فهم من الهمامة من فريق أولاد ابي يحيى وأصلهم من بني سليم الداخلين وأولاد سيدي عبيد يرجعون الى القبائل العربية وينتسبون الى الهواشم وان اندمج فيهم غيرهم من القبائل فهم مختلطون بغيرهم وأما أولاد الهادف فجدهم الهادف ورد من الزاب من بقايا بني مزني الذين هم من عرب الاقبح، خلفوا قبيلة العرج في الرئاسة على البلاد وانتزعوا ما بأيديهم وشتتوا شملهم بأنواع المكائد فلم تبق لهم باقية وأصل قبيلة العرج هذه فرع من الذواودة الذين هم من العرب الداخلين استوطنوا بلد توزر عندما أدرك الهرم دولة بني حفص في أول القرن العاشر وبما لهم من العصبية في بني جلدتهم قوي نفوذهم وصار لهم الحظ الأوفر في البلاد الى أن أذن الله بادبار الأيام عليهم فانقرضوا والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، أما جهيم فهم أخلاط من البربر الأصليين والواردين من نفزاوة وبقية من نسل الرومان والوندال إلا البعض منهم فهم من قبيلة زهانة شعبة من العرب الهلاليين استقر سلفهم في أواخر القرن الخامس الهجري وأما الشابية فأصلهم من الشابة قرية من قرى المهدية استقر سلفهم بها في أواسط القرن الثامن وردوا على افريقية من بلاد الأندلس عند تغلب السلطان ابي الحسن المريني عليها في جملة الجند وعند وقوع نكبة السلطان ورجوعه الى المغرب استوطن هؤلاء بلاد القيروان ثم تأثل مجدهم وقوي شأنهم فانتقلوا الى بلاد الشابة ومكثوا بها واتخذوها وطنا وكان احد أفاضلهم المسمى سيدي نعمون من المنتحلين لمذهب الصوفية قد استوطن مدينة القيروان واستمال الناس لمذهبه فأقبلت عليه بعض القبائل وانقادت لمواعظه وخضعوا لأوامره فحصلت بذلك لذريته وجاهة واعتبار في نظر العموم وفي سنة 933 قام منهم الشيخ عرفه على السلطان الحسن الحفصي حين اضطربت عليه البلاد وبايع لرجل من لمتونه اسمه يحيى أوقفه في السلطنة وزعم انه حفصي جاء من المغرب وتم له الأمر والنفوذ الحقيقي للشيخ عرفه ثم فر بعد ذلك ودخل تونس في دولة السلطان احمد فأوقع عليه القبض وقطع رأسه وبقي الشيخ عرفه الشابي بيده الأمر والنهي والتفت عليه الأعراب من قبائل دريد وغيرها الى أن مات وقام بالأمر بعده ابن أخيه محمد بن أبي الطيب ولم يزل مركزه مدينة القيروان الى ان انتزعها درغوث باشا طرابلس في حدود الستين وتسعمائة بموالات أهل القيروان بالقبض عليه واعتقل ففرت أشياعهم من القيروان وسكنوا البادية وتفرقوا واستوطن جماعة منهم جهات الجريد بخيامهم ينتجعون المرعى لمواشيهم اين ما وجدوه ويأوون لبلد توزر وغيرها من بلدان الجريد عند الاقتضاء وبما اكتسبوه من السمعة والوجاهة بخروجهم عن الدولة وانتحال مذهب المتصوفة صار لهم نفوذ في عرب افريقية وعوائد يستخلصونها عليهم فقوي أمرهم ولازالت نفوسهم تائقة الى قوة السيطرة والنفوذ الى أن جاءت دولة المراديين وأوجسوا منهم خيفة فانتهز محمد بن مراد بأي فرصة ظهور بعض الحوادث على يد بعض زعمائهم وأوقع على طائفة منهم القبض وقتلهم بتوزر سنة 1090 ومن ذلك التاريخ أخذ أمرهم في الضعف الى أن استوطن أكثرهم بتوزر لكن بقي لهم ميل لاقتناء العلوم وظهرت فيهم علماء وصلحاء لا ينكر فضلهم رحم الله السلف وبارك في الخلف وأما الجماعة فليسوا من فريق واحد ينتسبون اليه فهم عدة عائلات متفرقين في العشائر وردوا في أزمنة مختلفة ثم التحموا بأولاد الهادف في المدة الأخيرة وكان لرؤساء هذه العائلات نفوذ ووجاهة بين أهالي البلاد يعتمدونهم في الرأي وسديد النظر ولذلك يعبرون عنهم بالجماعة بمعنى الأعيان وقد ظهر فيهم أفراد تفتخر بهم البلاد فمنهم العائلة الشاذلية التي أحد أفرادها الشيخ محمد الزين بن الشاذلي ارتحل لتونس وعكف على اقتناء الفنون العلمية وجد واجتهد الى أن حصل على الحظ الأوفر منها وكان العلماء بتونس يباهون به ولاسيما في العلوم العقلية فكان له فيها القدح المعلى وله عدة تعاليق ورسائل في فنون شتى ومن نظم الشيخ الزين قوله :

جلس السعد على كرسيّه وتباهى بعلوّ المرتبه
وأتى العقل إليه زائرا ودنا من بابه فحجّبه

وأنشأ مقامات في الأدب نحى بها منحى مقامات الحريري وقد تقلد خطة الافتاء بتوزر فقام بأعبائها أحسن قيام رحمه الله وقدس روحه الزكية مات سنة 1280 هـ كما ظهر بعشيرة الزبدة رجال فطاحل زينت بمآثرهم المحافل وسارت بمفاخرهم الرواحل فكم بنوا من المجد

قصورا وملؤوا بالعلم صدورا فمنهم العلامة الماهر والبحر الذي تقتنص منه الجواهر من طبق ذكر ثنائه الآفاق وانتشر عبيره في البريئة على الاطلاق الشيخ سيدي ابراهيم بوعلاق تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته كان له قدم راسخ في العلوم العقلية والنقلية ارتحل الى محروسة تونس واجتهد في اقتناص الجواهر واقتناء المفاخر ولازم أيمتها الاعلام وهجر لذيذ المنام فحصل من الفنون العلمية ما عمر به جرابه وملأ به وطابه ثم رجع لبلده توزر وتقلد رئاسة الافتاء بها في زمن ضرب فيه التعسف أطنابه وفقد الحق وسائله وأسبابه فشمر على ساعد الجد وتصدى لمقاومة الظلمة وصد تيار جورهم ولاقى من جزاء ذلك صعوبات وأتعابا بدنية ومالية ولم تفتر عزيمته قدس الله تلك الروح الزكية الطاهرة وكان له مكانة عظمى عند أرباب الدولة وله مجالس ومحاضرات تكتب بماء العين وله تآليف ورسائل شتى في فنون مختلفة اما قصائده الرنانة فقد سارت بها الركبان وفاقت بلاغة سحبان رحمه الله وتبرز قبل ذلك علماء اعلام يتعذر حصرهم مات سنة 1303 رحمه الله تعالى.

فصل في الكلام على مدينة نفطة

ذكر ولي الدين بن خلدون أن أول من استوطن هذه البلاد قبائل البربر وهم من ولد كنعان بن حام من نوح عليه الصلاة والسلام حسبما نقل عن ابن حزم نزحوا من بلاد آسيا الى بلاد افريقيا وهم اخوة القبط والنوبة والحبشة سكن هؤلاء أراضي مصر وانتشرت قبائل البربر في جهات افريقيا الغربية الجنوبية والشمالية والوسطى ونما عددهم الى أن ملؤوا البراري والقفار والتلول والجبال وهم رحالة شأنهم سكنى الخيام ومكاسبهم الشاة والابل. وبقوا على هذه الحالة قرونا عديدة الى أن استولت دولة الفينيقيين على بلاد افريقيا وذلك سنة 1100 قبل الميلاد وفي هذا الدور ابتدأ عمران هذه المدينة وكانت مشتملة على ثلاث مدن أشهرها مدينة درجين ثم مدينة فرشانة ثم مدينة قنطار وكانت قنطار غربي راس عين البلد يمتد من المغرب الى المشرق ثم ينعطف شمالا مسامتا من جهة الجنوب مجرى واد البلد الى أن ينفصل عنه فيعترضه الطريق الموصل الى توزر المسمى الآن بثنية القائد حسين ويليها من جهة الجنوب الغربي مدينة فرشانة وبها ضريح سيدي حسن عياد ويلي فرشانة من جهة الشمال الشرقي مدينة درجين وهي التي بها ضريح سيدي أبي علي وكانت هذه المدن في ابتداء أمرها مداشر الى أن استولت دولة الرومان على افريقيا وامتد تسلطهم الى هذه البلاد فجمعوا ما كان متفرقا من مياهها ووزعوها على المزارع والأجنة وشرعوا في غراسة النخيل والزيتون في الجهة الشرقية الجنوبية وامتدت الغراسة حول البلاد غربا وشرقا منعطفا الى الجنوب الى ان اتصلت الأجنة ببعضها وخصصوا أجنة قرب البلد لغراسة الأشجار المثمرة من تين وعنب ومشمش وإجاص بجميع أنواعه ورومان واترج مع البقول والخضروات وامتدت غراسة الأشجار نحو ثمانية أميال وانتحل منهم أهالي البلاد طرق الاستعمار وقلدوهم فيما يسلكونه من الحضارة بعظم شأنها وقوي عمرانها وانتقلت من حضيض الانحطاط الى أوج الترقي وبهذا الامتزاج اكتسبت أهمية عظمى فنفقت أسواقها واستبحر تمدنها لما لها من حسن الموقع الجغرافي اذ هي واقعة في الجنوب الغربي من مدينة قرطاجنة تجلب لها بضائع السودان ونتائج المغرب الأقصى والأوسط ومنها تنتقل الى دواخل البلاد الافريقية ولازالت زاهرة مدة اختلاطهم بالرومان الى أن تغلبت أمة الواندال على البلاد الافريقية وانتزعتها من يد الرومان فوقف سير تقدمها لفقدان الأمن في طريق القوافل لأن عناية الرومان بأمن السبل أكثر من عناية الواندال وبقيت على هذه الحالة الى ان هجمت أمة الروم على بلاد افريقية وفي هذه الأثناء استقل عدة أمراء من البربر بها ومن جملة المستقلين أمراء قسطيلية ثم هجمت أمة الغوط على افريقيا الغربية كما سبق وفي أثناء سنة 647 مسيحية وسنة 27 هجرية افتتح العرب بلاد افريقيا وقد سبقت الاشارة الى أن فتح بلاد الجريد كان صلحا بحيث أن سكان هذه البلاد انعقد بينهم وبين الأمير حسان ابن النعمان الغساني عهد والتزم فيها أهالي البلاد بالطاعة والانقياد ودفع ما تعاهدوا عليه لبيت المال وتعهد لهم الأمير بحفظ ذمامهم والدفاع عن مصالحهم الشخصية والمدنية ونصب فيهم من يقوم بشؤونهم ويدافع عن مصالحهم فلم يلبثوا إلا قليلا حتى اعتنق أغلبهم الديانة الاسلامية طوعا ومن بقي على الديانة النصرانية انتقل الى جزيرة سردانيا وما وصل القرن الثاني هجري حتى لم يبق بهذه البلاد غير المسلمين إلا أنهم لما كان دخولهم في الاسلام مجرد تقليد في عوام المسلمين كانت عقائدهم على غير أساس إلا النزر القليل الذين هم من العائلات العربية أو الذين ارتحلوا الى المشرق ودرسوا أصول الدين الاسلامي وفروعه وأتقنوا العلوم الشرعية ووسائلها فإنهم لما قفلوا لهذه البلاد أخذوا في نشر العلوم والأداب ولم يزالوا يبذلون جهدهم في نزع ما طرأ على العقائد من الأدران واعترضتهم في سبيل ذلك عقبات الى أن جاءت دولة العبيديين وكانوا مع أشياعهم على مذهب الشيعة وذلك سنة 297 هجرية فاصطدم مذهبهم مع مذهب الخوارج الذي هو ضد مذهبهم وقامت بين الفريقين حروب تشيب لها الولدان وكان زعيم الخوارج رجل توزري من قبيلة يفرن احدى قبائل البربر يقال له مخلد ابن كيداد ويكنى بأبي يزيد والتفت عليه قبائل البربر من كل ناحية منتصرين لمذهبهم الى أن انتهت بهزيمة الخوارج وقتل زعيمهم وبقيت هذه البلاد مخضرمة بين خوارج وشيعية وسنية الى سنة 442هـ فعمد المعز بن باديس الصنهاجي وحمل الناس على مذهب أهل السنة وألزمهم بتقليد مذهب الامام مالك رضي الله عنه ولم يبق على مذهب الخوارج إلا من نزح لمستوعرات الجبال ومستصعبات البراري القفار وبعض الجزء البحرية.

فصل فيمن طلع في سماء البلاد النفطية من علماء الملة
ومن سطع في أفقها من البدور والأهلة

لما كانت العائلات التي استوطنت هذه البلاد أول الفتح الاسلامي هم رجال الحرب والسياسة وقد صرفوا عنايتهم في توطين قدمهم وتقرير الأمن والراحة الى أن جاءت سنة 217 هجرية فابتداء ارتحال الراغبين في تحصيل العلوم النافعة الى المدن الاسلامية المستبحرة فارتحل في هذه السنة أبو الحسن بن اسماعيل الفوشاني الى القيروان ولازم الامام سحنون وتعلم عليه الفقه ومكث مدة بالقيروان ثم ارتحل الى المشرق وسمع من اصبغ بن الفرج ومن سعيد بن فرج بن موسى وغيرهم من علماء المشرق ثم رجع الى القيروان فسمع منه احمد بن سليمان بن موسى بن عبد الرحمان وجماعة كثيرة من أصحاب سحنون وغيره وكان كثير الكتب حسن التقييد ثقة رجع لبلده نفطة وبث فيها من العلوم ما استنارت به بصائر أهلها وانتشرت العقائد الصحيحة والعلوم النافعة وتوفي رحمه الله تعالى سنة 263 وبقيت تلامذته يبثون العلوم في البلاد الجريدية وما حولها، ومن المرتحلين الى المشرق أبو عبد الله بن الحسن بعد أن سكن القيروان وسمع من محمد بن بشر الوراق، انتقل الى العراق وسمع من سفيان بن بشر الكوفي ورجع لنفطة ومات بها سنة 294 هـ، عن ابن الشباط، ومما ازدانت به البلاد الافريقية علما وعملا من المرتحلين من بلد نفطة أبو بكر بن عبد الرحمان ارتحل الى القيروان وتفقه بها ثم ارتحل الى المشرق واقتنى من العلوم العقلية والنقلية الحظ الأوفر ورجع الى القيروان وقرأ عليه جماعة كثيرة ثم رجع لبلده وأقام بها مدة ثم رجع الى القيروان وتوفي بها في أواسط القرن الخامس وكان معاصرا لأبي عمران الفاسي الذي كان سببا في تكوين دولة المرابطين، ومن المرتحلين الى المشرق الفقيه أبو القاسم عبد الرحمان النفطي المعروف بابن الامام الوطاسي ارتحل الى القيروان ومكث بها مدة ثم ارتحل الى العراق سنة 502 هـ واجتمع بالامام أبي حامد الغزالي وأخذ عنه العلوم العقلية والأصلين ثم رجع الى افريقية وتفقه عن الامام المازري وأخذ عنه الحديث ثم ارتحل الى الأندلس وأخذ عن القاضي أبي بكر بن العربي ثم رجع لبلدة نفطة سنة 531 هـ، وفي هذه السنة أتم شرحه على صحيح مسلم وله تآليف كثيرة في الأصول والمنطق وغيرهما.

ومن الوافدين على مدينة نفطة الأستاذ الكبير والقطب الجامع الشهير دو المناقب العديدة والمآثر المفيدة من عبق على الجريد ريحه وشرف نطة مقامه وضريحه الشيخ سيدي أبو علي حسن بن ابراهيم الشريف الحسيني قدس الله روحه الزكية فهو من الشرفاء بسجلماسه ورد على مدينة القيروان أواسط القرن السادس وأقام بها مدة طويلة تمكن فيها من التضلع في علوم الدين وتبحر في العلوم العقلية ثم انقطع للعبادة والزهد وسلك سبيل الورع والخلوة وأقبل عليه والتزم مذهبه جماعة كبيرة منهم عمدة الصالحين وقدوة السالكين أبو يوسف الدهماني وغيره حسبما ذكره في معالم الايمان وانتفعوا بعلومه وارشاداته ثم انتقل لبلد نفطة واستقر بها وهرع اليه الناس من كل حدب وتسابق اليه المسترشدون يكرعون من حياضه ويرتعون في خصب رياضه وترد عليه الأسئلة من الأقطار البعيدة فيحل رموزها ويستخرج كنوزها، ومن ذلك ما ذكره الامام البرزلي من الرسالة التي خاطبه بها الحبر الامام أحد فلاسفة الاسلام أبو يعقوب الطري الذي أخذ جلها من كلام الامام أبي حامد الغزالي رحمه الله وقسم فيها مدلولات لفظ العقل ومراتبه، وأولها الحكمة صناعة نظرية يستفيد منها الانسان ما عليه الوجوه في نفسه وبعد أن أرسلها الشيخ أبو يعقوب الى الشيخ سيدي أبي علي ليكتب عليها ما عنّ له رضي الله عنه، ونص ما افتتح به جوابه رحمه الله «ألم يان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر اللهوما نزل من الحق :

أمـــاء ان من صبح الــــرشـــاد تنفس	وحتى متى ليل الضـــــلال معسعس
تـــراني أرى فجـــر الهدى متعـرضـا	فينـــزع للترحـــال صب معـــرس
ومـــا حـــذري الا شعـــوب مغيرة	ومـــا لاح اصباح ومـــا اشمط حنـدس

من شبيان الابله الى الحبر ابي يعقوب، أما بعد فإن كتابك مشتمل على ماهية العقل وحقيقته وقد ألفيته وافيا بمقصودك غير واف بمقصودي ولست ممن قنع عن الدر بالصدف واقتنى علوما لم يؤمر بها شرعا واستغرقت فيها همته حتى زلت به قدم الغرور في مهوات التلف، وكل ما تذروه رياح الموت فالهمة تقتضي تركه وقد استشهدت بالحديث في الأسباب والترقي منها الى مسببها فالأمر كما ذكرت لكن ليست أسبابا هي ظلمات ثلاث بل هي أسباب نورانية يستدل بها على منورها فمعرفة النفس مقام محمود وهو مقام المقربين يمزج من شرابه الصرف لأصحاب اليمين، فالمقرب من عرف نفسه موحدا لربه وقد من الله سبحانه بعلوم جليه ربانية محمدية يعضدها الشرع ويشهد لها العقل السليم الجامع بين الأصل والفرع كالجمع والافتراق وخرق السبع الطباق وحقيقة البرزخين وما اشتملت عليه أرحام الانثيين والترقي من الأين الى حيث لا أين وكيفية الأرواح والأشباح وسكون الليل وانفلاق الأصباح واختلاف الألسن والأصوات ومنطق كل شيء وعجائب الآيات وغير ذلك مما لا يلفى قط مسطورا وقد اضمحل الوجود وبطلت دعواه وأبرز المكون على كل شيء كلا بل هو الله واعرب بلسان فصيح غمزا ورمزا هل تحس منهم من احد او تسمع لهم ركزا.

بل لـــو رأيتنـــا والأحبـــة بيننـــا | لـــرأيت غـــزلانـــا تصيـد سبـــاعـــا
بل لـــو تـــرى تلك البقـــاع وأهلهـــا | لظللت بـــالحسن البـــديع مـــراعيـــا
شـــوقي طبـــاع واصطبـــاري كلفـــة | وأرى التكلف لا يـــزيـل طبـــاعـــا

وكثيرا ما تشير الى كتب حرام مطالعتها والوقوف عليها شرعا ولنا في رسول الله أسوة حسنة ومن يطع الرسول فقد أطاع الله وكفى بهذا جمعا والحنفية السمحة قد أشرق سراجها وغمر نـورها وقهر سلطانها كل أشـوص عاتي القلب ليس له تحقيق أهل الوصـول ولا تدقيق أهل الأصول الهمج الرعاع الـذين هم لكل ناعق اتباع قد أوثق الغي عقولهم فهم في ريبهم يترددون افتي معرفتي أرى الشر من ذوي النباهة قريا وكأني بسيدي يقول شب عمرو عن الطوق وما أحوجه في حقيقة الشرع وحالة التصوف الى شيء من الذوق، واعلم أنه لا تظهر حالة حسنة الا بملازمة أصل صحيح فإن كنت ممن أراد الآخـرة وسعى لها سعيها وأناب الى الله بقلب سليم فها أنا ذا أقبل قـدميك متبعا لما يوحي اليك وإلا فاطـوعني طريـان الهذيان ولا تقعقع لي بـالشنان يأبت اني قـد جاءني من العلم مـا لم يأتك فاتبعني أهـدك صراطا سـويا يـا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمان عصيا يا أبت اني أخاف أن يمسك عـذاب من الرحمان فتكون للشيطان وليا قال سلام عليك سأستغفر لك ربي انه كان بي حفيا.

ولما استبان الصبح أدرج ضوءه بأنواره أنوار ضوء الكواكب أشرق في الليل نور بهجته ولاح حتى أطفىء بشعاعه كل مصباح.

مـــازلـت أنكـــر أيـــامي وأعـــرفهـــا | حتى استبـانت فـــلا بيض ولا ســـود
وجـــال بي في مجال الكـــون مختبطـــا | لا القـــرب قـــرب ولا الابعـــاد تبعيـد

جعلنا الله وإياكم من الموحدين المتبعين ولا جعلنا من الملحدين المبتـدعين وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين (اهـ).

وله ماهر لا تحصى فقد اشتهرت مناقبه في الآفاق وصارت محل اجتماع واتفاق توفي رحمه الله يوم الخميس عاشر شعبان الأكرم سنة 610 وتجاوز عمره المائة سنة.

ومن الوافديـن على بلد نفطة البرر المنير والطود الشهير إمام العـارفين وقدوة المرشدين الشريف الحسيني الشيخ سيـدي احمد معاد قدس الله سره ورد من تلمسان على بلاد القيروان في أوائل القرن العاشر ونسبه يتصل بالمولى سيدنا ادريس ابن عبد الله الكامل من ولد الحسن ابن مولاتنـا سيدتنا فـاطمة الزهراء ابنـة المصطفى صلى الله عليه وسلم وكـانت عائلتهم في تلك الأصقاع مشتهـرة بهذه النسبة وهو ذو وجـاهة واعتبار ارتحل من بلد تلمسان لاتمام معلوماته الى الديار الشرقية ثم استقر بالقيروان مدة حتى امتلأ بالعلوم الدينية ووسائلها وعاءه وأشرقت بالمعارف والعوارف سماءه ثم حج وقفل راجعـا لبلده تلمسـان فلما نزل بنفطة وذلـك سنة 933 هـ استقر بـزاوية هنـاك لأحد المرابطين بها المسمى الشيخ محمد الوطاسي وكان مشهورا بالولاية فمكث عنده مدة ريثما يجد رفقة يسافر معها لبلده وفي خلال ذلك طلب من شيخ الزاوية أن يقرىء درسا ينتفع به الناس حتى يجد فرصة للسفر فشرع في التـدريس ونشر الدر النفيس وأقبل عليه الناس ينتفعون بعلومه من كل صقع حتى قيل أن حلقة درسه تشتمل على مئتين من الطلبة واشتهر عند الناس علمه وصـلاحه ونسبه الشريف فرغب منه الشيخ الوطاس المذكور أن يصاهره على ابنته فاعتل له الشيخ بـأنه لم تكن له هذه البلاد وطنا حتى يتزوج فيها فأجابه الشيخ الـوطاسي بأنه اختاره لأجل شرفه وعلمه ليكرم به ابنته وبعد البناء بها يسافر بها الى بلده متى شاء فاستخار لله تعالى ثم أجابه لمرغوبه وصاهره عليها على أن ينقلها معه عند سفره، فلما بنى بها لم يمض عليها غير شهرين حتى ظهر حملهـا وبينما هو يترقب الرفقة ليسافر بها حتى ثقلت عندما وجـدت الرفقة فوجب تأخير السفير الى وضع حملها ولما وضعت ولدت ولـدا ذكرا وهو بكر الشيخ سماه محمدا ثـم غلب عليه اسم حمود على عادة بلده أهل المغرب فـانهم يدعون محمدا حمودا وبينما هو ينتظر ان يترعرع الولد ويجد رفقة حتى حملت حملها الثاني فولدت آخر سماه عبد القادر ثم ولدت ثالثا سماه عبد الرحمان ولما مرض الشيخ الوطـاس ولم يكن له ولد ذكر عهد بنظارة زاويتـه وأوقفها لسيدي احمد معاد فكان ذلك سبب اقامتـه بنفطة فانتصب لتعلم العلوم على اختلاف مشـاربها وتنوع فنونها من عقلية ونقلية ثم عكف على العبادة وسلـك طريق الزهد والمجاهدة وكـان له المقام الأسمى في طريق الارشاد والتضلع في معـرفة مناهجه فاستنـارت بهديه هذه البلاد وسلكوا بسراجـه منهج الرشاد وسيأتي ذكر عقبـه وما ظهر فيهم من علماء وصلحا رضي الله عنهم وأرضاهم فقد نفع الله بعلومهم الأمة وانقشعت بشموسهم السحب المدلهمة ولن يزال ضوء شموسهم يشرق في الآفاق واعلامهم تخفق في أرجاء العالم أي اخفاق.

ومن الوافدين على بلد نفطة العالم المحقق سيـدي عبد القادر الفاسي قدم الى هذه البلاد في حدود سنة 1140 هجرية وشرع في بث العلوم وأخذ عليه من أهالي البلاد وغيرها خلق كثير فأقبلوا على مناهل علمه واغترفوا من بحر معارفه وحصلوا على الحظ الأوفر من العلوم النافعة وتوفي رحمه الله سنة 1156.

ومن الوافدين على هذه البلاد العالم الشيخ سيدي محمد المداني بن عزوز والتقى بالشيخ محمد الصغير بن المبروك وكان عالما متبحرا في فنون العلم وله القدح المعلى في علم الحديث رواية ودراية وابن عمها الأديب العلامة الشيخ سيدي محمد التارزي بن عزوز ومنهم العالم العلامة الشيخ سيدي محمد بن عزوز وفد هؤلاء الاعلام في حدود سنة 1257 من بلاد الزاب فشيدوا من العلم قصورا وأشرقوا في أفق هذه البلاد بدورا واستمروا في نشر علومهم وادابهم ولاسيما الشيخ سيدي المداني فإنه ركض في هذا الميدان وأحرز حلبة السبق في مضمار العرفان رحمهم الله تعالى، أما المرتحلون فسيأتي الكلام عليهم عند ذكر عشائر بلد نفطة ان شاءالله تعالى.

فصل في تبحر عمران بلد نفطة وكثرة خيراتها

قد تقرر ان هذه البلاد في اول اطوارها يسكنها قبائل البربر واتخذوا مساكن من جريد النخل والطين يأوون اليها عند الحاجة الى ان استولت دولة الرومان على بلاد افريقية وامتد نفوذها الى بلد نفطة وتصدى الرومانيون الى بث بذور العمران وحصر المياه المتفرقة وجمعوها ثم قسموها بكيفية هندسية على المزراع والحقول وعم الانتفاع بها وشرعوا في غراسة النخيل والزيتون وغيرهما من الاشجار المثمرة وزرع البقول والخضروات وترقّت حالة البلاد واخذت في التدرج الى ان وصلت نهاية العمران بالنظر للحالة الاولى واستوطن الرومان البلاد وامتزجوا بأهلها وقلدوهم في سيرتهم العمرانية والاجتماعية وصارت مدينة نفطة من الأمصار العظيمة بسبب كثرة مياهها وجودة تربتها وحسن موقعها الجغرافي وتشمل هذه المدينة ثلاثة بلدان كما تقدم هي : قنطنار وفرشانة ودرجين وحول هذه المدن امتدت غراسة الزيتون والنخيل والأشجار على اختلاف أنوعها فكانت بكثرة مياهها واتساع عمارتها جنات تجري من تحتها الأنهار وبما حصل لها من الثروة ونمو العمران اشتغل أهلها بفروع التكسب من زراعة وصناعة وتجارة بسبب وجود النتائج الفلاحية وورود القوافل عليهم من دواخل افريقية وبلاد السودان ولما سقطت دولة الرومان واستولت دولة الواندال على بلاد افريقية وذلك سنة 439 بعد الميلاد وأخذت افريقيا في الانحطاط من جهة عمرانها فانحطت حالتها ووقفت حركتها التجارية بسبب عدم أمن السبل اذ الواندال لم تكن لهم همة الرومان في الأمن والاطمئنان وغاية أمانيه التغلب والاستيلاء على الأراضي لأنها دولة حديثة لم يكن عندها رسوخ في سياسة الشعوب ومعرفة أساليب تدبير شؤونها ولذلك لم تدم حتى هاجمتها دولة الروم الشرقية وطحنتها بكلاكها وذلك سنة 533م وقد تقلص ظل تسلطها على أطراف البلاد من قبل تسلط الروم عليها بمدة واستقل بذلك عدة أمراء الى أن هجمت الأمة العربية على بلاد افريقيا وذلك سنة 647 مسيحية وسنة 27 هجرية وعقدت مع أهالي هذه البلاد صلحا تعهدت فيه الأهالي بما يجب من الرسوم المالية الشرعية لبيت مال المسلمين والخضوع لأحكامهم وتعهد لهم الأمير بتوطين الأمن واجراء الأحكام العدلية والمساوات في الحقوق وحفظ ذمامهم مما يطرقهم من كل عدو مفاجيء فاستقر قرارهم وتراجعوا أمرهم سيما بعد أن وفذت بعض عائلات عربية من بلاد المشرق حاملة لواء التمدن الشرقي فنشروه في هذه الأصقاع مع ما تقتضيه قواعد الشرع الاسلامية من كف أيدي الظلم والعدوان والأمر بالمعروف والعدل والاحسان فأقبل الناس على سكنى البلاد وازداد عمرانها ونفقت أسواقها وراجت بضائعها لما في طبيعة البشر من أن الانسان اذا كان آمنا على نتائج عمله انبعثت نفسه للسعي في استخراج كنوز الأرض بجميع الوسائل والكد في أسباب تحصيل الثروة وكلما ازدادت ثروته انتقل في جميع حالاته الى حالة أرقى من حالته التي كان عليها بسبب ما تقتضيه الأدوار العمرانية ولذلك فإن أهالي هذه البلاد استفحل أمرهم وقوي شأنهم واستبحر عمران بلدهم حتى بلغت مساحة عمرانها اثنا عشر ميلا مربعا لأن طولها من المشرق الى المغرب ثلاثة أميال وعرضها من الجنوب الى الشمال أربعة أميال ومما يؤيد ذلك ما يوجد من المقابر وآثار مواجل الزيت ومعاصر الزيتون بأطراف البلاد ووسطها وفي اثناء تسلط الأمة العربية على هذه البلاد اعتنق من البربر والرومان أهالي البلاد الأصلية الديانة الاسلامية طوعا ولازالوا يدخلون في دين الله أفواجا وما وصل القرن الثاني هجري حتى لم يبق بها غير الدين الاسلامي لأن من بقي على الديانة المسيحية انتقل لجزيرة سردانيا غير ان الذين أسلموا لم يحسنوا العقائد الاسلامية على حقيقتها لأنهم تلقفوها من أخلاط الأعراب ولفيف الجند ومن هم موجودون من بعض من لهم رسوخ في العقائد الحقة قليل جدا ومع ذلك فلم يستقر قدمهم بهذه البلاد لأنهم اما امراء ملكيون أو رؤساء الجند وهؤلاء ينتقلون من بلد الى أخرى على حسب الاقتضاء الى أن جاء دولة العبيد بين وذلك سنة 297 هجرية وكان العبيديون على مذهب الشيعة ومن أنظم لهم من البربر فتمذهب بمذهبهم ولما كان أغلب سكان افريقيا على مذهب الخوارج الذين هم ضد مذهب الشيعة اجتمعت قبائل البربر تحت رئاسة زعيمهم أبي يزيد الخارجي المتقدم ذكره وقامت بينهم حروب سالت فيها الدماء أنهارا كل منتصرا لمذهبه وساع وراء تحصيل الرئاسة لأهل عصمته وأخيرا انتصر العبيديون وقتل زعيم الخوارج وانقطع مذهبهم من بلاد الجريد وغيرها من البلاد الافريقية إلا القليل ممن تشرد في الجبال وبعض الجزر البحرية ولم تزل بلاد افريقية على مذهب الشيعة الى أن جاءت دولة المعز بن باديس الصنهاجي فبايع الخليفة العباسي سنة 442 هجرية ورفض مذهب الشيعة وحمل الناس على مذهب أهل السنة والتزام مذهب الامام مالك رحمه الله حسبما تقدم بيانه.

ونقل ابن الشباط عن البكري أن مدينة نفطة مبنية بالصخر عامرة آهلة بها جامع ومساجد وحمامات كثيرة وهي كثيرة المياه السائلة بل السائحة وشرب بلاد قسطيلية يوزن الا نفطة فإن شربها جزاف وقال ابن الشباط وفرشانة التي تقدم ذكرها كانت في القديم من عمل نفطة وهي اليوم خراب وكذلك قنطار وكانت من عملها أيضا وهي اليوم خراب ولم يبق اليوم من عمل نفطة إلا درجين خالصة ولا يخفى ان عصره كان في السابع هجري. قلت ومما هو ملحق ببلد نفطة زعفرانة التي هي الآن في الجنوب الشرقي من نفطة وهي خراب ولم يبق إلا وسط البلاد وجميع أطرافها صار أرضا قفرا والسبب في خرابها عاملان قويان احدهما ظلم الملوك وعتوهم فإن بعض جبابرة الملوك بمجرد ما يظن ببعض رؤساء البلد نوع انحراف لمجرد وشاية من غير تثبت ولا بحث فيبادر الى تجنيد الجنود وحشد البنود ويسلطها على هذه البلاد من غير ان يراعي شيخها الهرم ولا صبيها المستضعف ولا امرأتها ويسلط عليها النار والحديد فيقتل العباد ويخرب البلاد والثاني تعصب الاعراب لبعض من يحاول الرئاسة على العباد عندما يرى ضعفها بالدولة لسبب من الأسباب اما الشغل بتمهيد الراحة او دفاع بعض المتهافتين فيقع هجومهم على البلد فإذا دافعوهم بادروا وعاثوا في الأرض بالفساد والتخريب وقطع النخل والقتل والسلب والنهب وهكذا وقد مرت عليها عدة أطوار على هذه الحالة الاسيفة والله يفعل ما أراد وهو المدبر لشؤون العباد.

فصل في علاقة نفطة السياسية

كانت مدينة نفطة تابعة لحكومة قرطاجنة في سياستها اول اطوارها وهو زمن القرطاجنيين ثم بعد سقوط الدولة القرطاجنية وحلول دولة الرومان محلها صارت تابعة لها ثم صارت تابعة لدولة الواندال ثم دولة الروم الى الفتح الاسلامي وان تخللها استقلال بعض الأمراء من البربر في بعض الأطوار عند هرم الدول لكنه غير معتد به وعندما افتتح العرب البلاد الافريقية واتخذوا مدينة القيروان مركزا لأعمالهم السياسية والحربية وذلك في دولة خلفاء الأمويين ثم العباسيين من بني هاشم وبقيت هذه البلاد تابعة في سياستها الى القيروان من أول الفتح الى آخر سنة 308 هـ عند انتقال مركز الخلافة والامارة الى المهدية فصارت تابعة لها ولخلفائها العبيديين وأمرائهم من صنهاجة الى سنة 603 هـ حين صارت افريقية في يد الموحدين وجعلوا مركز اقامتهم مدينة تونس فصارت تابعة لها وقد اختطفها بعض ملوك مصر في دولة الايوبيين في أواسط القرن السادس وقد أشرنا الى ذلك في الكلام على توزر وفي بعض الأحيان دخلوا تحت سلطة ملوك بجاية كذلك ثم استردهم ملوك بني حفص خلفاء تونس وعند اشتغال الدولة الحفصية بحروب الخارجين على الدولة والمنتشرين على أطراف بعض ممالكها انتهزوا هذه الفرصة واستقل بعض أمراء في أطراف المملكة ومن المستقلين من الأمراء بنوا يخلف من بني مدافع ببلد نفطة فاستقلوا بهذه البلاد وما حولها من المداشر وأحياء العرب وذلك بعد أن فشلت الدولة الحفصية في حدود سنة 678 هـ واشتغلت بأمر الثوار وتوطيد قدمها في ممالكها المغربية فحصل انقلاب في البلاد الجريدية وتاقت نفوس الاعياص منها الى الرئاسة ولضرورة تبادل المصالح بين المتساكنين صار امر رؤساء هذه البلاد شورى بينهم ولكن في بعض الأحيان يغلظ أمر احدهم اما باستمالته لرئيس الدولة او تعصبه برؤساء الأعراب فيصير له الظهور على بقية الرؤساء واستمر الحال على هذا المنوال الى حدود سنة 715 فاستبد بالبلاد النفطية بنوا مدافع من بني الخلف وقد أولوا الامارة واحدا بعد واحد فاستفحل أمرهم واشتهر صيتهم واصطنعوا الرجال وجبوا الأموال وبنوا القصور الرفيعة والحصون المنيعة وانقطعوا عن مركز الخلافة الى أن وطدت الدولة أمرها في أطراف ممالكها وعقد السلطان أبو بكر حلفا وصهرا مع ملوك المغرب الأقصى والأوسط فراجع أمره ووجه رجال دولته ورؤساء معسكره الى تمهيد الانحاء وقمع الثائرين فولى ابنه أبو العباس احمد على قطر الجريد ووجه معه جنودا عديدة وقوة عتيدة فلما بلغ قفصة وجه صاحبه أبا القاسم بن عتو الى بلد نفطة سنة 743 هـ وزحف بعساكره عليها ابتلاء لطاعة رؤسائها بني مدافع المعروفين ببني الخلف وكانوا اخوة أربعة استبدوا برئاستها في شغل الدولة عنهم فسامهم سوء العذاب ولاذوا منه بجدران الحصون التي ظنوا انها مانعتهم وتبرأت منهم الرعية وسألوا النزول على حكم السلطان فجذبوا الى مصارعهم وصلبوا على جذوع النخل وافلت السيف منهم عليا لنزوعهم الى السلطان قبل الحادثة فكانت له ذمة وافية من الهلكة فضم الامير ابو العباس بلد نفطة في ممالكه وجدد له العقد عليها أبوه وتملك بلاد نفزاوة وقصد بلد توزر التي اضطرب أمرها وتواثب بنوا يملول على بعضهم الى أن راسل اهل البلد عمهم أبا بكر بن يملول وكان معتقلا بالحاضرة فعجل الأوبة وولاه الأمير على بلد توزر تحت كفالة الدولة كما مر ثم نبذ الطاعة ولم يزل بين أخذ ورد الى أن توفي السلطان أبو بكر ورجع أمر الجريد الى ما كان عليه من الاستبداد فاستبد الأمراء به الى سنة 777 هـ وذلك عند تغلب أبي العباس احمد الحفصي على أقطار افريقيا وضم بلاد الجريد الى ممالكه كما سبقت الاشارة اليه وعقد لابنه المنتصر على عملها وجعل الخلف بن الخلف رئيس بلد نفطة حاجبا له وعقد له ولاية بلدة نفطة.

فصل في أولية بني مدافع أمراء نفطة وما آل اليه أمرهم

نسب هذا البيت في غسان من طوالع العرب استقر سلفهم منذ أول الفتح في بلاد نفزاوة ثم انتقل أحد أجدادهم لبلد نفطة في أول القرن الثالث وتأثل بها لهم مجد وكان له أربعة أولاد مدافع وأبو بكر وعبد الله ومحمد وتفرع من هؤلاء أربع عائلات استبد فيها رؤساؤهم بأمر البلد من الشورى كما قدمناه ولما استولى السلطان أبو بكر على الجريد وأنزل ابنه أبا العباس بقفصة وذلك سنة 742 هـ واستولى على بلدان الجريد وأرسل أحد أركان حربه أبا القاسم بن عتو الى بلد نفطة فحاصرها وضايقها ولاذ أهلها بالطاعة وأسلموا بني مدافع المتغلبين فضرب أعناقهم وأفلت السيف منهم عليا ولما هلك الخليفة أبو بكر سنة 747 وعدل الحاجب ابن تافراكين على ولي العهد أبي العباس صاحب الجريد الى بيعة أخيه أبي حفص عمر زحف أبو العباس الى الحضرة طالبا حقه واضطربت الأحوال وأسرع اليه الاختلال فرجع أمر الجريد الى ما كان عليه من استبداد كل رئيس ببلده ومن أولئك الرؤساء علي بن خلف من بني مدافع فإنه استبد بأمر بلده نفطة وعندما صرف السلطان أبو الحسن وجهته الى افريقيا لينتزعها من بني حفص وفد إليه رؤساء نفطة وتوزر وقفصة وتلقاه علي بن الخلف ومن معه من الرؤساء الى وهران فتلقاهم مبرة وتكرمة ورجع كل منهم الى بلده حاملا رئاسته عليها واستقر علي بن الخلف بإمارة بلدة نفطة ولما وقعت النكبة على السلطان أبي الحسن سنة 749هـ استبد رؤساء الأمصار بأمصارهم وعادوا الى ما كانوا عليه من الاستبداد بأمر البلاد وكان من أمر الرئيس علي بن الخلف أن التزم مذاهب الخير وطرق الرضى والعدالة ثم توجه الى بيت الله الحرام فقضى مناسك الحج سنة 764 هـ وقفل الى بلاده وهلك سنة 765 هـ وولى مكانه ابنه محمد جاريا على سنته سالكا سبيل الرفق والعدل والصلاح وهلك لسنة من ولايته وقام بالأمر أخوه عبد الله بن علي فأذكى سياسته وأوقع عزمه وأرهف للناس حده فنقموا سيرته وكان القاضي محمد بن خلف الله من طبقة الفقهاء قد نزع الى السلطان أبي اسحاق من بلده نفطة مغاضبا لرئيسها عبد الله بن علي بن الخلف وكان مناهضهم في الشرف ومجاذبهم في الرئاسة على البلد فرعى له السلطان نزوعه اليه واستعمله لخطة القضاء بتونس عند ملك أبي علي عمر بن عبد الرفيع فتمكن منه وسعى بعبد الله هذا عند الخليفة ودله على مكان هلكته وبصرّه بعورات بلده واقتاد عساكر السلطان اليه في زمامه ولما احتل بظاهر البلد وعبد الله رئيسها أشد ما كان قوة وأكثر جمعا وأمضى عزما وقد استألف أخوه الخلف بن علي بن الخلف جماعة المشيخة دونه وحرضهم عليه وداخل القاضي وكان بالمرصاد في اقتحامها حتى اذا كانت البيعة دسّ الى بعض الأوغاد في قتل أخيه عبد الله والمكر بالقاضي والعسكر وامتنع عليهم واعتصم دونهم واستقل برئاسة البلد وأقام على ذلك يناغي الملوك في سيرتهم ويطارحهم في الكثير من مذاهبهم ورجع القاضي محمد بن خلف الله الى الحضرة بعسكره خاسرا صفقته الى أن توفي السلطان أبو اسحاق اذ قام عليه بعض حاشية السلطان لضغينة كانت له عليه واعتقله ثم قتله ولم يزل هذا الأمير مستبدا ببلاده وما حولها شامخا بأنفه على من يحاربه في هذا المضمار الى أن أطل على افريقيا الباز الأشهب والأسد المدرب أبو العباس احمد الحفصي بجنوده الجرارة الى مركز خلافته ومأوى أجداده وقد سبق مما قررناه أن أمر هذا الجريد قد صار شورى بين رؤساء أمصاره فيما قبل دولة السلطان أبي بكر لاعتقال الدولة بانقسامها فلما استغل السلطان أبو بكر بأمر الدولة الحفصية وفرغ من الشواغل صرف اليهم نظره وأوطاهم عساكره ثم نهض بنفسه وتغلب عليهم وعقد لابنه أبي العباس كما سبق فلما كان بعد مهلكه من اضطراب افريقية وتغلب الأعراب على نواحيها ما كان منذ هزيمة السلطان أبي الحسن المريني وتنازع رؤسائهم بعد أن كانوا سوقة في انتحال مذاهب الملك حتى لقد حدثتهم أنفسهم بألقاب الخلافة وأقاموا على ذلك أحوالا والدولة في شغل شاغل فلما استبد السلطان ابو العباس بأمر افريقيا وعمالاتها وأصر رؤساء أمصار الجريد على عنادهم وازدادوا عتوا واستكبارا شمر عزائمه ونهض من الحضرة سنة 777 هـ في عساكره من الموحدين وطبقات الجند والموالي وقبائل زناتة ومن استالف اليه من العرب وكر على من خالف عن الدولة من الامصار والاحياء فاكتسح أموالهم وبعث رجالهم أسرى الى السجون فجمد ذلك من عتوهم وقص من جناحهم الى أن وصل الى القيروان وارتحل منها الى قفصة فاستعد صاحب توزر للمدافعة واستحضر الرجال وسرّب فيهم الأموال فلم يغن شيئا ونازل السلطان قفصة فلجوا في عصيانهم وقاتلوه بجمع الأيدي على قطع نخيلهم ثم تساءلت اليه الرعية من أماكنهم وأسلموا له مقدمهم احمد بن العابد وابنه محمد المستبد عليه لكبر سنه واستولى على ذخائره ومساكنه واجتمع أهل البلد عند السلطان وأتوه طاعتهم وعقد عليها لابنه أبي بكر وارتحل يجد السير الى توزر وقد طار الخبر بفتح قفصة الى ابن يملول فركب لحينه وحمل أهله وما خف من ذخائره ولحق بالزاب وبعث أهل توزر بالخبر الى السلطان فلقيه أثناء طريقه وتقدم الى البلد فملكها واستولى على ذخائره ابن يملول ونزل بقصوره فوجد بها الماعون والمتاع والسلاح وانية الذهب والفضة وعقد السلطان لابنه المنتصر على توزر وأنزله قصور ابن يملول وجعل اليه امارتها واستقدم السلطان الخلف بن علي بن الخلف صاحب نفطة فقدم اليه وأتاه طاعته وعقد له على ولايته وولاه حجابة ابنه بتوزر وأقر له معه واستخلف عامله على نفطة ثم سعى بالخلف بن علي ابن الخلف بأنه يداخل ابن يملول ويراسله في السعي للاستنجاد برؤساء الأعراب والتحزب بهم على السلطان والاستظهار بهم للحصول على بغيتهم والرجوع الى حالتهم من الاستيلاء على البلاد والاستبداد بأمصارها كما كانوا، فبث المنتصر عليه العيون والارصاد حتى عثر على كتاب بخط كاتبه المعروف الى ابن يملول والى يعقوب بن علي أمير الذواودة يحرضها على الفتنة فتقبض عليه وأودعه السجن وبعث عماله الى نفطة واستولى على أمواله وذخائره وخاطب أباه في شأنه

فأمهله بعد أن تبين نقضه للطاعة وسعيه في الخلاف ولم يزل المنتصر مرتابا بالخلف وجز رأسه متوقعا سوء بغيته فقتله بمحبسه وذهب في غير سبيل مرحمه وانتظمت امصار الجريد كلها في طاعة السلطان ابي العباس واتصل ظهوره وعلا كعبه وبقيت أمصار الجريد كلها في طاعة السلطان الى ان توفي رحمه الله في شعبان 796 هـ وبايع أهل الدولة ابنه أبا فارس عزوز فانتظم أمره وقوي شأنه واستبد عليه أخوه أبا بكر بأمر قسنطينة فانتزعها منه وخالفه ابن عمه الأمير أبو عبد الله صاحب بونه فنهض اليه وأخذها منه ورجع به معتقلا ثم خالف عمال الجريد سنة 852 هـ فخرج لهم بنفسه وأخذه منهم وكانت له وقائع مشهورة بلغ في بعض غزواته الى نواحي غدامس وفي سنة 856 هـ استبد عامل نفطة في خلافة السلطان أبي عمر عثمان فخرج له بجنوده العديدة واسترجعها ونظمها في سلك الإيالة وبقيت بلاد الجريد وأمصاره خاضعة لخلفاء تونس الى سنة 917 هـ عندما أدرك الهرم دولة بني حفص واستقلت أطراف ممالكها فاستبد أمراء الجريد بأمصارها ولما هرمت دولة بني حفص واستولى خير الدين على تونس وبعض مدنها وخطب بها للسلطان سليمان وذلك سنة 935 فاستنجد الحفصي بدولة اسبانيا وهجمت بخيلها ورجالها على البلاد التونسية واستولت على معاقلها وحصونها فاستأصلت رجالها وأموالها ووطئت معاهدها بسنابك خيلها وبقي أهالي البلاد يقاسون في اضطهاد اسبانيا وفساد الأعراب وعثوهم الى أن وفد أسطول الدولة العثمانية تحت رئاسة سنان باشا فانتزع البلاد من يد دولة اسبانيا ووطد الأمر وانقطع أثر الدولة الحفصية وذلك سنة 981 هـ وأخذت دولة الترك بواسطة أمراء الجند وأجبرهم المعبر عنه بالباشا ينظمون سياسة البلاد وأحكامها وشمروا على ساعد الجد في توطيد الأمن وقمع المفسدين واسترجاع ما استبد به بعض الرؤساء وفي سنة 1010 جهز عثمان داي جندا عتيدا من الترك ومن انظم اليهم وسار لتمهيد السبل وتهدئة البلاد واستخلاص الجبايا فمن انقاد اخذ طاعته ومن انحرف أخضعه بالقوة الى أن وصل بلد نفطة فاستعد رئيسها المسمى علي بن سعيد لمقاومته والتف عليه بعض الأعراب وتحصنوا بالبلد وانتشب الحرب بينهم وحيث أنهم لم يألفوا المدافع ولم يعتادوا محاربة النظام الوقتي ركنوا الى الفرار وسلط عليهم النار والحديد فخرب البلاد وشتت شمل العباد ارهابا لذوي الشقاق ولاخضاع أهل الخلاف والنفاق ومن هذا التاريخ وهو سنة 1010 بقيت بلد نفطة وسائر أمصار الجريد تابعة في سياستها وأحكامها للحكومة التونسية والله مالك الملوك ومدبر شؤونها لا رب سواه بيده الأمر وهو على كل شيء قدير.

فصل فيمن استوطن البلاد النفطية من الشعوب والقبائل وما تداولتها من عناصر الأواخر والأوائل

قد علم مما مر أن أول من استوطن هذه البلاد قبائل البربر الذين وفدوا من بلاد المشرق قبل ميلاد المسيح بآلاف السنين وانتشروا في البلاد الافريقية فملؤوا سهوله وجبالها وهم في أول أطوارهم لا مقر لهم حيث أن حالتهم توجب عليهم التنقل لأن تمعشهم من الابل والشاة يظعنون بها الى حيث ينتجعون الكلأ متشتتين في البراري والقفار يتمعشون مما تدفعه الطبيعة من لحوم الحيوانات وألبانها ويتقون بأصوافها وأوبارها عادية الحر والقر يأوون بحللهم شتاء الى هذه البلاد طلبا للدفء واستمروا على هذه الحالة دهورا وأحقابا ثم اتخذوا لهم أكواخا من جريد النخل والطين يأوون اليها عند الاقتضاء ولازالوا كذلك الى سنة 1100 قبل الميلاد المسيحي وفي هذه الأثناء وفدت الأمة الفينيقية من بلاد الشام على بلاد افريقية واختلطوا بأمم البربر واستخدموهم في مصالحهم الاستعمارية باستبدال بضائعهم وتسخيرهم في أنواع التكسب من زراعة وصناعة وتجارة فأفادوا واستفادوا وذاقوا لذة الحياة الاجتماعية وفي القرن الثامن قبل المسيح اختطت عدة مدن مثل قرطاجنة وبنزرت وسوسة وأوتيكة وهي الآن خرابات قرب غار الملح وحينئذ انتقلت حالة القرطاجنيين من حالة الاستعمار الى دور السياسة فاتخذت من البربر جندا وشرعت في تدبر شؤون البلاد بواسطة مأمورين من بني جلدتهم ومعاضدة أبناء البلاد سالكة سبيل الرفق والمدارات الى أن رسخ قدمها واستحكمت سلطتها إلا أن اطراف البلاد مثل جهات الجريد لم تتمكن من ارضاخها كل الرضوخ وان انتحلوا منها بعض فروع التمدن نوعا واختطت الأهالي من البربر بلدانا لكن على حالة بسيطة وابتدأ عمران بلدان الجريد في القرن الثاني عشر قبل المسيح وبقي على حالته الساذجة الى أن وفدت أمة الرومان على بلاد افريقيا وتغلبت على الأمة القرطاجنية وذلك سنة 146 قبل الميلاد وانتزعت منها البلاد الافريقية وأخذت في تنظيم سياستها وادارة شؤونها بتأمين السبل وانشاء الطرق الصناعية وتخطيط المدن واعداد الحصون والمعاقل وشمرت على ساعد الجد في اتخاذ وسائل الاستعمار من تفجير المياه وتوزيعها على المزارع وغراسة الأشجار المثمرة على اختلاف انواعها وتسهيل طرق المواصلات وجلبت الافا من العائلات الرومانية لتدريب ابناء البلاد على الأشغال الاستعمارية فاختلطوا بهم وقلدوهم في تمدنهم وابتدأ عمران البلاد الافريقية الى ان وصل الى بلد نفطة من بلدان الجريد فجمعوا مياهها المتفرقة وقسموها بكيفية هندسية على الأجنة التي أنشؤوا غراستها وامتدت غراسة النخيل والزيتون نحو ثمانية أميال في الجهة الشرقية الجنوبية ومثلها في الجهة الغربية الجنوبية وتقاطرت عليها أمم البربر والرومان وبما أن العنصر الحي هو العنصر الروماني صار هو الغالب على العنصر البربري قوة وثروة ونفوذ أمر وان كان البربر أكثر عددا وبقيت الأمة الرومانية يمتد نفوذها وينموا عددها الى أن فشلت وأدركها الهرم فسقطت عليها أمة الواندال وهي أحد القبائل الجرمانية التي وفدت من شمال أوروبا واستقرت غربيها دهورا حتى استفحل أمرها وقوي شأنها فسطت على دولة الرومان وانتزعت منها ممالكها

الافريقية وذلك سنة 439 بعد الميلاد وبلغ بها الأمر الى أن استولت على مركز سياستها مدينة رومة وذلك سنة 455 بعد الميلاد المسيحي ثم انتشرت أمة الواندال في القرى والأمصار وساكنوا أهالي بلاد الجريد وغيرها من البلاد الافريقية فصارت سكانها أخلاط من البربر والرومان والواندال واستمر الواندال متغلبا على البلاد الافريقية وأمصارها الى أن هجمت عليها أمة الروم سنة 533 وهي القسم الشرقي من الأمة الرومانية إلا أنها انتحلت سياسة اليونان وتعاليمه ونظاماته فصارت ذات صبغة يونانية ولما تغلبت دولة الروم على البلاد الافريقية لم تتمكن من اخضاع البربر المتوغلين في دواخل البلاد ولذلك لم يختلطوا بأهالي هذه البلاد النفطية في هذا الدور، ولما رأى البربر أهالي البلاد الأصلية انحلال سلطة الرومان والواندال انبعثت فيهم روح الحياة القومية واستقل عنهم أمراء وبقي أمرهم على هذا المنوال الى أن هجمت الأمة العربية على بلاد افريقية وذلك سنة 647 مسيحية وسنة 27 هجرية واستعدت دولة الروم لدفاعها بمعاضدة البربر والتحم الحرب بينهم في عدة مواطن وكان الحرب بين الفريقين سجالا وأخيرا انتهت بفوز العرب وأزاحوا الروم عن مراكزهم واستولوا على معاقلهم وحصونهم وأسروا من الروم والبربر عددا كثيرا وأخذوا كثيرا من أمراء البربر والروم واعتقلهم الأمير حسان وتقدم الى مدينة قرطاجنة واستولى على ذخائرهم وأنشأ مدينة تونس فسقطت دولة الروم نهائيا وذلك سنة 81 هجرية وسنة 700 مسيحية وخضع أمراء البربر وما بقي من الروم والواندال والرومان لأحكام المسلمين خضوعا تاما حتى ان بعض المدن والأحياء لم تطأهم جنود العرب بل دخلوا تحت طاعتهم طوعا ومن ذلك بلدان الجريد فإن فتحها وقع صلحا كما سبق حيث أن بلد نفطة وتوزر وغيرهما تلقى أهلهم الأمير حسان بقفصة عندما أقبل بجنوده الجرارة من ناحية برقة مارا على بلد قفصة فأعطوه طاعتهم وعقد معهم عهده المعروف وبما رأوه في طبيعة الدين الاسلامي من المجاملة والرفق وحسن المعاملة والمساواة في الحقوق أقبلوا على اعتناقه طوعا لقوة جاذبيته واستقرت عدة عائلات عربية وأصبح أهالي البلاد الأصلية من بربر ورومان وواندال هم المعمرون للبلاد الى أن هاجمت قبائل العرب من بني هلال بن عامر وبني سليم ومن اندمج فيهم من غسان ومذحج والاقتج وذلك سنة 442 هجرية في عهد الأمير المعز بن باديس الصنهاجي على البلاد الافريقية كالجراد المنتشر وانتشروا في سهولها وجبالها بعد حروب قامت بينهم وبين أمير صنهاجة وقبائل زناتة سالت فيها دماء غزيرة وانتزعوا من البربر ما بأيديهم من الأراضي وامتد تسلطهم الى المدن والقرى فانتزعوها من أربابها واندمجوا معهم وزحزحوهم عن مراكزهم وضعف العنصر البربري والروماني والواندالي وما بقي من هؤلاء صار تابعا للعنصر العربي ومسخرا له الا أن القبائل العربية في هذا الدور لما كانوا من القبائل الرحالة لم يألفوا سكنى الأمصار ولم يعرفوا طرق الاستعمار وكانت هذه البلاد الجريدية متسعة الأرجاء فسيحة الأراضي غزيرة المياه متوقفة في استخراج كنوزها على مواصلة العمل واتقانه فاضطرهم الحال الى مشاركة أهالي البلاد وتقليدهم في شؤونهم الاستعمارية ولما كانت بلد نفطة عبارة عن ثلاث مدن كما قدمناه وهي فرشانة وقنطار ودرجين وكان العرب الذين استقروا بنفطة استوطنوا مدينة درجين ومدينة فرشانة وقنطار يقطنهما البربر وبقية أخلاط من الرومان والواندال الى أن أتى الخراب عليهما في أواسط القرن السادس ولم يبق الا مدينة درجين حسبما أشار الى ذلك ابن الشباط .

أهالي بلد درجين

ومما نقل عن بعض النسابين أن أهالي بلد درجين من عمل نفطة منقسمون الى أربعة وعشرين قبيلة وهذه أسماء القبائل، 1) بنو زيري ـ 2) بنو فرج ـ 3) بنو حموء ـ 4) بنو مجور ـ 5) بنو مدافع ـ 6) بنو سيقمامان ـ 7) بنو ورّوا ـ 8) بنو سيد الناس ـ 9) بنو ابرهيم ـ 10 بنو تلاليت ـ 11) بنو محسن ـ 12) بنو الشيخ ـ 13) بنو فرج ـ 14) بنو محمد ـ 15) بنو جموس ـ 16) بنو ولعاد ـ 17) بنو مرقين او مرقتين ـ 18) الدار عيسى ـ 19) بنو زيني ـ 20) بنو مستيج ـ 21) بنو داود ـ 22) بنو ادريس ـ 23) بنو ويدان ـ 24) بنو مجاسم، وقد قلنا ان بلدتي قنطار وبرشانة أتى عليهما الخراب ولم يبق إلا بلد درجين ثم تواردت عليها الفتن والبلا حتى تناقص عمرانها وقل ساكنوها وكاد يؤول أمرها الى الخراب والفناء ثم تراجع أهلها وأقبل عليها بعض القبائل العربية في أزمان مختلفة واستوطنوها واختلط الوافدون من العرب بأهل البلاد الأصلية من بربر ورومان واندمجوا فيهم بالمصاهرة والمستوطنون الآن أغلبهم من الجنس العربي وما بها من الرومان والواندال قليل جدا ويظهر لبادىء الرائي الدم الجرماني الجاري في عروقهم من شقرة بعض الأفراد وبياض بشرتهم وحمرة شعورهم كما ان البربر يظهرون للمتأمل بجعودة شعرهم وكدرة ألوانهم وان اختلط الحابل بالنابل .

عشائر نفطة

أما عشائر بلد نفطة الموجودة بها الآن فهي ثلاثة عشر وهذه أسماء العشائر : 1) المواعدة ـ 2) الشرفاء ـ 3) بنو علي ـ 4) خط الطين ـ 5) مسغونه ـ 6) حشاشنة ـ 7) زاوية سيدي الحمادي ـ 8) أولاد شريف ـ 9) بنو يزيد ـ 10) علقمة ـ 11) الزبدة ـ 12) المصاعبة ـ 13) زاوية سيدي حمد .

فصل في بيان نسب كل عشيرة من العشائر

فالمواعدة ورد جدهم سيدي احمد معاد على بلد نفطة من تلمسان كما في ترجمته عند الكلام على الوافدين من العلماء والصلحاء وكان ورود سيدي احمد معاد على بلد نفطة في حدود سنة 933 هـ ونسبه يتصل بسيدنا الحسين بن مولاتنا فاطمة الزهراء ابنة المصطفى صلى الله عليه وسلم فهو من عائلة الادريسيين الذي وفد جدهم سيدنا ادريس الأكبر على بلاد المغرب وتفرع من ابنه سيدنا ادريس الأصغر عدة عائلات وانتشروا في بلاد المغرب الأقصى والأوسط فمن المتنقلين الى بلد تلمسان من عائلة الادريسيين المولى عبد الجبار بن احمد ابن عطاء الله الجد الأعلى لسيدي احمد معاد ارتحل من بلد فاس الى مدينة تلمسان واستقر بها وكانت له حظوة ومكانة بتلك الانحاء فتأثل له بها مجد وتفرعت منه عدة عائلات نبيهة كان لهم القدح المعلى في الوجاهة والاعتبار علما ونسبا وارتحل من هذه العائلة الكريمة عدد ليس بالقليل لبلاد المشرق والأندلس لاقتناء الفنون العلمية ومن المرتحلين لبلاد المشرق سيدي احمد معاد فأقام بها مدة ثم كر راجعا فلما وصل مدينة القيروان قام بها سنين يفيد ويستفيد ومنها انتقل الى بلد نفطة واستوطنها بعد الحج للسبب الذي قدمناه وهو احمد 1) معاد ـ 2) بن محمد ـ 3) بن علي ـ 4) بن يحيى ـ 5) بن عبد المعطي ـ 6) بن عبد العالي ـ 7) بن احمد التومي ـ 8) بن مسعود ـ 9) بن اسماعيل 10) بن عبد القادر ـ 11) بن عبد الجبار ـ 12) بن احمد ـ 13) بن عطاء الله ـ 14) بن سعد الله ـ 15) ابن ابي القاسم ـ 16) بن علي ـ 17) بن عمران ـ 18) بن محمد بن يحيى الجوطي ـ 19) ابن محمد العوام ـ 20) بن يحيى العوام ـ 21) بن القاسم ـ 22) بن ادريس الأصغر ـ 23) بن ادريس الأكبر ـ 24) بن عبد الله الكامل ـ 25) بن حسن المثنى ـ 26) بن الحسن السبط ـ 27) بن فاطمة الزهراء ـ 28) ابنة المصطفى صلى الله عليه وسلم استقر سيدي احمد معاد ببلد نفطة واستوطن بها وتزوج بكريمة الشيخ الوطاس كما مر فولد له بكره سيدي علي سيدي حمود ثم ولد له سيدي عبد القادر ثم ولد له سيدي عبد الرحمان ثم ولد لسيدي حمود سيدي علي معاد ونشأت من صلب سيدي احمد معاد أربع فرق وهم المعبر عنهم بالمواعدة اولاد سيدي حمود وأولاد سيدي علي معاد وأولاد سيدي عبد الرحمان وأولاد سيدي عبد القادر وحينئذ فنسب المواردة في صميم العرب من قريش من بني هاشم، ولما لهذه العائلة الجليلة من المجد الباذخ بسبب اقبال أفرادها على مناهل العلم واقتناء جواهره والانهماك في العبادة والمجاهدة في ارشاد الأمة تشبث العموم بأذيالهم والتفوا حولهم فأصبحت زاوية المواعدة كعبة القصاد ومنهل الوارد وأقبل أهالي الجريد عليهم يستفيدون من علومهم وارشاداتهم زيادة عمن يرد من الأصقاع البعيدة فيستقر بمدارسهم التي أنشؤوها لعابري السبيل والمنقطعين لتعلم العلم وحفظ القرآن فيقومون بضرورياتهم المعاشية ومن المدارس التي أنشأت المدرسة التي حول ضريح جدهم سيدي احمد معاد فأنشأت لهذه الغاية سنة 1017 واحدثوا بها بيوتا لسكنى المنقطعين لدراسة العلم وحفظ القرآن ومكتبا لتعليم الصبيان ومسجدا للصلاة ومطبخا للطعام وبيتا لخزن مؤونه الطلبة المنقطعين بها وأوقفوا على ذلك عقارات يصرف متحصلها في كل سنة في القيام بمصالح المدرسة ومن تصدى لتدريس العلم يشتغل بذلك مجانا وبعضهم له اعانات كافية بحسب الزمان والمكان ومن المدارس التي أنشأت لذلك المدرسة التي أحدثت حول ضريح سيدي طاهر بن احمد معاد الأصغر سنة 1138 وأنشؤوا بها بيوتا لسكنى المنقطعين للتعلم ومسجدا للصلاة ومطبخا لطعام الطلبة وبيتا لخزن قوتهم ومؤدبا لتعليم الصبيان ومدرسا لتعليم العلم وأوقفوا لأجل القيام بذلك عقارات يصرف متحصلها في القيام بذلك ومن المدارس التي أنشأت لهذه الغاية المدرسة التي أنشأها القطب المنير والبدر الشهير عمدة السالكين وقدوة الزاهدين الشيخ سيدي ابراهيم خريف وهو أحد أجداد المؤلف من ذرية سيدي احمد معاد حول ضريح جده سيدي علي معاد بن حمود بن احمد معاد أحدثها سنة 1218 هـ وجعل بها بيوتا لسكنى المنقطعين لتعلم العلم وقراءة القرآن وأحدث بها مسجدا للصلاة وأوقف عليها سيدي ابراهيم خريف عقارات للقيام بشؤونها ثم بعده وسع نطاقها ابنه سيدي محمد التابعي فألحق بها محلا لايواء المرضى والقيام بضرورياتهم ثم أحدث محلا آخر لنزول الضيوف وابناء السبيل ويقوم بمؤونتهم مدة اقامتهم ورتب مدرسا بمرتب سنوي يدرس العلم صباحا ومساء وجعل موائد للطلبة في كل شهر زيادة عما كان رتبه والده قبله يجتمعون عليها استنهاضا لهممهم واعانة لهم على مقاصدهم ومرتبات تعطى لهم دراهم عينا يتقاضونها مشاهرة اعانة لهم على تعلم العلم زيادة على موائد واعانات مالية تعطى لهم في المواسم وأوقف على ذلك أوقافا طائلة فأصبحت المدارس طافحة بالمعلمين والمتعلمين زاهية زاهرة بالعلوم على اختلاف انواعها ومشاربها ثم لما تاقت نفوس ابناء الشيخ سيدي احمد معاد الى التوسع في الفنون العلمية أخذوا يرتحلون الى الخارج لاقتناء العلوم والتبحر فيها فارتحل منهم عدد وافر ورجعوا ممتلئة حقائبهم بالعلوم العقلية والنقلية وظهرت في هذه القبيلة المعادية أفراد تفتخر بهم البلاد فمن المرتحلين سيدي طاهر بن احمد معاد الأصغر ويعرف بطاهر ذهب ارتحل لطلب العلم في حدود الستين وألف لمدينة القيروان وأقام فيها مدة صحبة اعلاما وصلحاء اخذ عنهم علوما غزيرة ومعارف كثيرة ثم رجع لبلده نفطة وعكف على تعليم العلم وانتصب للافادة ثم لازم العبادة والزهد في زخارف الدنيا وسلك طريق القوم وهرع الناس اليه من كل حدب ينسلون وكان عموم سكان الجريد يفتخرون بالانتماء اليه ويتزاحمون بالاقبال عليه ولم يزل كعبة المسترشدين وقدوة المهتدين الى ان توفي رحمه

الله سنة 1089 .

ومن ارتحل لطلب العلم العلامة الأورع سيدي ابو بكر عرف الشرع ارتحل لتونس وأقام بالمدرسة الشماعية ومكث بها نحوا من عشر سنين وصحب علماء اعلاما وأخذ عنهم الحظ الأوفر من العلوم الدينية ووسائلها ورجع لبلدهما نفطة فانتصب لافادة العموم وكان رحمه الله من العلماء الاعلام والصلحاء الذين نفعوا الأنام أفنى عمره المبارك في تدريس العلم وافادة الأمة والارشاد الى مناهج النجاح ثم عكف على العبادة الى أن توفي رحمه الله سنة 1124 .

ومن المترحلين حفيده العلامة الأوحد سيدي بلقاسم بن عمر بن أبي بكر وأخوه سيدي محمد بن عمر ارتحلا لمدينة تونس وأقاما بالمدرسة التوفيقية وشرعا في اقتناء العلوم العقلية والنقلية ولازما مشيختها الاعلام سنين عديدة ثم رجعا لبدهما متزودين بالحظ الأوفر من العلوم على اختلاف مشاربها فانتصبا للتدريس بمدرسة جدهم سيدي احمد معاد وهرع اليهما الطلاب من الأنحاء البعيدة يرتعون في رياضها ويكرعون من حياضها ولم يزالا مشمرين عن ساق الجد في نشر العلم الى ان انتقلا الى الرفيق الأعلى رحمهما الله .

ومن المرتحلين العلامة النحوي والناقد البصير سيدي احمد زروق ارتحل لتونس في سنة 1170 وأقام بالمدرسة العنقية ولازم أيمتها الاعلام كالشيخ صالح الكواش ومن عاصره واجتمع بالشيخ محمد بناني فحشي الشيخ عبد الباقي على المختصر وأخذ عنه وعن غيره طوائف من اطود الأمة وحصل على الحظ الأوفر من العلوم العقلية والنقلية ورجع لبلده نفطة فانتصب للتدريس ونشر الدر النفيس وانتفعت به طوائف من الأهالي والوافدين على البلاد الى أن انتقل رحمه الله الى رحمة الله سنة 1190 .

ومن المرتحلين العالم الفقيه الأبرع والخير النزيه الأورع سيدي ابراهيم بن ساعي من احفاد الشيخ سيدي احمد معاد ارتحل لمحروسة تونس سنة 1172 ثم رجع لبلده نفطة وأخذ يبث العلم بجميع انواعه من معقول ومنقول وله تضلع واسع في علم الحديث رواية ودراية وكان له خط جميل جدا على نحو الخط الأندلسي وكان ذلك من الدواعي التي دعته الى استنساخ الكتب العلمية على اختلاف فنونها فقد جمع من الكتب التي بخط يده خزانة ذات بال من كتب الحديث والتفسير والفقه - والمصطلح والأصول واللغة والطب والبلاغة والمنطق والتوقيت وغير ذلك ما يزيد على المائتي سفر وأوقف جميع ذلك على من يزاول العلم من ذرية سيدي احمد معاد خلفا عن سلفا وتوفي رحمه الله سنة 1205 خمس ومائتين وألف .

ومن المرتحلين لطلب العلم العلامة الاعدل سيدي أبو بكر بن عمار ارتحل لبلد قفصة وتفقه بها وأخذ عن علماء أجلة من علمائها ثم رجع لبلده نفطة وتولى خطة الافتاء بهاوسار سيرة مرضية .

ومن المرتحلين ابنه الشيخ محمد بن أبي بكر ارتحل لبلد قفصة وأقام بها مدة طويلة لتعلم العلم فحصل على حظ عظيم من العلوم العقلية والنقلية وتقلد خطة الفتيا ببلده مدة طويلة وتوفي رحمه الله سنة 1215 وترك ذكرا جميلا .

ومن المرتحلين الشيخ محمد السعدي بن محمد بن ابي بكر ارتحل لقفصة عقب وفاة والده المذكور وتفقه بها وعكف على اقتطاف ازهارها ثم رجع لبله نفطة وشرع في نشر العلوم وتقلد خطة الفتيا بها وتوفي رحمه الله في حدود الستين ومائتين والف .

ومن المرتحلين العالم الأورع سيدي احمد الصالح بن عمر ارتحل لبلد قفصة وعكف على اقتناء العلوم ولازم أيمتها الاعلام وهجر في تحصيلها لذيذ المنام حتى حصل على الحظ الأوفر من نفائس العلوم ثم رجع لبلده نفطة وتقلد خطة القضاء وسار سيرة مرضيةوتوفي سنة 1251 .

ومن المرتحلين العلامة المتفنن الشيخ محمد المبارك بن احمد الصالح ارتحل لبلد قفصة وتفقه بها ثم بلد مطماطة ومنها الى تونس لاستكمال معلوماته فلازم دروس الشيخ محمد النيفر الكبير والشيخ البنّى والشيخ حمده ابن عشور والشيخ بن ملوكه وغيرهم فامتلأ وطابه ورجع لبلده نفطة فانتصب لتدريس الفنون العلمية وتحرير المسائل الفقهية وأصولها ثم تقلد خطة رئاسة الفتوى وبقي نحو أربعين سنة الى أن توفي سنة 1304 رحمه الله .

ومن المرتحلين الفقيه النبيه الشيخ احمد الصالح بن ابراهيم بن بلقاسم ارتحل لبلد قفصة ومكث بها مدة لاقتناء العلوم العقلية والنقلية ورجع لبلده نفطة وشرع في التدريس بجامع جده سيدي احمد معاد الى أن توفي رحمه الله سنة 1286 .

ومن المرتحلين الشيخ ابراهيم بن عمر بن ابي بكر ارتحل لبلد قفصة ومكث بها زمنا لتعلم العلوم الدينية ووسائلها حتى حصل على الحظ الأوفر ولما رجع لبلده شرع في التدريس بها الى أن قلد خطة القضاء وسار سيرة مرضية وكان رحمه الله مع القيام بحقوق الله تعالى وحقوق العباد مما نيطه بعهدته محافظا على العبادة والاجتهاد في أدابها كما يجب فقد ثبت ثبوتا قطعيا انه لم يتخلف عن صلاة الجماعة نحو أربعين سنة وكان مواظبا على صلاة التراويح كل ليلة بعد صلاة العشاء الأخيرة فيصلي عشر ركعات ونصف فكان يختم القرآن في كل أربع وعشرين ليلة ثم يستأنف ذلك وجرى على هذه السيرة نيفا وأربعين سنة بحيث لم يترك ما التزم به الى أن توفي رحمه الله في غرة جمادى الأولى سنة 1289 .

ومن المرتحلين الشيخ سيدي محمد الناصر بن الشيخ سيدي محمد التابعي ارتحل لقفصة وزاول بها التعلم مدة ومنها لتونس وعكف على التعلم باجتهاد وجد وصرف مهجته في تحصيله فلازم مشيختها الاعلام وهجر لاقتناء العلم لذيذ المنام حتى تضلع في الأصول الفقهية والعقائد الدينية وقد لازم العلماء الجلّد وشموس الدين وبدور الملة كالشيخ سيدي محمد بن ملوكة والشيخ محمد الطاهر بن عاشور والشيخ محمد الشاهد وغيرهم من اطراد الأمة ورجع لبلده سنة 1272 فانتصب للتدريس في مدرسة جده وأقبل الجمهور على دروسه والارتشاف من عذب كؤوسه وله اعتناء كبير بصغار المتعلمين زيادة على دروسه العليا والوسطى وكان يحثهم على حفظ المتون وعرضها عليه بعد كتبها وتصحيحها ثم يقرئهم ما حفظوه على ظاهر المتن ليدربهم على القراءة حتى يكون لهم داع من أنفسهم ولم يزل على حالته تلك الى ان توفي رحمه الله سنة 1282 .

التعريف بسيرة الشيخ سيدي محمد التابعي ومآثره الجليلة وكان والده الشيخ سيدي محمد التابعي رحمه الله له اهتمام عظيم وحرس شديد على بث العلم والسعي في نشر بذوره فكان يجهز بنيه وغيرهم ويزودهم بما يحتاجونه من النفقات والكتب حينئذ كانت للكتب اثمان باهظة وشأن عظيم من جهة قلتها ويحث من يرى فيه أهلية ويرغبهم على الارتحال لطلب العلم ويمدهم بالاعانات زيادة عما احدثه في أوقافه من المرتبات لمن يدرس العلم بمدرسته لأن الشيخ سيدي محمد التابعي كان من الفضلاء الأخيار والأتقياء الأبرار وكان دأبه رحمه الله تأسيس المعاهد العلمية والمآثر المستدامة النفع لعموم الأمة خالصة لوجه الله تعالى .

وكان العلامة التقي والدراكة النقي سيدي محمد المداني بن عزوز يعبر عنه بخاتمة العباد وبقية الزهاد لأنه كان يلازم مجالسة الوعظية الطافحة بالعلماء والصلحاء الذين يردون عليه لحل ما يعرض من المشكلات **ونقل عن الشيخ المداني** انه كثيرا ما كان يردد قوله أن الشيخ سيدي محمد التابعي منطبقة عليه قضية الامام الشاذلي رضي الله عنه وهي قوله مدار الأعمال على أربع بعد أربع **وهي المحبة لله والرضى بقضاء الله والزهد في الدنيا والتوكل على الله ، والقيام بفرائض الله والاجتناب لمحارم الله والصمت عما لا يعني والورع عن كل شيء يلهي ،** انتهى كلام الشيخ المدني .

ومَن علم أحوال الشيخ سيدي محمد التابعي واستقري سيرته وجدها منطبقة على هذه القضية انطباق السوار على المعصم فاما المحبة لله فقد كان يحب العلم والعلماء ويعشق مجالسهم وكان له مجلس خاص لا يخرج فيه عن دائرة الأبحاث العلمية والمواعظ الدينية وكان يحب اليتامى ويقوم بضرورياتهم الى أن يأنسوا رشدهم فيحصل اغلبهم على حفظ القرآن وما تيسر من العلم ويؤثرهم على أولاده في مؤونتهم وكسوتهم رضي الله عنه ، وأما الرضى بالقضاء ، فكان رحمه الله لا تستفزه المصائب ولا تؤثر فيه النوائب منقادا لأحكام الله راضيا بما سبق به قضاءه فقد كان في بحر سنة 1266 حدث في بلد نفطة وبأجار فمات له في ظرف ثلاثة اربعة أولاد بعضهم متزوج وبعضهم بلغ الحلم ولم يُرَ عليه أثر الحزن والأسف بسبب هذه المصيبة العظمى بل لم تدمع له عين واستمر على عبادته والقيام بوظائفه وأوراده المعهودة حتى وان الذي لا يعلم ذلك لا يعلم دليلا يستدل به على مصيبته وكان دأبه ذلك فيما يعرض له من النقص في الأموال والأنفس والثمرات لا يتزحزح له حال .

حدث العارف بالله سيدي محمد التارزي بن عزوز انه لما توفي العلامة الفقيه سيدي محمد الناصر بن الأستاذ سيدي محمد التابعي وذلك سنة 1282 قال أتيته مع وفد عظيم من العلماء للتعزية وأخذ البعض في تسليته على ما أصابه من ولده الوحيد اذ كان رحمه الله من فحول العلماء الأعلام وممن صرف أنفس عمره المبارك في التعلم والتعليم حتى تجاوزت تلامذته المائتين فلما استوعب كلام أولئك الأعلام ووعى مرماه ولسانه في اثناء ذلك لم يفتر عن ذكر الله أجاب رضي الله عنه ان هذه الحادثة لا تعد مصيبة في نظري حتى أطلب الثواب عليها اذ لم يكن عندي أدنى قصد في ايجاده ولا في نشأته ولا في انتقاله من دار الفناء الى دار البقاء وغاية الأمر أن الله الذي خلقه وقرر له زمنا يعيش فيه وعند انقضائه يقبضه اليه فأي وجه للتداخل بين الخالق والمخلوق حتى أطلب الثواب على قبض عبده لمجرد كوني واسطة في ايجاده ومع ذلك فإني موسوط مثله تحت تصرف أحكام الرب جل وعلى ، قال فعلمت ان مقام الشيخ رحمه الله مقام الصديقين وهو مقام التجريد الذي تجرد صاحبه للعبودية المحضة بحيث لا يعمل للحصول على ثواب ولا لدفع ما يعرض من العقاب .

وأما الزهد في الدنيا فحدث عن البحر ولا حرج فقد كان بعض علماء عصره يدعوه سلطان الزاهدين وأمام العابدين وقد بلغ من زهده رضي الله عنه انه كان ينفق جميع ثماره وما يستنتجه من متحصل عقاراته على الطلبة المنقطعين لتعلم العلم وقراءة القرآن وعابري السبيل واليتامى والمساكين ويفترش الليف ويفطر على خبز النخالة ويلبس الصوف على لحمه واغلب الليالي ينتظر بعشاءه من يرد جنح الليل مع ان له ثروة عظمى اكتسبها بكد يمينه وعرق جبينه من خدمة الأرض وتهيأتها لغراسة النخيل وسقيه وتغييره وتدبير شؤونه وذلك في حال صبوته وقوة بدنه ولا تجده يحس عدد الدراهم أصلا بحيث انه لا يقبض ولا يدفع انما يتولى القبض والدفع المكلفون بشؤون الزاوية وغاية وجهته انه يسأل في بعض الأحيان هل اعددتم للزاوية ما يقوم بشؤونها ويحثهم على ذلك .

واما التوكل على الله فإنه كـان يصرف جميع اوقاته في العبـادة ولا يدع نفسا لغير ذلك فقد تـواتر في البلاد وتحدث بـه الحاضر والبادي ان الامير احمد باشا الحسيني لما ظهر لـه اعفاء نخيل الزوايا من الأداء الموظف عليه واصـدر اوامره لكل واحد من أرباب الزوايا بـاعفاء عدد ما عنده من النخيل ولما عـرض ذلك على الشيخ رحمه الله انكره انكارا كليـا وامتنع من قبوله ورأى ان ذلك مناف للتـوكل اذ فيه اعتماد على غير الله ومشاركة في المعروف وربما تهتز النفس لهذا الامتياز مع مناباتـه للتواضع ووهب له جنانا من النخيل وكان لا يملك سواه وله أولاد فرده عليه وقال له ان بقاءه لتنفع به عائلتك افضل لي ولك .

وأما القيام بفرائض الله فكان يشار اليه بخاتمة العباد كما تقدمت الاشارة اليـه فإنه كان يصر على الصوم ويقوم جميع الليل ولا ينام الا بعد صلاة الضحى وبلغ الأمر كثرة السجود الى أن صار بركبتيه كلكتان ككلكلـة البعير ثم اعتزل عن الناس وترك مخالطتهم بالمرة وآخر الأمر انه خرج من بلاده فارا بنفسه ومكثف على هذه الحالة مدة طويلة ثم ظهر له الرجوع لتفقد معاهده العلمية وتأسيساته الخيرية **واما اجتناب محارم الله** فقد حدث ثقات تـلامذته الملازمين له في خلواته انهم لم يحفظـوا طول ملازمته له صغيرة من الصغائر فضلا عـن غيرها حتى انه كان يثق بكل محدث لما غلب على طبعه من عدم ارتكاب مـا يخالف الواقع رغما عما اتصف به من الذكاء وحدة الفكر الذي تـوصل به الى هذه الدرجة الراقية ولا تعرف في مجلسه غيبة ولا نميمة التين عمت بها البلوى .

وأما الصمت عما لا يعني فانه لا يخوض فيما سوى الارشاد لمريديه عنـد الاجتماع بهم والتحريض لهم عما تقوم به مصالحهم سواء دينية أو دنياوية وهم جادين فيها على وفق الأوامر الشرعية وكان لـه مجلس وعظ حافل بالعلماء والصلحاء يهرع اليه العلماء من كل جهة ينشر فيها من زواخر المواعظ وجواهر الحكم ما تنقاد له النفوس ويخضع له الحرون الشموس .

واما الورع فقد كان الفقهـاء المدرسون عند افهامهم تـلامذتهم وتطبيقهم للمعاني على الألفاظ يمثلـون للورع به رضي الله عنـه لأنه كان يترك الشبهات خوف الوقوع في المنهيات .

حكي عنه رضي الله عنه انه كان مسافرا في طريق الحج فدعاه بعض الولاة للضيافة مع بعض رفقائه فأجابه لزيارة المحل ولكن لما حضرت مائدة الطعام انقبع على الاكل وتقطب وجهه حتى قام على غير طائل خوفا من يقع في جوفه طعام ربما دخل من غير مجراه الطبيعي .

وقد سأل القلم بذكر فضـائل هذا الاستاذ بمناسبة ذكر المدارس العلميـة والمعاهد الخيرية التي أحدثها ابنـاء الشيخ سيدي احمد معاد ببلد نفطة ولو تصدى الكتاب لذكر مآثره الجليلة لم تعم بها المجلدات الضخمة ولد رحمه الله في سنة 1193 ثلاث وتسعين ومائة والف وتوفي ليلة الأحد رابع ربيع الثاني سنة 1284 ومن مآثـره الخيرية الاوقاف الطائلة التي أوقفها على مدرسته بكريـز من الوديان وسيأتي التعريف بها عند ذكر المرتحلين وقد حصل لهذه العائلة المعادية اعتبار عظيم في نظر العموم فكل من الراعي والرعية ينظرون اليها بعين ملؤها الاعتبار والاكبار حتى ان ملوك هذا القطر التونسي عنـد ورودهم على بلد نفطة أول ما يفتتحون به اعمالهم زيارة هذه العـائلة الجليلة والتبرك بأضرحة أصولهم وصارت هذه العائلة هي المرجع في انتخاب علمائها للوظائف الشرعية .

فمن المنتخبين لذلك من العائلة المعادية الفقيه الأبرع والتقي الأورع سيدي ابـو بكر الشرع فقد تقلد خطة الفتيا وقام بأعبائها احسن قيام الى أن توفي سنة 1124 رحمه الله .

ومن المنتخبين لذلك العلامة النزيه الحاج الابر سيدي عبد الله بن احمد بن سالم تقلد خطة الفتيا وسار سيرة مرضية الى ان توفي سنة 1126د.

ومن المنتخبين لذلك الفقيه النبيه سيدي ابو بكر بن عمار تقلد خطة الفتيا وقام باعبائها ونال حظوة عظيمة وشهرة كبيرة الى ان توفي سنة 1208 .

ومن المنتخبين لذلك سيدي محمـد بن أبي بكر بن عمار تقلد خطة الفتيـا وساعده الحظ في اجراء مانيط بعهـدته ونال من السعادة مـا تقربه عينه وتوفي سنة 1215 .

ومن المنتخبين لذلك الشيخ محمد السعدي بن محمد بن ابي بكر تقلد خطة الفتيا وقام بواجبها كما يجب ثم رحمه الله سنة 1269 .

ومن المنتخبين لذلك سيدي احمد الصالح بن عمر تقلد خطة القضاء بنفطة وسلك مسلك العدل في الاحكام الشرعية مع التقى والزهد في الدنيا توفي رحمه الله تعالى سنة 1201 .

ومن المنتخبين كذلك الشيخ محمد المبـارك بن احمد الصالح تقلد رئاسة الافتاء بنفطـة في خلال سنة 1262 وفي مدة ولايتـه كان محل الثقة ومرجع اهل الحل والعقد في تحرير المسائل الفقهية والاحكام الشرعية توفي رحمه الله سنة 1204 .

ومن المنتخبين لـذلك الشيخ ابراهيم بن عمر بن ابي بكر تقلد خطة القضاء بنفطة سنة 1281 وسار سيرة مرضية وكان عابدا ناسكا عفيفا كريم الاخلاق طيب الاعراق توفي سنة 1289 رحمه الله وترك ذكرا حسنا .

ومن المنتخبين لذلك الشيخ محمد العـروسي بن الشيخ سيدي محمد التـابعي تقلد خطة القضاء بنفطـة سنة 1289 وبقي مبـاشرا لها بحزم وعزم وقد قاوم عدة بدع وابطلها واعترضه في سبيل ذلك عقبات فقطعها مرحلة بعد اخرى الى ان فقد بصره فاستعفى سنة 1305 .

ومن المنتخبين لذلك الشيخ عبد الباقي بن محمد المبارك من احفاد الشيخ سيدي محمد التابعي تقلد خطة القضاء بتوزر سنة 1291 على عهد الشيخ ابراهيم بوعلاق ثم استعفى سنة 1299، ومنهم اي من المنتخبين لذلك الشيخ سيدي محمد الكبير التابعي قلد خطة القضاء بتوزر سنة 1302 وبادر للاستعفاء تورعا عنها وبرارا من خطرها.

ومن المنتخبين لذلك الشيخ بلقاسم بن عمر بن ابي بكر تقلد خطة القضاء بنفطة ثم انتقل لخطة الفتيا توفي رحمه الله سنة 1279 اما الذين عرضت عليهم الوظائف وامتنعوا عنها فلا يحصون كثرة ولو تتبعنا مآثر هذه العائلة المعادية وما حفظه لها التاريخ من المجد الراسخ والفخر الباذخ لضاق بنا المقام على احصائها ولكننا اقتصر ناعلى القدر اكتفاء بما هو معلوم واستغناء بالمشاهدة.

وأما عشيرة الشرفاء فإن اصل استيطانهم بنفطة ان سيدي سعيد ورد من ناحية المغرب الأوسط لبلد نفطة بقصد قراءة القرآن ودراسة العلم وهو من عنصر عربي اندمج بريقه بين قبائل بربرية مواطنهم حول بلاد الاغواط من عمال الجزائر يظعنون بخيامهم على عادة العرب وكان ورد سيدي سعيد في خلال سنة 1090 هـ فتصدى لتعلم العلوم الدينية ووسائلها حتى حصل منها على الحظ الأوفر ثم عكف على العبادة وانتصب للارشاد الى أن توفي سنة 1150 هـ وخلف عائلة نبيلة اشتغلت بتعلم العلم وسلكت طريقا مرضيا وورد الينا الشيخ سيدي ضيف الله من الزاب واشتغل بقراءة القرآن ثم تصدى لتعلم العلوم الدينية ووسائلها الى ان توفي رحمه الله سنة 1255 وخلف ذرية اشتغلوا بالعلم والتف حول عائلتي هذين السيدين عدة عائلات من قبيلتهم وغيرها وبذلك صارت مختلطة من عدة قبائل ورئاستهم في العائلتين المشار اليهما وبما لسلفهم من الرغبة في اقتناء العلوم أسسوا مدارس وأحدثوا بها بيوتا لسكنى المنقطعين لقراءة القرآن وتعلم العلم فأنشؤوا مدرسة حول ضريح سيدي سعيد كما أحدثوا مدرسة كذلك حول ضريح سيدي ضيف الله يقطنها المنقطعون لتعلم العلم وحفظ القرآن ونصبوا مدرسا للعلم وجعلوا اعانة كافية مع القيام بمؤونة الطلبة المقيمين بالمدرسة وأنشؤوا حول المدرسة جامعا لصلاة الجمعة والخمس ومكتبا لتعلم الصبيان.

كما ان الشيخ العارف بالله تعالى سيدي ابراهيم بن احمد الشريف احد افراد هذه العشيرة وعين أعيان فضلائها احدث مدرسة كذلك وجعل بها بيوتا لسكنى المنقطعين لقراءة القرآن وتعلم العلم ومكتبا لتعلم الصبيان ومطبخا لاطعام الطلبة وعابري السبيل على اختلاف طبقاتهم واحدث حولها مسجدا جامعا لصلاة الجمعة والخمس ورتب بها مدرسا يدرس العلم وأوقف على جميع ذلك عقارات يصرف متحصل ريعها في ذلك وكانت زاوية هذا الفاضل محطة رحال الواردين من جميع الانحاء على اختلاف طبقاتهم ولازالت عامرة بعناية ابنائه وقد احدث ابناؤه عدة زوايا بعدة انحاء.

فمن ذلك زاوية بقفصة احدثها الشيخ محمد العربي بن الشيخ سيدي ابراهيم بن احمد ومنها **الزاوية التي عمرها الشيخ محمد الازهر** بالقصور لأنه احدثها والده وتركت ثم تصدى لها ابنه المذكور وبالغ في تعميرها ومنها **الزوايا التي احدثها الشيخ الهاشمي بسوف** وتقرت وورقلة ولازالت هذه الزوايا محط الرحال ومحلات الرجاء والامال رحم الله السلف وبارك في الخلف توفي الشيخ سيدي ابراهيم بن احمد سنة 1290 وتوفي ابنه الشيخ الكبير سنة 1332 وتوفي ابنه الشيخ محمد العربي سنة 1334 وتوفي ابنه الشيخ محمد الازهر سنة 1339 وتوفي ابنه الشيخ الهاشمي سنة 1342 رحم الله الجميع.

واما عشيرة بني علي فانهم فرع من أهل بني علي المستوطنين بنواحي الزاب وعمل الجزائر ونسبهم يرجع لبني سليم احد القبائل العربية الذين وفدوا على افريقية في اواسط القرن الخامس وقد وردت هذه القبيلة على بلد نفطة بعد ان خربها الأتراك في حدود ستة عشرة والف هجرية وبقي اغلبها اطلالا دارسة وفي هذا الدور انفصل هذا الفريق من قبيلته ووفد على بلد نفطة ولما وجد سعة في المعيشة والاستيطان استقروا بها واتخذوها وطنا واندمجت فيهم عدة فرق اخرى مثل اولاد عزوز الذين ورد جدهم عزوز على بلد نفطة في خلال سنة 1060.

وحكى بعض نسابتهم ان جدهم الأعلى ورد على مدينة فاس من بلاد الاندلس على عهد امير المسلمين يوسف بن تاشفين وتأثل لعائلته مجد بها لأنهم استخدموا في جند المرابطين ثم في دولة الموحدين ثم في دولة بني مرين واخيرا اوقع لضروز هذا نفور من الاشراف السعديين لاتهامهم له بالتشيع الى مخالفيهم فبارح بلاد المغرب واستقر بعائلته ببلد نفطة ويقال انه استصحب معه ثروة عظمى ولما استقر قراره رأى من حسن الرأي ان يقتني أجنة من النخيل لتكون له ولعائلته عدة في مستقبل الايام فاستلفت الانظار وتشوقت لهم نفوس الولاة وأضمروا في نفوسهم استنزاف ثروته تارة بالاستقراض وتارة بضرائب مبنية على اسباب واهية فلما أحس بالشر وكان رجلا محنكا سافر الى نفزاوة واشترى عددا من العبيد السودانيين ذكورا واناثا واظهر انه يريد ان يستخدمهم في الأجنة والقصد الوحيد الحقيقي استعانة بهم في الدفاع عمن يقصده بسوء ويكونون ردأ له يدفعون عنه من يريد سلب ثروته حيث لا عصبية له فتناسلوا وامتزجوا بمواليهم واستعانوا بهم في خدمة أجنتهم التي اقتنوها وتكاثر عدد اولاد عزوز مع السودانيين وصار لهم النفوذ الأعظم على عموم العشيرة بل عموم البلاد واصبح العنصر الاغلب في بني علي هم اولاد عزوز مع ان بني علي مشملة على الجبابرة الذين هم بقية من البربر والجبابرة الذين اصل جدهم من ماجر وفد على بلد نفطة في

حدود سنة 1020 هـ واستقر بها وخلف اولادا تناسلوا وكثر عددهم واولاد كنوز اصلهم من اولاد ابي عمران المستوطنين بنواحي قفصة والحمارنة واصلهم من قبائل البربر وفدوا بعد خراب البلاد واندمج معهم فريق الخوالد الذين وردوا من بلد تقرير في حدود سنة 1172 وهم من قبائل بربرية فبنوا على مختلطة من عرب وبربر وسودانيين وهم من قبائل أخر امتزجوا بهم في ادوار مختلفة وكانت مواطنهم حوالي سيدي مرزوق البعيد ممتدة الى سيدي مرزوق القريب شرقا ثم يمتد نحو ميلين ومن الشمال والجنوب نحو ميل داخلة في ذلك كثير من المساحة التي شغلت بغراسة النخيل وغيره من الاشجار وصارت اجنة اندمجت في غابة البلد ثم انتقلوا الى مواطنهم الحالية في حدود سنة 1235 هـ وشيئا فشيئا حتى لم يبق بمواطنهم الاهلية أحد وفي خلال سنة 1257 هـ ورد على بلد نفطة من بلاد الزاب مهاجرا القدوة المرشد صفوة البررة وخلاصة الصالحين الخيرة صاحب المآثر العديدة والاخلاق الحميدة الشيخ سيدي مصطفى ابن عزوز البرجي فاستوطن مع عائلته وعدد كبير من أتباعه وأشياعه فأقبلت عليه البلاد وهرعت اليه العباد يلتمسون بركته ويستمدون فيوضاته ثم أحدث زاويته المشهورة المشتملة على عدد كبير من المساكن لايواء الواردين عليه من كل صقع وانشاء مطابخ لاطعام كل من يرد من ابناء السبيل وغيرهم واحدث بها مدرسته الحافلة وانشأ بها بيوتا لسكنى المنقطعين لقراءة القرآن وتعلم العلم وحشر لها العلماء الاعلام من كل جهة ليدرسوا بها فنون العلم على اختلاف مشاربها فكان من المدرسين في مدرسة الشيخ المذكور العلامة الأبرع والدراكة الأورع فجر العلماء الاعلام ابن عمه الشيخ سيدي محمد المداني بن عزوز وكان رحمه الله تعالى من أكابر المحدثين والعلماء العاملين تجرد لتدريس العلوم على اختلاف انواعها من حديث رواية ودراية وتفسير وفقه وأصول ونحو وغير ذلك وله طريق عجيبة في أسلوب الالقاء سهلت لتلامذته طرق التحصيل ومنهم العلامة الأوحد الفقيه النزيه الأرشد الشيخ سيدي ابو العباس أخ الشيخ سيدي مصطفى المذكور وكان له تضلع في علم الحديث وسنده ومنهم العالم العامل الشيخ سيدي محمد الصالح بن حمادي ومنهم الشيخ محمد بن عزوز وجلب لها من بلد قفصة العالم المتفنن الشيخ احمد السنوسي بن عبد الرحمان القفصي ومن توزر العلامة الأديب الحاوي من كل فن أوفر نصيب الشيخ ابراهيم بوعلاق التوزري تصدر كل من هؤلاء لتدريس العلوم من عقلية ونقلية ونشروا من الدرر والجواهر السنية فانتفعت بهم البلاد وانتشر عبيرهم في كل ناد رحمهم الله وقدس أرواحهم وكثير من المدرسين غير هؤلاء من الفضلاء الأجلة علماء الدين وشموس الملة احتفلت بهم هذه المدرسة وطفحت بالعلم والعلماء فصارت روضة يانعة قطوفها دانية يقتطف من ثمارها ويتنعم من أزهارها وتخرجت من بين عرصاتها أئمة نفعوا بعلومهم افراد الأمة قدس الله أرواحهم وكان للشيخ سيدي مصطفى زوايا كثيرة في جهات افريقيا زيادة عما يقوم به من نفقات ولوازم عدد كبير من العائلات فعد بها الدهر وعضها بنابه على الدوام والاستمرار لأنه رحمه الله كان أجود من البحر وأسخى من الغمام وقد انتفعت به البلاد ماديا وأدبيا قدس الله روحه الزكية توفي رحمه الله تعالى آخر ليلة من ذي الحجة سنة 1282 ودفن بزاويته بنفطة ولازالت زاويته زاهية زاهرة بعناية نجله الشيخ سيدي محمد الازهري أدام الله عمارتها آمين . **واما خط الطين** فهم اربعة فرق احدها الرواجح ونسبهم يرجع الى دريد من بني هلال بن عامر من عنصر عربي ورد جدهم ابو الهادي على بلد نفطة مع اخيه سيدي سالم بن علي سنة 1075 هـ واستوطنوا بنفطة فأما سيدي سالم لم يعقب وأما أخوه ابو الهادي فانه ترك عائلة تناسلوا واندمج معهم بعض عائلات اخرى من البلاد الأصلية وثانيها الجبابنة ورد جدهم سيدي جبنون الشريف على بلد نفطة في حدود سنة 1080 هـ وهم ينتسبون الى العلويين فهم من عنصر عربي وثالثها المقدمون وهم من العرب أيضا لأن نسّابتهم يذكرون أن أصلهم يرجع الى بني هاشم من قريش ورد جدهم سيدي مقدم في أول القرن الحادي عشر واستقر بنفطة والرابعة التواتيون وهم من بقايا البلاد الأصلية وهؤلاء الفرق الأربعة تابعون في شؤونهم وأحكامهم العرفية الى بعض عشائر البلاد كما سيأتي وأما **مسغونة** فإنهم من فريق دريد الذي يرجع نسبهم الى العرب الهلاليين وكذا **الحشاشنة وأولاد سيدي الحمادي** ينتسبون الى العلويين من بني هاشم اما مسغونة فانها تابعة في شؤونها ببني علي وأما الحشاشنة وأولاد سيدي الحمادي فهم تابعون لعشيرة الشرفاء .

واما أولاد الشريف فإنهم ينتسبون الى قبيلة العمامرة احدى قبائل البربر وردوا على بلد نفطة في اول القرن العاشر وتلاحقت بهم عدة عائلات من قبيلتهم في أزمان مختلفة واستوطنوا هذه البلاد والتفوا حول الشيخ سيدي احمد معاد ليهتدوا بهديه ويسترشدوا بمعارفه وكانت لهم ثروة عظمى فاقتنوا أجنة النخيل الثمينة وقوي شأنهم وأوقفوا على زاوية سيدي احمد معاد أجنة لينفق ما يتحصل من أرياعها فيما يعود بالنفع العميم ولما خرب الدايات بلد نفطة في أول القرن الحادي عشر وتشتت شمل أهل البلاد استوطن أحفاد سيدي احمد معاد ناحية راس العين التي هي مواطنهم الآن واستوطن أولاد شريف حافة الوادي من ناحيته الشرقية ثم في أول القرن الثاني عشر افترقوا فرقتين فرقة بقيت بموطنها وفرقة استوطنت حول مزبلة بحافة الوادي من الجهة الغربية وهي مواطنهم الآن وكان لأولاد شريف التحام شديد مع المواعدة لما لأسلافهم من الاعتقاد في جدهم سيدي احمد معاد وأوقفوا عنه أوقافا طائلة ولكن انقلب ذلك الالتحام مقاطعة شديدة لسبب وذلك انها وقعت نفرة بين أولاد شريف وعلقمة أفضت الى صرخ البارود فتبرأ المواعدة تجنب هذه المعامع الناشئة عن التوحش والتهور ورأى اولاد شريف أن عدم اعانتهم لهم مقاطعة فحقدوا عليهم وعاملوهم معاملة سيئة أسأل الله أن يرشد الجميع الى ما فيه صلاحه .

وأما بنو زيد فانهم شعبة من بني يزيد وهم القبيلة التي تضعن بخيامها وموطنهم حول بلاد قابس وما يليها وهم بنو يزيد من زغبة بطن من بني هلال بن عامر من العرب الداخلين في اواسط القرن الخامس على عهد المعز بن باديس الصنهاجي وفدت شعبه منهم على بلد نفطة في أواسط القرن العاشر واستقر سلفهم بها وامتزجوا بشرذمة من ورغمّة من قبائل البربر وكانت مواطنهم حول ضريح سيدي بن طاهر الذي هو احد صلحائهم دخلته المساحة التي صارت أجنة التي منها جنة بستان شوكل وما يليه من جهة الغرب ولما أتى الخراب على البلاد في أول القرن الحادي عشر كما تقدم انتقلوا منها واستوطنوا بالناحية الشرقية من وادي البلد التي هي مواطنهم وكانت رئاستهم قديما في فريق اولاد ابو راس منهم ثم غيرهم الى ان استولى رئاستهم محمد بن طاهر فسار فيهم سيرة عنف وجفاء فتآمروا عليه وتعصبوا على قتله وقتلوه بالفعل في خبر يطول وذلك سنة 1239 هـ وبقي أمرهم في اضطراب الى ان انتقلت رئاستهم الى محمد بن نصر واستمرت في عقبه مدة طويلة وهو من الفريق الذي ينتمي الى ورغمّة وكان هذا الرجل ذا ثروة عظيمة وكان ميالا للمآثر الخيرية فأسس ابناءه مدرسة وأنشئوا حولها مسجدا جامعا تقام فيه الجمعة وقاموا بها من خاصة مالهم ، وأما **عشيرة علقمة** فهي مركبة من عدة عناصر منهم اهالي البلاد الأصلية وهم الحزامية أتباع الشيخ سيدي ابي علي ومنهم التناقد ومنهم السوالم وهي فرقة من بني يزيد انفصلت عنها والتحمت بعشيرة علقمة ومنهم اولاد ينوبل فريق من قبائل البربر ورد سلفهم في أواخر القرن الثاني عشر ومنهم أولاد مناع وهم عدة عائلات من دريد ومن غير هؤلاء والعنصر الغالب في هذه العشيرة فريق الزعبيين وهم من عنصر عربي وضبطه ابن خلدون بالعين المهملة ونسبهم في ذياب من ربيعة من زعب الاكبر ابن جروفن مالك بن خفاف بن امرء القيس بن بهثة بن سليم فهم يجتمعون مع المحاميد والنوائل في ذياب من ربيعه حسبما حرره ولي الدين بن خلدون والظاهر ان فريق الزعابة الذين اندمجوا في قبائل الفراشيش من هذه القبيلة وقد وفد سلف الزعبيين على بلد نفطة في اوائل القرن العاشر وسرعان ما نمى عدد ذريته حتى عظم صيتهم وقوي شأنهم واتسعت ثروتهم وزاحموا أهالي البلاد فزحزحوهم عن مراكزهم وبما احرزوه من الثروة وقوة العصبية صار النفوذ والرئاسة لهم وبما تقرر تعلم ان كلمة علقمة وان كانت لفظة عربية الا أن جميع العناصر تتركب منها هذه العشيرة لم يطلق عليها هذا الاسم اذ العلقم هو الحنظل وكل شيء مر وبلد بالمغرب هكذا ذكره القاموس ويسمى العرب أبنائهم علقمة وحنظلة تفاؤلا لأبنائهم بأن يكونوا أشداء على أعدائهم يصعب تناولهم والأقرب ان يكون هذا الاسم يطلق على الموطن الذي استوطنوه وهي البلد الذي أشار اليه صاحب القاموس بأنه بلد بالمغرب والله أعلم واليه الأمر من قبل ومن بعد.

وأما عشيرة الزبدة فهي قسم من الزبدة الذين استوطنوا بلد توزر وهم ينتسبون الى مذحج من قبائل عرب اليمن الذين دخلوا مع بني هلال وبني سليم وقد استوطنوا بلاد الجريد في حدود سنة 1075 هـ وافترقت عشيرة الزبدة فرقتين فرقة استقرت بنفطة وفرقة استوطنت توزر وهي اغلبهم واندمجت في الفرقتين عائلات أخرى وردت من نفزاوة وغيرها من قبائل البربر وكان لأهل هذه العشيرة نفوس أبية وهمة عليه ونخوة عربية شأنهم التشوق لاكتساب المجد والسعي في تحصيل وسائل الحمد وكان لأفرادهم ولوع باقتناء العلوم على اختلاف أنواعها فمنهم العلامة الفضال لحائز حلية السبق في مضمار الكمال صاحبنا الشيخ يوسف ابن عون كان عالما متفننا في العلوم الدينية والأدبية والرياضية وكان من شعراء هذا القطر الافريقي حسن المحاضرة جيد الحفظ وله تآليف عديدة ورسائل مفيدة وله منظومات في مسائل نحوية وفقهية ومنطقية تقلد خطة القضاء بتوزر عقب استعفاء الشيخ محمد الكبير التابعي وذلك سنة 1302 هـ فشمر على ساعد الجد في تنقيح النوازل القضائية وضبط المسائل الشرعية وتطبيق الاحكام الرعية فهو سراج منيرا حيبي زمان سحنون وابن بشير وقد اقتحم في سيره عقبات كئود اعترضته في سبيله ولم يزل يذلل صعابها ويفتح أبوابها وهو مع ذلك لا يفتر عن المطالعة ولا يحجم عن المراجعة ولا يدع حظه من تدريس العلوم ولا هو ملتزم به من انتساخ الكتب العلمية بخط يده ولازال على هذه الحالة المرضية الى أن عرض له مرض اودى به الى رمسه وكانت ولادته سنة 1256 ووفاته سنة 1329 رحمه الله وقدس روحه الزكية اخذ علم الحديث عن الشيخ محمد المداني بن عزوز ولازم مجالسه العلمية مدة اقامته بنفطة وأخذ عنه الفقه والتوحيد والنحو وعن شيخنا الابر سيدي محمد النوري بن بلقاسم احد افاضل عشيرة أولاد شريف وكان رحمه الله تعالى عالما نبيها ومتواضعا نزيها وقد ارتحل الى تونس وأخذ العلم عن علمائها الأعلام وممن أخذ عنه التجويد الشيخ محمد البشير التواتي وممن أخذ عنه علم الأصول والبلاغة والمنطق شيخ الجماعة وشيخنا سيدي سالم بوحاجب وممن أخذ عنه الفقه الشيخ علي العفيف والشيخ صالح النيفر وللشيخ يوسف المذكور شعر جيد وقصائد رنانة سارت بحديثها الركبان فمن شعره قدس الله روحه الزكية ما خاطب به العبد الفقير وأنا بمحروسة تونس أزاول العلوم بالكلية الزيتونية عن مشائخها الاعلام عندما وقف على قصيدة أدرجت بالرائد التونسي أنشدتها عند ختم المطول لسعد الدين التفتزاني على التلخيص عن الشيخ سالم بوحاجب وذلك سنة 1302 فخاطبني بمكتوب افتتحه بأبيات من بحر الطويل وهذا نصها :

سلام عليكم يا أهيل ذوي السعد	يفوق عريف المسك والعود والند
لقد حزتم فخرا بنسبة جدكم	فحدث ولا تسأل عن اليم والجود
ورثتم عن الأسلاف كل فضيلة	وفاظله عن والد وهو عن جد

كمثل الـــذي تـــروي السيـول عـن الحيــا	عـن المزن عن بحـــر خضم ومــزبــد
لقــد حــدث النعمان عـن ورد عـــرفكم	عن الـــزهـــر الأشمّ المفتق والـــرنــد
فحبكم يـــــا آل بيت محمــــــد	أمــــان ولـــلايمان ربط بمشتـــد
ولكن يحق الفخـــر عـن وصف مـن غـــدا	سليـــــلا لمن يسمـــوا الى ذروة السعـــد

أعني بذلك جناب الزبـرقان اللامع انسان عين الكمال الجامع النحرير الأجمل النادرة المفرد المتفنن الأكمل الشـاب الذي ليست له صبوة المنزه عن الجفوة والهفوة الشاعر المصقع الأورع التابوت الانفع الأجمع النشأة الزكية والبهجة المرضية سليل الأخيار ونجل الصالحين الأبرار ذي الأخلاق الحميـدة التي تعجز الحاصر والمكيف أبي اسحاق الشيخ سيـدي ابراهيم خريف بن الشيخ المنعم سيـدي محمد الكبير بن الشيخ المقدس سيـدي محمد التابعي نجل الولي الصـالح سيدي ابراهيم خـريف انمى الله بركتهم وحرس مجادتهم امـا بعد فإن الحامل على تسطيره والباعث على زفره وتحريره السؤال عن الزكية أخلاقكم لازالت بلطائف المنن مشمـولة وبالرضى الأكبر من رب الأرباب موصولة هذا وقد بلغتنا قصيدة جـلالتكم الرائقة المتقنة البليغـة الفائقة المنشاة عنـد ختم مطول السعد الدالـة على كمال القابلية وتمام السعد فـافتتح القلب عند رؤيتها حبورا وقرت العين بذلك وملئت نورا وابتهلت الى الله بالدعاء لذلك العلم الأشهر القدوة النصوح العمدة الامام موضح المشكلات ومظهر دقائق المعضـلات شيخنا الصدر الأوحد ذي المفاخـر التي لا تحجد والجلالة وارث العلم لا عن كلاله معتمـد الناجب الشيخ سيدي سالم بوحاجب حرس الله مجده وأدام في أفق السيادة سعده ثم أقرأ سلامنا على ذلك الإمام وكافة السادات الأعلام وجملة الطلبة بالتمام لاسيما أهل ناديكم ومن يودكم ويصافيكم من ودودكم فقير ربه يوسف بن عون خادم العلم الشريف وأهله وكتب غرة ثاني الربيعين عام 1302 هـ وأجبته بقصيدة من بحر قصيدته ورويها فمنها قولي :

نسيم الصبـــــا عـــرف الحبيب لنـــا يهدي	وبـــرق بـــدا مـن نحـــوه للهـــدى يهدي
ألا ليت شعـــري يجمع الـــدهـــر بـــاللقـــا	وهل ســـاكن الســـوداء بـــاق على العهـــد
رعى اللـــه أيـــامـــا تقضت بجمع مـن	لـــه الهمـــة العليـــا على الحر والعبـــد
ومنفـق أنفــــاس لبـــــذل نفــائس	ويضحك مـن فـــرط السرور لـــدا الـــرفـــد
اذا رمـت علم النحـــو فهـــو خليلـــه	وأشرق في أفق البـــلاغـــة كـــالسعـــد
فيـــا عين علم الفقـــه يـــا بحـــر أصلـــه	ويـــا من لـــه رجعي اولي الحل والعقـــد
كتـــابكم قـــد جـــاءني وهـــو مـــادحي	خجلت كـــان المدح تـــوبيخـــه يبـــدي
وهل أنـــا إلا مـــوطي حـــذو نعـــالكم	وهل حبـــة الحصبـــاء تـــوزن بـــالطـــود

وهي طويلـة اقتصرت منها على هـذا المقدار لبيان بعض فضـائل هذا الـرجل رحمه الله ، **ومنهم الشيخ احمد بن عون** جد الشيخ يوسف المذكور وتقلد رتبة القفضاء بنفطـة ومكث بها مدة طويلة **ومنهم العلامة** الأبرع والتقـي الأورع الشيخ علي بن الحاج نصر تقلد خطـة القضاء بقفقصة مـدة بعد ان لازم التـدريس ببلدة نفطة وانتفعت به الناس انتفـاعا عظيما ثم استعفى من خطـة القضاء بقفصـة وعكف على تدريس العلم ، **ومنهم الشيخ** علي ساسي بن عبد الرحمان تقلد خطة القضاء بنفطة ثم انتقل الى ولاية عمل الجريد ونال حظوة عظيمة ووجاهة جسيمة وهو صـاحب القول الفصل بالمركـز السياسي وله نفـوذ قارب درجة الاستقـلال وسيأتي ذكر تصرفاتـه وقبله تقلد منهم رئاسـة عمل الجريد ابراهيم بن احمد بن عون الا انه أضر بالأهالي بواسطة بعض أفراد عائلته في استنزاف اموالهم وسيأتي ذكر بعض تصرفاته أيضا .

وأما عشيرة المصاعبة فنسبهم يرجع الى طرود وهم فريق بني قيس بن غيلان من عرب اليمن الداخلين الى افريقيا في أواسط القرن الخامس وردوا على بلـد نفطة في أزمـان مختلفة , وكـان ابتداء ورودهم في أوائل القـرن الحادي عشر والتأمت منهم هـذه العشيرة وقد استـوطن فيهم الشيخ البركة العـارف بالله تعـالى سيدي محمد التـارزي بن عزوز ورد من بلاد الـزاب سنة 1262 هــ بعد ان استوطن أخـوه الشيخ سيدي مصطفى بن عزوز بعشيرة بني علي وكان هذا الأستـاذ الجليل عالما تقيا ورعا نقيا صرف عمره المبارك في اقتناء العلـوم وبثها بين طبقات الأمة ثم عكف على العبادة والارشـاد وانتفعت بعلومه العباد وازدانت بأفـراد عائلته البلاد ثم انتقل بأغلب عـائلته الطاهرة الى الأقطـار الحجازية وتوفي رحمه اللـه بالمدينة المنورة على ساكنها افضل الصلاة وأزكى التسليم وكانت وفـاته رضي الله عنه سنة 1310 ودفن بالبقيع وخلف ذكرا جميلا وثناء عطـرا وكان شاعرا مطبـوعا وأديبا ماهـرا نظم قصائد زمانه في مـواضيع كثيرة معظمها في تربية النفس وتهذيب الأخـلاق وله عدة رسائل في هذا الشأن .

وأما عشيرة الزاوية فإن جدهم سيـدي حمد بن الحاج ورد في أواخر القرن الحادي عشر وعكف على خدمة ضريـح القطب الأشهر سيدي أبي علي قدس الله روحه وتوارثها بنوه من بعده خلفا عن سلف وفي سنة 1164 هـ لما ورد علي باشا أمير البلاد التونسية وابنه سليمان بجيشهما

الجرار لتأديب فريق اللهامشة الذين عاثوا في الأرض فسادا قتلا وسلبا ونهبا حتى بلغ بهم الحال الى انهم أغاروا على الركب الحجازي الوارد من المغرب الأقصى مارا على بلدان الجريد وبه من الحجاج عدد من العلماء والصلحاء وفيهم الشيخ التاودي شارح تحفة الحكام وغيره من الفضلاء الأعلام فنهبوهم وشتتوا شملهم وبلغ الأمر الى الأمير علي باشا المذكور فتخابر مع والي الجزائر في هذا الشأن فرخص له في تأديبهم وأجمع على ذلك ومر ببلد نفطة بقصد اللحوق لأنهم هربوا الى بلاد سوف عندما بلغهم لحوق الأمير المذكور بهم فأدركهم واخذهم احذ عزيز مقتدر وشتت شملهم ومزقهم كل ممزق وقد أشار الى هذه الواقعة الأديب البارع ابو الحسن علي الغراب شاعر الأمير المذكور في قصيدته التي امتدحه بها وضمن فيها بعض الوقائع التأديبية مثل هذه الواقعة وواقعة الهمامة الذين أفسدوا السابلة وأدركهم في محل يقال له النقب ومطلعها :

يحفني بشرح الحب درس يقرر ... عليه حواشي السقم مني تحرر

وللنار من نار الفؤاد استعارة ... دموعي من ترشيحها تتحرر

عن الشوق من دمعي وسقمي مظهرا ... علي ولكن فاعل الشوق مضمر

وكم رمت صدقا من تصور سلوة ... ويكذب في التصديق ذاك التصور

وصبري منسوخ الرسوخ بناسخ ... لها من سواد اللحظ وهو موخر

وسري ونومي من كراهة صده ... مباح ومندوب ووصلي يحضر

وجسمي من شوق لمنضود ثغره ... غدا عرضا لما بدا وهو جوهر

بقصد صحاح الجوهر منه محكما ... عباب غرامي فيه مازال يزخر

وما لمد يدُ الدمع قصر اذا جرى ... وان مَد يدُ البحر لا شك يقصر

لانسانَ عيني مرسلات مدامع ... لها نبا فيمن ثناياه جوهر

من رمت افهام الهوى عن عواذلي ... فكشافه للمبهمات مفسر

ولولا سنا تلك الثنايا لما اهتدى ... غرام بقلبي وهو فيك محير

أقول اذا شاهدت ذاك تولها ... أيا من يرى درا على الدر ينثر

غزال نقاد الأسد طوعا للحظه ... على انه من قائد النوم ينفر

فلو لم يكن في طرفه السحر ما غدت ... لدعوته كل القلوب تسخر

ولو ساحر يدعوا باسماء لحظة ... لا غناءه عن اسم به كان يسحر

ومهما بدا محراب حاجب طرفه ... يقل أزهد العبّاد الله أكبر

فدت بحواشي خده لام كاتب ... تحيط بوجه من سنا البدر أنور

فقير من السلوان والوصل معدم ... غني من الأشواق والصد موسر

لئن راح يبدي لي مخاوف صده ... وقالي من قلب على الصد يقدر

فلي بمن استعلى الأنام حماية ... وممن بعلي يحتمي ليس يحرر

مليك الورى الصدر الذي ذكر مجده ... له بين اشراف الملوك تصور

هو الملك الشهم الهمام الذي قضى ... له السعد في تيسير ما يتعسر

فلو شاء طاعات الملوك بأسرها ... لكان له خرج عليه مقرر

وتصبح في اقطارها حرسا له ... وتغدوا بهاتيك الحراسة تفخر

مليك له في الحلم والعلم والفدا ... صبابة مشتاق مدى الدهر تذكر

مليك له فضل ومجد وسودد ... وكل مليك عن معاليه يقصر

له عفة في توبة وصيانة ... عن الفحش في أفعاله وتطهر

له له هم لم يدرك الطرف شأوها ... ولا طائر النسرين لو يتطير

اذا ضربت للحرف يوما خيامه ... يصح له بالضرب قسم موفر

له وثبات في وغى الحرب ينثني ... ليوث الشرا عن باسها وتؤخر

اذا ما دعى للحرب يوم كريهة ... كان له من باسها الدمر يذعر

ترى كل ليث طالع فوق غارب ... من الدهم في شهب الاسنة يزؤر

اذا ما جرت في الأرض شهب جياده   ترى الشهب في أفق العلى تتحير

وان أصبحت يوما بساحة منذر   يسوء صباح المنذرين ويكدر

فما وطئت الأعلى جثث العدا   تدق من الأعضاء ما ليس يجبر

كان لها بالحسم علما وقد غدت   لأضلاع أشكال العداء تكسر

ومد العدا أعناقهم لبلاده   فقصر ممدود العدا منه ابتر

بمركزهم دارت دوائرهم ومن   دهاهم سيوف الدائرات تقطر

وكل ابن همام غدا وهو حارث   لما هو من جنس المفاسد مكثر

وظنوا بأن النقب يمنع جمعهم   نعم مانع مما أرادوا وقدروا

وقد زعموا بالجهل ان يضعوا الهنا   بموضع ذاك النقب وهو تغير

فوافت عليهم خيله فكأنما   من الجو عقبان عليهم وانسر

كما زعمت ناس تنجوا بغربها   فكان لها بالقلب غرب يؤثر

ولو انها في مغرب الشمس أوغلت   لادركها او مطلع الشمس تنفطر

او اتخذت في الأرض سربا لأمنها   او اعتقلت بالنسر حيث تؤثر

فلم يغن عنهم كلما امتنعوا به   ولم يجرد نفعها ما به تتسور

وحاز بلاد الزاب طرا وسوفها   وحكمها عن اذنه كان يصدر

وكانوا كوادي النحل حتى حطمتهم   فجند سليمان فولوا وأدبروا

اذا وقعت أسيافه في عداته   رأيت سيوف المعتدين تطير

اذا رفع الأعلام فأجزم يفتحه   لما أم والجمع الصحيح يكسر

وتخفق من خفق البنود لعلمهم   بتملكيه للخافقين وينصر

مليك له انقاد الزمان لقهره   فأصبح للأعداء بالرغم يقهر

مليك غدا مرجوا السعادات ان ترى   وعسكره المنصور فهو المظفر

لكم وحصوا بالرصد بعد كواكب   فهمته انقيادها ليس يحصر

اذا استنجت أفكاره لقضية   أتته القضايا بالنتائج تبدر

يمينها بما تحوي شمائله التي   الطرس منها نسيم معطر

لان له بين الملوك مآثر   ترى الزهر في العليا منهن تزهر

كريم له في المكرمات مآثر   بها يتحلى المدح نظما وينثر

اذا ذكروا مجدا فإن محمدا   له في العلى ذكر لمن يتدبر

ومهما شياطين المعادين أفسدت   غدت بسليمان الشياطين تدخر

مليك في العلم أشرف رتبة   بها اعظم الاعلام في العلم يصغر

اذا استغلق المعنى بمفتاح ذهنه   له فيه بالايضاح فتح ميسر

له منطق تسقي غصون رياضه   بيانا فتغدوا بالبلاغة تثمر

له السعد عيد في البلاغة اذ غدا   له سيدا دون الأنام يحرر

له في أصول الدين من   مواقفها عند التأمل تبهر

وكم في أصول الفقه جمع جوامع   بقول محلى الصدر منه ويفخر

ترجح في الميزان اذ لا مقدم   سواه وكل فيه تبعا مقصر

واما علوم النحو فهو خليلها   وكل خليل بالمخال اخبر

ولما تبدى فيه مبدع شرحه   عدا كل شرح ظاهر منه يضمر

ولو بلغ الشرح الجليل ودونه   بحور وأمواج على البر تزخر

لقطعها مسبحا للسواد وهكذا   الخليل بتقطيع البحور مشهر

حـــــويت مجدا لست مفتخــــرا بـــــه | على احــــــد لكنـــــــه بك يفخــــر
تحاشيت عن مـــــوضـــــوع كـل قضيـــــة | وذكــرك محمــــول على النجم يــزهــــر
رأيت تقـــصـــور مهمـــــلات فـأصبحت | بعـــــزمك كل المهمـــــلات تســور
حكـى الكـــــاف ذات النـــــون في سلب | خصهم ومــــــا منهـــــا عـن عين راه مستر
كســـوتها درعــــا من الأمـن ســاطعـــــا | تفيـــــــد الليـــــــــالي دونها وتقصر

وهي طويلة اقتصرت منها على هذا القدر اكتفاء بفضل المادح والممدوح **ولنرجع** لذكر سيدي حمد بن الحاج الذي هو جد الزاوية احد عشائر بلد نفطة، قد ذكرنا ان الباشا عليا عندما مر على بلد نفطة واقام بها وفي اثناء ذلك زار مع ابنه سليمان ضريح القطب الأوحد الشيخ سيدي أبي علي قدس سره وأمر ببناء وترميم زاويته فتمت على يد احد نقبائها من ذرية سيدي حمد بن الحاج المذكور واصدر له أمرا في ولايته على الزاوية وأوقافها وترك احد مماليكه السودانيين لخدمة ضريح الشيخ وبقيت زاوية سيدي أبي علي وأوقافها في يد عقبهم الى أن وضعت الجمعية يدها على الأوقاف فاستولت على أوقافها وأنشأ ابناء الشيخ سيدي حمد بن الحاج مسجدا جامعا لاقامة الجمعة والتفت عليهم عدة عائلات وردت من دريد الذين تقدم التعريف بذكر نسبهم ومن بلد سوف وغيرهما واختلطت بهم ونمى عددهم وفي أول القرن الثاني عشر وردت عائلة نبيهة من بلاد الغرفة احد قرى افريقيا واستقرت بهذه العشيرة **ثم** توفق أحد فضلائها وهو الشيخ محمد بن عمر الأكبر وأحدث زاوية بهذه البلاد مشتملة على مدرسة وانشائها بيوتا لسكنى المنقطعين لتعلم القرآن والعلم وقام بما يلزمهم من المؤونة من خاصة ماله ثم أحدث مسجدا لصلاة الجماعة وكان ابنه الشيخ محمد بن عمر الأصغر على جانب من السخاء قل ان يرد عليه أحد ويرجع بدون ضيافة وبذلك انجذبت له القلوب وحصل على جانب عظيم من والجاهة والاعتبار ويقال أن جد هذه العشيرة ينتسب الى قبيلة الحنانشة احد القبائل البربرية التي اجتمعت مع القبائل العربية ونالت بقوة عصبيتها ومساعدة ظروف الأحوال الرئاسية على سائر قبائل البربر المستوطنين بجهات التل وعمالة قسنطينة الشرقية بقيت الرئاسة فيهم الى أواسط القرن الثالث عشر فقام بعض زعمائهم ضد الدولة الفرنسية عند استيلائها على قطر الجزائر وحاول اصطياد العنقاء، فأنشد لسان الحال قول الشاعر:

أرى العنقـــــاء تكبـــــر إن تصـــــاد | فعـــــانـــــد من تطيق لـــــه عنـــــادا

فطحنته مع من أنظم اليه بكلاكلها وذهبوا ذهاب أمس الدابر والله يحكم لا معقب لحكمه له الأمر من قبل ومن بعد، هذا ولما كانت بلد نفطة قد ارتفع شأنها واكتسبت من الشرف الراسخ والمجد الباذخ حظا وافرا وأهمية عظمى بسبب ما أنبتته أرضها من أعلام الأمة وأشرق في سمائها من الهدات والأئمة حتى فاض بحرها وتفيأت ضلالها على كافة البلاد الجريدية وامتدت منها جداول وفروع انتفع القطر بعلومهم وارشاداتهم الى مصالحهم الدينية والدنياوية كان من الواجب ذكر بعض الأفراد الذين انتقلوا منها سواء بالاستيطان او بقضاء امر النفع لنشر المآثر الجمة والعوائد المهمة فمن **المنتقلين** لبلد توزر سلف الامام الأتقى والقدوة الأنفس صفوة العباد ونخبة الزهاد خلاصة الصالحين وعين اعيان اولياء الله المتقين الشيخ **سيدي محمد المولديا** الشريف انتقل من بلده نفطة الى توزر وأنشأ بها زاويته المشهورة واحدث بها مدرسة مشتملة على عدد كثير من البيوت لسكنى المنقطعين لتعلم القرآن والعلم وأحدث مطابخ لطبخ طعام الطلبة وابناء السبيل وكان ولا يفتر هو ولا سلفه عن اطعام الطعام، أناء الليل واطراف النهار وزيادة عن الموائد التي يجعلها في أواخر كل شهر عند ختم القرآن فيهرع لها من الحواضر والبوادي ما يناهز ألف نفس تبركا بختم القرآن والتماسا لبركة هذا الرجل الفاضل والأستاذ الجليل وكان له بركات مشهورة ومناقب مأثورة سارت بحديثها الركبان وانتفع به القاصي والداني وكان له صدقات يبذلها للطلبة الذين لا يقل عددهم عن المائة نفس زيادة عما يتصدق به على الفقراء والمساكين ولذا رأى الانسان الواردين على بابه لتناول ما يبذله من العطايا والصدقات يقف حائرا مندهشا أبقاه الله للاجئين ومنهلا للواردين وبابا مفتوحا للقاصدين، ومن المنتقلين العلامة الأوحد **الشيخ محمد الضيف** المعادي انتقل لتوزر متقلدا خطة القضاء بها وبقي مدة مديدة ثم توفي سنة 1259 هـ ودفن بها رحمه الله تعالى، ومنهم الفقيه النبيه الشيخ المسعودي ابن محمد بن ابي بكر المعادي انتقل لتوزر وتولى خطة الاشهاد بها وعكف على تعليم العلم الى أن توفاه الله قدس الله روحه الزكية سنة 1256، ومنهم الفقيه الأورع **الشيخ احمد التومي** المعادي انتقل لتوزر وتجرد للتعليم مدة مديدة وسنين عديدة انتفع به الجم الغفير ورجع لبلده نفطة وتوفي بها رحمه الله تعالى سنة 1273، ومنهم الفقيه النبيه **الشيخ احمد زروق** المعادي انتقل لتوزر وعكف على التعليم وكان جيد الخط متفننا لحفظ القرآن العظيم ورسمه انتفع به خلق كثير وخلف من تلامذته ما تفتخر به البلاد التوزرية توفي بتوزر سنة 1296 ودفن بها رحمه الله، ومنهم العلامة التحرير الدراكة الشهير شيخنا وشيخ مشائخنا سيدي **محمد النوري بن ابي القاسم** كان اية في علم الأصول والتوحيد والحديث والنحو وله مكانة في علوم الأدب على اختلاف انواعها تقلد رئاسة الافتاء بتوزر ثم استعفاء منها توفي سنة 1334، ومنهم العلامة التحرير القدوة الشهير الحائزة حلية السبق في مضمار التحرير **الشيخ يوسف بن عون** تقلد خطة القضاء بتوزر وسار سيرة مرضية رحمه الله توفي سنة 1329،

ومنهم العلامة الفقيه الدراكة النبيه الشيخ **عبد الله الذويبي** تقلد رئاسة الافتاء بتوزر وبقي بها الى ان توفي رحمه الله تعالى سنة 1301 ومنهم الفقيه النبيه الشيخ **الناصر بن محمد بن ابراهيم** تقلد رئاسة الافتاء بتوزر وبقي بها مدة الى أن انتقل لخطة القضاء بنفطة وانتقد اهل البلاد سيرته وقام عليه طائفة من الأعيان فعزل عفا الله عنه وبقي يدرس العلم الى ان انتقل لرحمة الله تعالى سنة 1328، ومنهم العلامة التحرير والقدوة الشهير الأديب الاريب الحاوي من كل فن أوفر نصيب، الشيخ **سيدي محمد الكبير التابعي الشريف** تقلد خطة القضاء بتوزر وبادر الى الاستعفاء منها ورجع لبلده نفطة وعكف على تدريس العلوم الدينية ووسائلها في مدرسة جده وانتفعت بعلومه البلاد والعباد وانتشرت تلامذته في أقاصي افريقيا ولم يزل عاكفا على التدريس ونشر الدر النفيس وكان رحمه الله تعالى شاعرا أديبا والمعيا أريبا حسن المحاضرات مهذب الأخلاق ورعا عفيفا توفي سنة 1335، ومنهم المتفنن **الشيخ عبد الباقي بن محمد المبارك المعادي** تولى خطة القضاء بتوزر على عهد المرحوم الشيخ ابراهيم بوعلاق كبير المفتين بتوزر وكان عالما متفننا في العلوم العقلية والنقلية باشر القضاء بجد واجتهاد وذلل الصعوبات التي عرضت له في ذلك السبيل ثم استعفى ورجع لبلده نفطة رحمه الله توفي عام 1325، ومنهم العلامة النبيه الدراكة النزيه **الشيخ علي بن محمد الصالح النفطي** كان ارتحل لتونس وعكف على اقتناء العلم بها ثم تقلد خطة القضاء بجرجيس ثم انتقل منها لقضاء توزر فباشرها بجد واجتهاد وكان عالما تقيا وورعا نقيا محافظا على مركزه له دراية بمقتضيات الاحوال الوقتية ومنهم الشيخ **عبد الرحمان الراجحي** انتقل لتوزر وتجرد للتعليم والتف حوله الجمع الغفير وانتفع به اهل البلاد نفعا عظيما وكان فقيها ورعا تقيا نقيا صموتا لا يخوض فيما لا يعنيه باشر الخطابة والامامة بجامع زاوية سيدي ابي علي بمدينة توزر فنشر من المواعظ الرقيقة والحكم الدقيقة ما يقرع الاسماع ويزجر النفوس والطبباع، ومنهم الفقيه النبيه الشيخ **الحاج بكار الزبيدي** انتقل الى توزر وتقلد خطة القضاء بها وباشرها زمنا طويلا متزودا بالعفة وعلو النفس الى ان توفي رحمه الله، ومنهم الفقيه النبيه الشيخ **محمد بن تواتي زروق** تعلم العلم بالديار المصرية ومكث بأزهرها مدة طويلة حتى حصل على الحظ الأوفر من العلوم العقلية والنقلية ثم رجع لبلده نفطة ومكث بها زمنا يسيرا ثم انتقل الى كريز من الوديان وعكف على تدريس العلم برهة من الزمن ثم انتقل الى بلد سوف بعد الالحاح عليه وتكرار الطلب من اهلها وتجرد لتدريس العلم مرشدا وهاديا اثابه الله على صنيعه، ومنهم التقي العابد النقي الورع التقي الزاهد العلامة التحرير والدراكة الشهير قطب العارفين وقدوة السالكين الناسكين **الشيخ سيدي محمد الصحبي بن الشيخ الأكبر** والعلم الغياث الأشهر سيدي ابراهيم خريف المواعدىء كان عالما عاملا ناسكا سالكا تعلم العلوم العقلية والنقلية بمدرسة والده بنفطة وغيرها وعكف على التدريس بها مدة مديدة ثم بعد وفاة والده رحمه الله انتقل لتعمير مدرسة والده بكريز من عمل الوديان وتجرد للتدريس بها وارشاد الناس الى ما يهمهم من أمر معاشهم ومعادهم وكان قدوة المهتدين وكعبة المسترشدين ثم عكف على العبادة والخلوة واطعام المنقطعين للقراءة وابناء السبيل الى ان توفي رحمه الله تعالى سنة 1255 ودفن بزاويتهم هناك ومنهم الفقيه النبيه **الشيخ محمد بن العابد المواعدي** انتقل الى بلد تقيوس وتجرد للتعليم ببلد كريز منها ومكث بها مدة مديدة عاكفا على التعليم والارشاد الى أن توفي رحمه الله تعالى سنة 1269، ومنهم الفقيه الناسك والورع السالك سيدي **احمد الصغير زروق** انتقل لبلد كريز وتجرد للتعليم وخدمه الطلبة المنقطعين بزاوية سيدي الصحبي وعابري السبيل الى ان توفي سنة 1285 رحمه الله ومنهم التقي العابد النقي الزاهد سيدي **ابراهيم بن صالح المواعدي** انتقل الى بلد كريز وعكف على التعليم والعبادة والقيام بخدمة الطلبة وعابري السبيل احتسابا لله تعالى الى ان توفي رحمه الله سنة 1295 هـ، ومنهم الفقيه النبيه سيدي محمد بن النمصي المواعدي انتقل الى بلد كريز وانقطع للتعليم بزاوية سيدي الصحبي والتف حوله جمهور من المتعلمين سواء من أهالي البلاد او المنقطعين للتعليم بها فاستفاد منه خلق كثير لا يحصى عددهم وكان له القدح المعلى في اتقان حفظ القرآن ورسمه وله المرجع في ذلك يفزعون اليه في حل المشكلات ويرجعون اليه في فتح المخلفات توفي رحمه الله سنة 1306 فهؤلاء الاعلام الذين انقطعوا للارشاد قد أرغموا النفوس وهجروا مسقط الرؤوس ولازموا الاقامة والتعليم بمدرسة الاستاذ الجليل **الشيخ سيدي ابراهيم خريف** من احفاد الشيخ سيدي **احمد معاد** كما سبقت الاشارة اليه كان أنشأها رضي الله عنه ببلد كريز من الوديان سنة 1220 عشرين ومائتين والف واحدث فيها بيوتا لسكنى المنقطعين للقراءة والتعليم ومحلا لخزن طعامهم ومطبخا لطبخ طعام ابناء السبيل ومسجدا جامعا لاقامة الجمعة والتزم القيام بذلك من خاصة ماله رحمه الله ثم اوقف عليها عقارات للقيام بشؤون ذلك ولما توفي رضي الله عنه سنة 1230 قام مقامه العلامة الأبرع والناسك الأورع ابنه الشيخ سيدي **محمد الصحبي** فشمر على ساعد الجد في نشر التعليم والقيام بما تعهد به والده وأوقف عقارات على الزاوية الحقها بأوقافها التي أوقفها والده ولما توفي رحمه الله وذلك سنة 1255 قام ابنه عثمان ابن الصحبي مقامه وكان عالما فقيها حازما نشيطا لكن وقع بينه وبين أهالي البلاد نزاع أفضى الى تشكي الفريقين الى الأمير احمد باي الحسيني وخوطب عامل الجريد في شأن ذلك بما محصله اجراء الأمر بين أولاد الزاوية بما يقضيه من الحبس ثم توفي ابنه عثمان المذكور سنة 1261 وتأخر اجراء ما كان أسسه الشيخ سيدي ابراهيم خريف لأسباب كثيرة منها تراكم المغارم على نخيل الزاوية وعجزه عن الوفاء والقيام بشؤونها واخيرا أبقيت الزاوية على حالة الاهمال فنهض عمه الشيخ سيدي **محمد التابعي** بن الشيخ سيدي ابراهيم خريف وتجرد لاحياء رسومها وتجديد ما تهدم من بنائها

وزاد عمارتها ووسع نطاقها وتقلد ابنه سيدي محمد خريف ولايتها فأمر على مؤرخ سنة 1263 ولما توفي سيدي محمد خريف سنة 1266 باشر أمرها والدنا **سيدي محمد الكبير بن الشيخ سيدي محمد التابعي** ثم تقلد امر ولايتها بأمر علي مؤرخ في سنة 1268 فقام بأعبائها احسن قيام ثم اوقف عليها والده المذكور عقارات يصرف متحصل ارباعها في القيام بشؤونها مع ما أوقفه أهل البر على ذلك فتجلد الشيخ الوالد لتعمير هذا المعهد العظيم وذلل الصعوبات التي اعترضته في هذا السبيل وأنفق في ذلك من ماله الخاص بـه أموالا طائلة لتسديد نفقات الزاوية وأداء المغارم الدولية التي تراكمت على نخيلها مما يستغرق جميع مداخلها في أغلب السنين فيضطر الى جبر ذلك من خاصة ماله بل ربما باع عقاراته الخاصة ولازال باذلا وسعه في تشييد مآثرها وتوسيع دائرة عمادتها الى أن توفي رحمه الله سنة 1299 وبعد وفاته تقلد مشيختها ابنه الفقيه الأبرع والنزيه الأورع الشيخ **محمد الصحبي** وبمجرد ولايته قام احفاد الشيخ سيدي محمد التابعي بدعوى استحقاقهم من أوقاف الزاوية وعارضهم الشيخ المذكور بأن أوقاف الزاوية مخصصة للقيام بشؤونها حسبما جرى به عمل سلفه وسلف سلفه وعمل المؤسسين لها على ان المؤسس للزاوية لم يقصد بذلك نفع ذريته وانما يقصد نشر التعليم وسد خلة المعوزين لأن ذريته خصص لهم أوقافا ببلد نفطة يقتسمون متحصلها فاستظهروا برسم زعموا فيه ان بعض أماكن من أوقاف الزاوية حبس على الذكور من ابناء الشيخ سيدي محمد التابعي ولما أخذت نسخة من الرسم ووقع التأمل فيها تبين انه مفتعل وافتضح افتعاله من عدة أوجه وأخذت المسألة أدوارا وبعد الأخذ والرد انتزعت الزاوية وأوقافها من يد أبناء الشيخ ووضعت تحت نظر جمعية الأوقاف وقد أفردت هذه المسألة برسالة سميتها كشف الرأي عما خفي من مسألة الوديان أتيت فيها على تأسيس الزاوية وأصل تأسيسها ومؤسسها ونظارها وما تقلبت فيه من الأدوار فليتراجع .

فصل في شؤون نفطة الادارية الحديثة

لما كان لبلد نفطة نشأة حديثة بالنسبة لأدوارها الأولى اي قبل ان يخربها الأتراك منذ ثلاثة قرون ونصف أعني من سنة 1010 هـ لأن البلاد العتيقة تلاشت وأقيمت على أطلالها بلاد أخرى ووفدت عليها أناس من قبائل شتى في أدوار مختلفة واستوطنوا بلد نفطة وقد بقي البعض من أهالي البلاد الأصلية الذين رجعوا بعد تشتيت شملهم غير معتبرين في الأهالي الطارئين الذين عمروا البلاد الحديثة ولذلك لزم ان نلم بأحوالها الادارية في أطوارها الأخيرة ، قد كنا شرحنا ان القبائل الذين وفدوا على بلد نفطة في دورها الأخير هم قبيلة بني علي وقبيلة بني يزيد وقبيلة اولاد شريف والقبائل الذين استوطنوا علقمة واما بقية الشعائر فان أسلافهم وردوا فرادى تناسلوا وتزايد عددهم واندمج مع الوافدين من بقي من أهالي البلاد الأصلية ، وحيث أن الأحكام الادارية واستخلاص المغارم الدولية كانت استبدادية محضة تجريها الدولة بواسطة من تختاره وتعينه لذلك ثم يتوسع هؤلاء الرؤساء في الاستبداد ويتصرفون في الرعية على حسب اهوائهم وما تمليه عليهم ضمائرهم من غير تقييد بنظام بحيث ان الرعية في هذا الدور مسوقة بعصا القهر لا أمن لهم على أبدانهم ولا أموالهم واذا رفع فرد أو طائفة شكاية الى الدولة لا يجد أذنا صاغية لشكواه بل يعد من المارقين على الدولة والمنحرفين عنها والمخالفين لأوامرها فتجري عليه أحكام الذين يسعون في الأرض فسادا اذ بمجرد سماع شكواه تؤمر زبانية العذاب بوثاقه مع من انضم اليه ويساق الى السجون المظلمة ولا يكتفون بالسجن البسيط بل يعمدون الى تلك الأجسام المكرمة ويتناولونها بالضرب بعصا الجور الى أن يمزقوا أديمها من غير شفقة ولا رحمة وتصدر الأوامر بتغريمه غرامة تأتي على جميع كسبه منقولا أو ثابتا فاذا قدر بقاء حياته بعد خروجه من السجن يبقى فقيرا يتكفف . وبهذه الحالة نفرت نفوس الذين لهم سكة من الدين وبارقة من العلم من الرئاسة التي يكون صاحبها آلة تخريب البلاد وتعذيب العباد

فإن العائلات الذين استنارت بصائرهم بأنوار العلم وتمسكوا بأهداف الدين الذي يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر انقبضت نفوسهم عن الرئاسة المخزية ولذا لما توجهت همة بعضهم لذلك ولم يتحاشا ما تحاشاه سلفه لم يقنع بالمشيخ فقط بل تجاوزه الى رئاسة كافة الجزيد مثل ابراهيم بن عون وعلي الساسي وغيرهما وهؤلاء (اي العائلات المذكورة) مثل عائلة سيدي احمد معاد المعبر عنهم بالمواعدة وعائلة سيدي احمد بن الحاج المعبر عنهم بالزاوية وقبيلة الزبدة وخط الطين فان هؤلاء العشائر أقبلوا على مناهل العلم ووشجت فيهم عروقه وانتشر في عقولهم ضوءه فكانوا يرون ان الحالة التي اتخذها أولئك الرؤساء طريقه لهم تشمئز منها النفوس فتباعدوا عنها وفروا من عواقبها الوخيمة اللهم الا المناصب الشرعية فانهم يتلقونها بصدر رحيب محافظة منهم على العقود الشرعية والحقوق الشخصية كالنكاح والطلاق والمواريث والحضانة وغيرها كي لا تخرقها أيدي الجهل فتتلاشى هذه العقود التي قام بها اولئك الذوات وحافظوا على ناموسها وتوطيد مركزها وربما اعترضتهم في سبيل ذلك عقبات يعسر قطعها فيتجشمون صعوبات لتذليلها ولذلك تراهم يسلكون طرق المجاملة والمدارات مع أولئك الجبابرة كي يتيسر لهم اجراء الأحكام الشرعية التي لا غرض لهؤلاء الطغات في تعطيلها وبهذه الحالة ولهذا السبب كانت الرئاسة المخزية اعني الاستبداد يتقلدها رؤساء العشائر الاربعة المذكورة بما لهم من البدوية التي يلازمها التوحش تلقفوا هذه الرئاسة واتخذوها ذريعة لاستنزاف الاموال

واسترقاق الرجال ويعبرون عن هـؤلاء الرؤساء بالمشائخ فلكل من هذه العشائر شيخ يستخلص جباية وعشيرته ومن يليها وان شئت قلت يمتص دماءهم وتجري بينهم الأحكام العرفية على مـا يقتضيه هواه وتستدعيه الأغراض النفسية والأهـواء الشخصية ويوجبه اليـه التهور وكيفية تقليد هؤلاء المشائخ ان يبذل من يـريد هذه الرئاسة مقدارا من المال لرئيس الدولة وبعض حـاشيته ويقلده الرئاسة المذكورة بمقتضى ظهير يكتبه احد كتبه الأمير ويختمه بختمه علامة على امضائه وبمجرد اتصاله بالأمر يعمد الى الرعية ويستخلص منهم ذلك اضعافا مضاعفة ويستمر متصرفا في الأموال والأبـدان لا يزجره زاجرا ولا يردعه رادع الى أن يستبدل بغيره فيركض ركضـه في ذلك الميدان وبقيت هذه البلاد وما حولها من بلدان الجريد تئن تحت أثقـال المغارم وترصف تحت قيود المظالم دهورا وأحقابا من أواخر دولة الموحـدين ثم دولة الدايات وما بعدها الى أن استـولى الامارة محمد باي فعدل الأمـر وضبط الأداءات وضرب العمال على أيديهم وتوعدهم بالانتقـام اذا تجاوزوا حد الأوامر لكن لم تطل مدته ورجع الأمر الى ما كان عليه الى أن استولى الـوزارة خير الدين فتصدى لضبط المداخيل والمصاريف بطريقة منظمة وبقي أمر الدولة في انحطاط وارتفـاع الى أن وضعت الدولة الفرنساوية حمايتها على هـذه الأيالة وسيأتي تفصيل ما أجرته هذه الـدولة من الاصلاحات الادارية والاقتصادية والاجتماعية.

وكان أصل الجباية المرتبة على بـلاد الجريد عشر مـا يتحصل من غلال نخيلهم وزياتينهـم في كل عام يدفع لخزينـة الدولـة وهذا الترتيب مؤسس منذ الفتح الاسلامي لأنه هو الأداء الشرعي وهذا المقدار هو غاية في العدل ليس بالنظر للرعية فقط بل حتى من جهة الخزينة ايضا إذ أن خزينة الدولة كـانت مفعمة بالأموال قائمة بواجباتها أحسـن قيام لأن هذا المقدار بالنسبة لعمران البلاد واجـراء العدل فيها كثير جدا فقد رأيت في بعض التقاييد العتيقة أن الجباية التي تستخلص لخزينة الدولة في خصوص بلاد الجريد في صدر دولة الموحدين تبلغ مائتين ألف دينار وهي عبارة عن خمسة ملايين من الفـرنكات تقريبا لأن الدينار قيمتـه خمسة وعشرون فرنكا والدينار هو المحبـوب المومني وهو يساوي خمسة وعشرين فرنكا فأكثر ثم أخذت الجباية في التناقص بقدر تكاثف المظالم وتراكم المغارم واطلاق الأيدي بالسلب والنهب حتى نزلت الجباية في السنين الأخيرة الى أقل من عشر هذا المقدار بالـرغم من كون الجباية التي تستخلص على النخيل والزيتون تسـاوي ربع متحصل غلالها تقريبا والسبب في ذلك أمور منها أن الدولة اذا كانت مقتصرة على الأداء الشرعي وهـو عشر المتحصل فإن الرعية تنبعث نفوسهم الى التعمير وكثرة الغراسة وخدمـة الأراضي فتنموا اعداد الأعشار ويزداد ثمارها وتتسع الأراضي التي يشغلـونها بالغراسة وبذلك تكثر مـوارد الخزينة الدولية بقدر اتسـاع ثروة الأهالي ومنها أمن السبل ودفـاع المتهافتين عن اختطاف البضائع الصـادرة والواردة فيقع الاقبال على النتائج ويكثـر تزاحم الوافدين عليها فترتفع أسعارها وتتضاعف أثمانها ومنها جلب البضائع الضروريـة من أقاصي البلاد ليستبدلوها بنتائج أخرى فيحصل بذلك للبلاد الربح المتكرر ومنها ان الدولة في أول أطوارها تغلب عليهـا السذاجة فتقتصر في نفقاتها على الضروري فلا داع الى امتداد يدها لنهب ما في أيدي الرعيـة والتطاول لأكثر من حاجاتها والعكس بـالعكس وذلك أن الدولة اذا استحكمت صبغة الملك فيهـا تلونت في مذاهب الترف ومسارب النعيم وصـار ذلك شنشنة في كل من ينتمي لها من الوزير الى الخادم فتشتـد الحاجة الى تسديد رغـائبهم وما تستدعيه شهـواتهم فلا يكتفون بما تمنحه لهم الدولـة من المرتبات فتمتد ايديهم الى ما في يد الـرعية وتطلق لهم الدولة العنان في مضـاعفة الضرائب وزيادة المغارم على كواهل الـرعية وتشتد وطأة العمال فيخلقون وسـائل وأسباب لاستنزاف الأموال تـارة بدعوى انحراف بعض الـرعية عن الدولة ومعـاكسة أوامرها وطورا بإغراء أهل العصبيات عن أهل عصبية اخرى ووعـده بالمواعيد المزخرفة حتى يسلط عليها فيسلب نعيمها ويتركها تحت أديم السماء، الأرض وطاؤهـا والسماء غطاؤهـا وآونة بـاحداث ضرائب عمـومية زائدة عن المعتـاد هذا فضـلا عن اطلاق يـد العمال في الارتشاء والنهب واغراء بعض القبـائل بالبعض لـلاصطياد في الماء العكر وبهذه الاسبـاب تقل العمارة ويفقد الأمن فتقبض الأيـدي عن العمل وتنفر النفوس من ذلك ويتفشى الكسل بين طبقـات الأهالي لأنهم يعلمون أنها آيلة الى السلـب والنهب بل ربما تركوا أوطانهم مهـاجرين الى حيث يظنون الأمن على الأبـدان والأموال فيقل الساكن ويفقد التعمير وبـذلك يقل مورد خزينة الـدولة فتزيد في الضرائب جبرا لما نقصهـا وهكذا حتى تقرب من درجة التلاشي والاضمحلال هذا هو المعبر عنه بهرم الدول الاستبـدادية وموتها وجرى الأمر على هذا المنوال في بلدان الجريد وبقية المملكة التونسية من آخر الدولة الموحدية ثم دولة الدايات ودولة المراديين الى أن تقلد الامارة على البلاد التونسية وأعمالها حسين بن علي وذلك سنة 1117 هـ وكان يميل بطبعه الى الرفق واللين فعقد العـزم على اجراء العدل في الأحكام والاقتصاد في الأداءات الدولية على الأداء الشرعي لكنه من سـوء البخت لم تساعـده ظروف الأحـوال لأن البلاد التونسيـة صادفهـا في حالة الفـاقة ودور الخراب بسبب مـا لاقته من النكبات في الأمـوال والأنفس مما جرته عليهـا الحروب التي نشبت بين العائلة المرادية وأشيـاعها السنين العديدة مع تسلط الـولاة على أموال الرعية ونهبها، فهي عبـارة عن ذئاب في وسط أغنام تنتهشها ولا راعي لها ولما قام عليه حفيده علي باشا بن محمـد بن علي والتف عليه أشياعه وقامت بينه وبين عمه حروب آلت الى قتل عمه حسين بن علي وانتصاب حفيده المذكور أميرا مكانه وذلك سنة 1153 هـ وسلط أشياعه على أشياع عمه فاستأصلهم ومن بقي تركهم حفـاة عراة وجرى في تصرفه على شاكلة من تقدمه من الأمراء الى أن مـات قتيلا وتقلد الامارة بعده ابن عمه محمد بن حسين بن علي وذلك سنة 1169 هـ فلم يتمكن من ترقيع ما خرقته أيدي المظالم وترميم ما هدمته معاول المغارم فتعذر عليه اجراء مـا أضمره من الاصلاحات لعدم وجود من يعضّده من رجال السيـاسة العارفين بسيـاسة الشعوب لأن الرجـال الذين تعلق عليهم

الآمال أفنتها الحروب والسجون المظلمة وبقي الأمر على حالـه الى أن توفي سنة 1173 هـ وتقلد الامـارة أخوه علي بن حسين بن علي فنسج على منوال سابقيه في حـالة الجباية والأحكام الى أن تقلد الامـارة ابنه حمودة باشا في آخر حيـاة والده وذلك سنة 1196 هـ فـاهتم بأمور الجند وتفخيم الدولـة وأضمر امرا لم تساعـده عليه ظروف الأحـوال واتخذ لذلك قوة حربيـة وما يلزم لها من العسـاكر والذخائر الحربيـة والقلاع والحصون وغير ذلك ولم تقم بمرغوبه مقادير الجبايـة فأطلق الأيدي في مكاسب الرعية وسلبها بكل وسيلة ولم يكن ذلك لأجل الاسراف في البذخ والبهرجة الشخصية بل كان ينهي بعض خدامه على ذلك ويأمرهم بالاقتصاد وانما دعاه لذلك الرغبة في توسيع تراب المملكة وردها الى ما كانت عليه في دولـة الموحدين وقد غاب عنه سامحه الله ان ذلك لا يتم إلا بالعـدل والسعي في تنشيط الرعية على عمارة الأرض واستخراج كنوزها وأمنهم على أبدانهم وأموالهم وأعراضهم وبذلك تنبسط نفوسهم ويأمنون على ثمرة سعيهم فتكثر العمارة ويتعاظم الخراج ولم يدر أن الظلم والعدوان مؤذنات بخـراب العمران كما نقل عن الموجز أن صاحب ديانة الفرس مما قاله لملك الفرس حين أسرف في الظلم على سبيل التهديد في قالب حكايـة حال معرضا له بذلك بضرب مثل في ذلك على لسان البوم حين سمع الملك أصواتها وسألـه عن فهم كلامها فقال له أيها الملك إن بوما ذكرا يروم نكاح أنثى فاشترطت عليه عشرين قرية من الخراب فقبل شرطها وقال لها ان دامت أيام الملك اقتطعتك ألف قرية فتنبه الملك من غفلته وسأله عن مـراده فقال له أيها الملك لا يتم إلا بالشريعة والقيام لله بطاعتـه والتصرف تحت امره ونهيه ولا قوام للشريعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالـرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بـالعدل فانتبه الملك وأقلع عن ظلمه واهتم بالسعي في أسباب العمران الذي هو اكسير الثروة والغني ولكن الجهل بطرق نموهما خيم على العقول أرشدنا الله الى مناهج السداد وسار في ذلك السبيل وقد غزا بلاد الجزائر سنة 1221 هـ الى أن بلغ أسوار مدنها ولم يساعده الحظ على مرامه كما انه غزا بلاد طرابلس ونزل بها بعسـاكره التي أرسلها عليها برا وبحرا ورجع ولم يقدر له ضمها لبلاده لموانع سيـاسية وتوفي رحمه الله سنة 1229 هـ وتقلد الامارة أخوه عثمان واستشهد في عامه بيد أبناء عمه حسين ومصطفى طلبا لاسترجاع حقهم المهضوم على رأيهما لأن والدهما محمود ابن محمد الرشيد أكبر منه ومن أخيـه حمودة سنا وقد منع من الولايـة قبل حمودة التي يوجبها السن ثم أحـرم بعده فكان ذلك داع لتجرئهم على مـا وقع وتقلد الامارة والدهما محمود بن محمد الرشيـد بن حسين بن علي وسار في سيرته على ما سار عليه سلفه الى أن توفي سنة 1239 هـ وتقلد الامارة ابنه حسين باي وكان شهما حازما فتصدى لاحيـاء رسوم الدولة وترتيب أمورها وحفظ مصالحها فرتب الجند النظـامي الوطني وهيأ له ما يناسبه من الذخائر الحربية وما يقوم به من الكسوة والمؤونة والمساكن وبالرغم من اضطراره للنفقات الباهظة فلم يزد على الضرائب الاعتيادية وسار في سيرتـه على ما هو مألوف الى أن تـوفي رحمه الله سنة 1251 هـ وتقلد الامارة أخـوه مصطفى باي فنسج على منواله ونهج منـاهجه وسلك مسلكه واستمر الحال على ذلك المنوال الى أن تقلد الامارة ابنه أحمد باي سنة 1253 هـ.

فصل في تغيير الهيأة الادارية
فـي نفطة وغيرها من العمالة

كانت هذه البـلاد النفطية يدير شـؤونها اربعة مشايخ من كل عشيرة من العشائر الأربعة المتقـدم ذكرها، شيخ يقلده الأمير هـذه الرئاسة ويباشر إدارة شؤون ما لنظـره تحت اشراف الأمير ولما تقلد أحمد باشا الامارة وكان لهذا الأمير ولوع بهيأة الجنـد واهتمام بشأنه مع ميل لفخامة الدولة وتشييـد أبهة الملك ورأى أن مالية الدولـة ضعيفة، لا تتحمل نفقات ما أحـدثه من التراتيب الدولية فأخـذ في احداث ضرائب أخرى أثقلت كواهل الرعية واستنزفت دماءهم فمنها أنه في سنة 1256 هـ رتب أداء وهو أن يدفع كل بائع لشيء بخمسة وعشرين في المائة من ثمن بيعـه لخزينة الـدولة وكل بلـد من بلدان القطر يلتـزمه أحـد القواد بمقـدار من المال يتفق عنـه مع الأمير او نائبـه وتطلق له الـدولة اليـد في استخلاص ذلك فيستخلص من الرعية أضعاف ما التزم به للدولة بواسطة دعاوي ملفقة توجه على الأهالي توجب عقابهم بالمال على مقتضى استبدادهم ومنها احتكار الحكومة لبعض الضروريات وبيعها بثمن باهظ ومن عثر عليه يتعاطى ذلك يعاقب بغرامة ربما أتت على جميع كسبه منقولا وثـابتا زيـادة عما يخلقونـه من التهم الموجهة على من يـرومون سلب نعمته من غير مـراجعة ولا محاكمـة ومنها احـداث أداء على عدد النخيل والزيتـون وذلك سنـة 1258 هـ زيـادة على أدائه الأصلي الى غير ذلك من الضرائب التي لا تـدخل تحت ضبط أو ربط ولهذا السبب أحدثت الدولـة وظائف فجعلت لقطر الجريد عاملا وفي كل بلـد خليفة او اكثر نائبين عن العامل في ما هـو مكلف به وعلى كل عشيرة شيخا يرجع نظـر الجميع للعامل وهو الـذي يستخلص الضرائب الموظفة على عملـه وهو المطلوب بها يثقل على عـواتق الرعية ودخل هـذه المعمعة ابراهيم بن احمد بن عون أحد أعيان عشيرة الزبـدة، وكان من عائلة نبيهة وكان والده متقلدا خطة القضاء بنفطة وله مكانة عظيمة لكن هذا الولد خرج عن طـوره فارتحل لتونس وتطارح على اعتاب رجال الـدولة متطلبا الانخراط في سلك الولاة حتى أدرك ضالتـه المنشودة فالتزم محصولات البلاد ثم تقلد قيادة الجريـد وأطلق له العنان فسلط أفراد عائلته على بلدان الجريد كالـذباب يعيثون في الأرض فسادا وسلط أهالي البلدان على بعضها بالسلب والنهب ثم ابتكر طريقة لـلاجهاز عما بقي من رمق الحياة فسعى لدى الأمير بأن يصدر ظهيرا يقتضي أن من عجز

عن تسديد ما يطلب منه يباع عقاره فيما هو مطلوب فيه قل او كثر فصار العقار الذي يساوي الفا يباع بخمسين وفيه حجر على الحاكم الشرعي أن لا يتداخل هذه العقود اذا رفعت لديه نوازلها طال الزمان أو قصر بحيث ان ما باعه العامل وأمضاه الأمير بختمه لا رجوع فيه البتة ولما عجز أهالي البلاد على تسديد ما طلب منهم وتجاوز الأموال الى الأبدان بالسجن والضرب حيث أن العقار لا يجد من يشتريه لخشية الناس من موبقاته شرعوا في مبارحة بلادهم ومأوى آباءهم واجدادهم وتتابعوا أفواجا وابتدأ ذلك من سنة 1262 هـ. وفي هذه السنة فر ابراهيم بن احمد بن عون لإيالة الجزائر لعجزه عن الوفاء بما طلب منه فتقلد قيادة نفطة أحد مماليك القصر المسمى سليم وفي سنة 1263 هـ قدم أحد مماليك قصر الوالي المسمى أحمد زروق الى الجريد مع طائفة من الجند الخيالة وشدد في استخلاص المغارم وأخيرا شرع في بيع النخيل حسبما رسم له بثمن بخس دراهم معدودة وهذا البيع يقع على أجنة من فر بنفسه من الضرب والسجن المضيق وأما من وقع القبض عليه فإنه يزج في السجون المظلمة تحت القيود والأغلال والضرب المؤلم ثم في سنة 1264 هـ كلف أحمد زروق هذا بترتيب جند خيالة من بلدان الجريد وألزمهم باشتراء الخيل والسلاح والتزامهم بمؤونتهم ومؤونة خيولهم والقيام بشؤونها من خاصة مالهم وصادف هذا الأمر ضعفهم فزاد الطين بلة والمريض علة وهذا الجند اتخذ للاستعانة به على سلب الأموال واستنزاف ما بقي من دماء الأهالي وفي سنة 1266 هاجرت جميع عشائر البلاد مع عائلاتهم وأغلبهم استوطن بلاد سوف بالرغم عن سوء معيشتها وضعف أسباب التكسب فيها لكنهم اخذوا الفوز بأنفسهم فرارا من تعذيب أبدانهم ولما بلغ الأمير احمد باشا خلو البلاد من أهلها وقد نعى فيها غراب البين خشي من مغبة ذلك وهو سريان هذا الأمر الى أطراف المملكة فبادر بإصدار ظهير في احصاء عدد النخيل ووظف على كل نخلة من المطلق ثلاثة ارباع الريال عدى ناصريين وهو عبارة عن اثنين واربعين سانتيما وهي كثيرة بالنسبة للوقت والحال ولكن الأهالي رضوا بذلك حيث ان هذا الأداء بمقتضى الظاهر منضبط مع حنينهم الى أوطانهم وذلك سنة 1267 هـ وتولى قيادة الجريد **علي الساسي بن عبد الرحمان النفطي** من عشيرة الزبدة وكان متقلدا خطة القضاء بنفطة فانتقل منها الى القيادة وسار في ولايته هذه سيرة ضغط وعنف ولم يكتف بما هو مرتب من الحكومة بل تجازف في استخلاص المغارم وتجاوز حدود المقدرة ومن رأى عجزه عن الوفاء بما طلب منه بادر باشهار عقاره للبيع فيبيعه بأبخس ثمن ويعرض سجل البيع على ختم الوالي علامة عن تنفيذه فلا يتوقف في ذلك فاشتد الخطب وتضاعف الكرب لأن الوطن صار يغرم عدة مغارم احدها ما يطلبه صندوق الدولة والثانية ما ينهبه العامل لنفسه والثالثة ما يختطفه الخليفة والرابعة ما يختلسه الشيخ والخامسة ما يمتصه أعوان هؤلاء الثلاثة كل على حسب رتبة مخدومه فقام أهالي البلاد وشرحوا للأمير ما ألم بهم فعزل علي الساسي وولى مكانه احمد زروق وذلك سنة 1270 هـ فكان يحق ان ينشد فيه قول الشاعر :

المستجيرُ بعمرو عندَ كربتِه كالمُستجير من الرَّمضاء بالنَّار

وفي سنة 1271 توفي الأمير أحمد باي وتقلد الامارة ابن عمه محمد بن حسين باي فأسقط من أداء المبيعات الذي هو خمسة وعشرون في المائة ثلاثة أرباعه وبقي الأداء ستة وربع في المائة ورتب أداء المجبي على الرقاب وهو الزام كل ذكر بالغ قادر على الكسب أو التكسب من كافة بلدان المملكة وعربانها بأداء ستة وثلاثين ريالا وهي عبارة عن احدى وعشرين فرنكا وستين سانتيما عدى تونس والبلدان التي يؤخذ منها العسكر ذاك وهي القيروان وصفاقس وسوسة والمنستير وذلك سنة 1272 هـ وشدد النكير على الولاة بأن لا يختطفوا شيئا من أموال الرعية وتوعدهم بالانتقام الصارم اذا ثبت على أحد أنه أخذ شيئا زائدا عن الأداء المرتب وفي هذه السنة أعاد علي الساسي الى قيادة الجريد وبما له من الادلال على هذا الأمير أو صلة كانت بينهما قبل جلوسه على تخت الامارة سار على نهجه الأول من استنزاف أموال الأهالي بالوسائل الفعالة وكان دأبه في اجراء مقاصده والتوصل الى ما يهواه أن يستميل من كل طائفة من البلد أفرادا من الذين يخشى عاقبته تشكيهم الى الأمير الذي شدد عليه النكير في تجازفه بأخذ الضرائب فيعفيهم من بعض الأداءات وربما يحسن بعض احسانات طفيفة سدا لأفواههم على التشكي ثم ينهمك في اختطاف أموال الرعية بضروب الظلم وكان معتمدا في سره على الوزير الذي له مشاركة مع القواد وهو المتعهد بسد باب القبول للشكايات الى الأمير ولما عم الكرب وجل الخطب هرع الناس زرافات وأبلغوا شكاياتهم الى الأمير مباشرة فعزله وقلد عمل الجريد لبعض مماليك القصر وجعل له خلفاء يباشرون إدارة البلاد تحت مراقبته وذلك سنة 1274 هـ وكان المتقلد للخلافة في هذا الدور العبيدي بن الحاج احمد العلقمي والخازن بن نصر الله من عشيرة الشرفاء وكان للأمير في هذه الولاية مقصد حسن لو تمّ لأنه أحال انتخاب الخلفاء على الأهالي وكان من المعتاد ان ينتخب خليفة واحد لنفطة ولكن أهل البلد رأوا من حسن النظر أن ينتخبوا خليفتين لتنتفي الأغراض والتعصبات ويكون كل خليفة بالمرصاد من الآخر فكان من سوء الحظ أن اتفق الخليفتان يدا واحدة وامتزجا امتزاج الماء بالراح وصارا كرجل واحد كل ما رام واحد منهما غرضا إلا ووافقه عليه الآخر وكان للأول على الثاني ظهور بحيث ان نسبته منه كنسبة الخليفة من العامل.

أما علي الساسي فبقي يتطارح على أبواب الكبراء والرؤساء الى ان توفي محمد باي وذلك سنة 1276 هـ وتولى الامارة أخوه محمد الصادق وكان هذا الأمير يحب راحة الفكر ويلقي مقاليد الأمور الى وزرائه وكان المعتمد في سياسته عليه والمقرب لديه مصطفى خزندار وهو أكبر وزرائه فأجرى الأمور طوع أمياله فقلد علي الساسي قيادة الجريد كما كان وجرى في تصرفاته على مقتضى عادته المألوفة من تثقيل الضرائب

على عاتق الرعية واستخلاصها مكررة بكل وسيلة ومن عجز عن تسديد ما يلزم به يباع كسبه عقارا او غيره ثم عمد لتغيير هيأة ادارة البلاد فجعل بها ثلاثة عشر شيخا بدل أربع يستعين بذلك على استنزاف أموال الرعية فصار كل من العامل والخليفتين والمشائخ ينهب لنفسه زيادة عما هو مرتب للدولة وزد على ذلك اجراءات الملتزمين للمكوس وما يخلقونه من التهم الموجهة على من يقصدون سلب نعمته وهذا الأمر جاري في جميع بلدان المملكة بدون استثناء ومن المعلوم ان كل ما ازدادت المغارم وفشت المظالم الا وتناقص العمران لانقباض النفوس عن السعي فيما لا يدركون ثمرته وربما يغادر الجل بلادهم فتقل العمارة بقلة وجود اليد العاملة وتنقص موارد صندوق الدولة فيلجئها ذلك الى زيادة في الضرائب على المعتاد فتؤول الأمور الى الاختلال ثم الى الاضمحلال وقد وقع بالفعل. فإن الوزير الذي بيده مقاليد الدولة لما رأى عجز الخزينة عما تستدعيه نفقات الحكومة وان شئت قلت شهوات رجالها الشخصية عمد الى اتخاذ طريقة اخرى لتسديد عجز الخزينة فكانت القاضية على الراعي والرعية وذلك بفتح باب التداين من أوروبا بفوائد لا تتحملها حالة القطر مع ما عليه ضعف موارد البلاد بتشتيت شمل العباد فتذرع باشتراء بعض الذخائر الحربية ومراكب تجارية بأثمان باهظة فوق قيمتها الحقيقية بأضعاف مضاعفة وجعل ذلك وسيلة لفتح هذا الباب كما تذرع لجلب ماء زغوان للعاصمة في قنوات توزع في انحاء المدينة وكان هذا هو المقدمة للاجهاز عما بقي من المرق في المملكة التونسية ولما فتح هذا الباب وصار كلما رام أخذ مقدار من المال الا ويوجه أوراقا حوالة على الخزينة التونسية الى أوروبا لجلب ما يحتاجه من ذلك وكلما طلب الماليون تسديد فوائض ديونهم تداين لذلك. وهكذا حتى بلغ الدين الذي ثقل به كاهل الخزينة مقدارا له بال فانقبضوا عن الزيادة حتى تقرر تسديد الفوائض وقوي إلحاح الدائنين في اقتضاء حقوقهم وأخذوا يفتكرون في ما تخلد بذمة الدولة فاشتدت الأزمة وضاق الخناق على الوزير وأخذ يفتكر في وسيلة لتحصيل ما يسدد به نفقات الحكومة وفوائض الديون فسعى في مضاعفة المجبى وهو الأداء الشخصي المرتب على الرقاب الذي أصله ستة وثلاثون ريالا كما تقدم فجعله ثلاثة أقسام : قسم تضاعف الى ثلاثة أمثاله يعني مائة وثمانية وقسم اثنان وسبعون اي يضاعف الى مثيله وقسم يبقى ستة وثلاثون وبعد معارضة من بعض عقلاء رجال الدولة تغلب بقوة نفوذه لدى الباي محمد الصادق وأصدر أمرا في ذلك سنة 1279 هـ. وكان هذا الوزير عقب جلوس الباي محمد الصادق على تخت الولاية عمد الى استصدار ظهير من الأمير سموه عهد الأمان كان عزم على اصداره محمد باي ولم يتم في مدته وهو عبارة عن قانون مشتمل على عدة فصول محصلها ان كافة سكان المملكة آمنون على أبدانهم واعراضهم وأموالهم من طوارق العدوان ورتبت مجالس مدنية وجنائية في العاصمة وبقية بلدان المملكة ولكل مجلس رئيس ومستشارون محافظون على اجراء الأحكام العدلية على مقتضى التراتيب المؤسسة لذلك ولكن هذا الترتيب لم يدم أزيد من عامين ويقال ان الوزير سعى في ابطاله بالفعل في هذه السنة ، ذكر **الشيخ محمد بيرم في صفوة الاعتبار** أن الأصل في سعي الوزير لتأسيس هذا القانون هو مصلحته الخاصة ولما حصل على غرضه لم يبق له به مصلحة بل ربما يعوقه على مقاصده الذاتية ولذلك اتخذ وسائل لابطاله وأبطله بالفعل وذلك لما جلس محمد باي على تخت الامارة وكان له اشياعه ناقمين سيرة الوزير فخشي ان يسعوا في الانتقام منه .

وكان الغالب في ملوك هذه الدولة اذا نقموا على وزيرا قتلوه واستأصلوا جميع كسبه فيتستر بهذا القانون ليأمن على مركزه .

ولما اشتد أزره وفتح على زمام الدولة واستبد على الأمير والمأمور وصحا له الجو رأى أن هذا القانون ربما صار حجر عثرة في سبيل تنفيذ مقاصده فأعلن ابطاله ولما عارضه بعض العقلاء في ابطاله ادعى أن الأهالي لم يرتضوه حيث كان مخالفا للتراتيب الشرعية المألوفة مع أن روح الشريعة هو المحافظة على الأبدان والأموال والأعراض والأهالي انما عارضوا في مضاعفة الأداء ولم يفلحوا ولذلك تجهزت عامة الايالة وقاوموا لمعارضة هذا الأمر وطلبوا أولا بواسطة زعمائهم تخفيف هذا الأداء بما هم عليه من العسر المالي الذي جرّ اليه اطلاق أيدي الولاة ثم لما أصر الوزير على تنفيذه ثارت الجهة الشمالية تحت رئاسة رجل من قبيلة ماجر يسمى **علي بن غذاهم** فتولى زعامة هذه الثورة وكان متقلدا خطة القضاء بتلك الناحية فالتفت عليه القبائل من كل جهة وخضعوا لأوامره فثبطهم أولا ريثما يراجع الدولة بواسطة رئيس المجلس الشرعي الشيخ احمد بن حسين فوجه اليه خطابا يتضمن استعطاف مراحم الدولة في تخفيف وطأة الضرائب على كاهل الرعية التي أنهكتهم وشتتت شملهم وتركتهم تحت أديم السماء والأرض وطائهم والسماء غطاءهم وطلبوا تعديل الضرائب واجراء العدل فكان جوابهم أن وجهت الدولة فرقا عسكرية لغصبهم على الأداء وارضاخهم لأوامرها فاستعدوا لمقاومتها واتسع الخرق وقامت الجهة الجنوبية ايضا تحت زعامة رجل يسمى فرج بن دحرة وذلك سنة 1280 هـ، **فعمت الثورة جميع انحاء المملكة** ولم يبق للأمير نفوذ سوى في العاصمة واتسع نطاق الفوضى واخذت القبائل في قتل القواد الموجهين من طرف الدولة ومن انضم اليهم فقتلوا العربي السهيلي قائد ماجر الذي بلغهم عنه انه نصب شبكة ليخدعهم بإيقاعهم في حبالة الحكومة وقتلوا فرحات احد مماليك قصر الوالي المتولي قيادة وطن الكاف لأنه جاء في طائفة من الفرسان لغصبهم على الأداء فاعترضوا له وفتكوا به وبمن جاء معه وهاجت العربان وماجت ولما تحقق الوزير من عجز الدولة على مقاومتهم سيما والعسكر الذي هو عضد الدولة اغلبه من الساحل فلا يروق له قتال اخوته على الخضوع للظلم وأخذ في استمالتهم بواسطة بعض المرابطين ونعني بهم شيوخ الزوايا وتعهد لهم بتخفيف وطأة الضرائب واعفاء القائمين بهذه الثورة من المؤاخذة وامنهم على اموالهم وابدانهم

فانخدعوا لذلك وألقوا ما بأيديهم من السلاح ولم يمهلهم الا ريثما تفرقت جامعتهم وانتثر سلك عصبيتهم حتى أخذ في الانتقام منهم بجميع وسائل الانتقام كما يأتي بعض تفصيل ذلك ثم لما رأى أبواب المعاملة سدت في وجهه وجفت موارد الدولة وعجزت عن تسديد الضروريات ابتكر طريقة عجيبة لاحتكار ما عساه ان يكون بقي من المتمولات في يد الأهالي وذلك سنة 1281 هـ فضرب قطعا من النحاس سكة «الكبرى نصف ريال» والوسطى بربع ريال والصغرى بثمنه وراجت للدولة بذلك ملايين من الريالات ثم بعد مدة قليلة أنزلها للربع فصار نصف الريال ثمنه وربعه نصف ثمنه وثمنه ربع ثمنه وظاعت على الرعية ثلاثة أرباع كسبها سدى مع ما هم عليه من ضعف الحال. وفي هذه السنة وقعت فتن وحروب بين القبائل البدوية والعشائر الحضرية وأضرمت نار العداوة الكامنة بين الأحزاب الباشية والحسينية وجر ذلك الى نشوب فتنة بين أهل توزر وسرى لهيبها الى الوديان فثارت بها فتنة كبيرة أيضا سفكت فيها دماء غزيرة والسبب في ذلك ان عشيرة الزبدة أنشؤوا مساكن كان أهالي عشيرة أولاد سيدي عبيد تمر نساءهم عنها ليلا ونهارا للوادي فرأوا ان بناء المساكن في طريق نسائهم ربما يعوقهم عن المرور من هناك أو يؤدي الى ما لا يحسن ذكره وكان الشيخ يونس أحد اعيان عشيرة أولاد سيدي عبيد قاضيا بتوزر فنهى بعض المتعرضين للنسوة وخوفهم وأنذرهم وحذرهم سوء العاقبة فقام بعض الأوباش وأهانه إهانة منكرة فرجع الى عشيرته على حالة فضيعة فأوقد في صدورهم نار الحمية وأثار ثائرة الانتقام واجتمعت من عشيرته طائفة متقلدة سلاحها هجمت على عشيرة الزبدة للفتك بمن أهان ابن عمهم فتعرض لهم بعض أفراد عشيرة الزبدة لصدهم بالقوة فلم يمهلوهم وأطلقوا عليهم الرصاص فقتلوا منهم جماعة فاشتعلت نار الحرب بين الفريقين وتشيع لكل فريق حزبه ومات من الفريقين عدد له بال وسرى لهيب ذلك الى الوديان وقامت الحرب على قدم وساق بين كريز ودقاش وبين من تحزب لكل فريق منها ولولا تداخل بعض الموفقين لاخماد هذه الفتنة لامتد لهيبها وكانت العاقبة وخيمة وفي سنة 1282هـ عزم الوزير ان يعيد الكرة على الرعية انتقاما منها فجهز جيشا تحت رئاسة ولي العهد وجيشا تحت رئاسة احمد زروق وجيشا تحت رئاسة رستان لاخضاع شوكة الرعية فأفنى قبائل الايالة وكسرها ببعضها وأحيى ما كان كامنا من الضغائن والأحقاد بين الأهالي منذ أحقاب وسلطهم على بعضهم وأضرم نار الفتن بينهم فسفكت الدماء أنهارا وأحرقت من المزروعات أكواما وفي سنة 1284 لم يقع حرث ولا زراعة لأنه صادف تشاغل الأهالي في السنتين قبلها بالثورة ودفاع المهاجين وتعطلت بذلك التجارة لانقطاع المواصلات بين البلدان وكسدت الصناعة أيضا لعدم من يطلبها زيادة عما وقع من النقص في الأموال والأنفس والثمرات فوقعت مجاعة عظيمة فأفنت ما يقرب من ثلث الأهالي ثم أعقبها مرض الهيضة الناشي عن تعفن الأموات من البشر والبهائم فأفنى معظم الباقي وما بقي لا يبلغ الثلث فتضايقت خزينة الدولة وقل موردها حتى عجزت عن نفقات الأمير الخاصة وحاشيته فضلا عن القيام بنفقات الجند واللوازم الدولية وألحّ الدائنون في المطالبة بفوائض ديونهم وانقبض الماليون عن المخاطرة بأموالهم في قرض الدولة حتى قال بعضهم بلغ من عدم ثقة الماليين بالدولة انه لما وجهت الحكومة سفيرها المسمى برشيد الدحداح لأوروبا لاقتراض شيء من المال باسم الدولة التونسية وسلمت له كمية من الأوراق حوالة على خزينتها وقدمها للصيرفيين امتنعوا من قبولها ولو تجاوزت فوائضها المعتاد فرجع بخفي حنين ولما بلغت المضايقة المالية لهذه الحالة أشار بعض المفكرين من رجال الدولة على الباي تلافي الأمر فينتقي من رجاله من يوثق برأيه ودينه ويستعين بهم في تدبير شؤون الدولة وترقيع ما تمزق من أديمها فطلب من خير الدين التداخل في الوزارة والاستعانة بمن يرى فيه أهلية للسعي في تدبير الشؤون السياسية والادارية والاقتصادية والمالية وذلك سنة 1285 هـ وهو رجل من جبال الجراكسة جلب في حداثة سنه لقصر الوالي احمد باي وتربى في حجر مصطفى خزندار مع بعض رفقائه مثل حسين ورستان فتعلم القرآن عن بعض الحفاظ وتلقى بعض العلوم الدينية والأدبية عن بعض العلماء التونسيين وأدخل للمكتب الحربي الذي أنشأ بقصر باردو ثم ارتحل الى أوروبا فارتضع لبان الحرية والعدل وشاهد ما عليه الاروباوية من النظامات الادارية والمالية والعدلية والمساواة في الحقوق الانسانية بين الراعي والرعية وطبقها على حالة الأمم الاسلامية وما تعانيه من السيرة الاستبداد من ملوك الاطلاق وخصوصا ما عليه بلاده التونسية من الحالة الأسيفة التي خربت القصور وعمرت القبور يئنّ لها الحزين وأوشك ان ينعق فيها غراب البين فرأى أن تداخله في الوزارة لا يبرىء علة ولا يطفي غلة فامتنع من التداخل اولا لعلمه ان اصلاحات الوزراء لا تستقيم معه استبداد الأمراء ثم بعد إلحاح قبل بانخراطه في سلك الوزارة بوظيفة مخترعة يسمى صاحبها بالوزير المباشر عسى ان يتوصل الى ترقيع ما تمزق من أديم الولاية وترميم ما انهدم من بنائها وفي سنة 1286 هـ ابتدأ في ضبط الديون التي على الدولة وترتيبها بجعل ادارة مخصوصة لها سماها بالكمسيون المالي لضبط مداخيل الحكومة وتنظيمها على نسق يكفل بتخصيص بعض فصول من الدخل لخلاص فوائض الديون واستهلاك ما أمكن استهلاكه من الأصل تديرها لجنة مركبة من رجال الحكومة تحت مراقبة واشراف رجال انتخبوا اعضاء من الفرنسويين والانكليزيين والايطاليين تنتخبهم حكوماتهم اللاتي لرعاياها ديون على الحكومة التونسية فحرر ما على الدولة من الديون وجمعت أوراقها وجعل لها اعداد رتبية ليسهل ضبطها وسجلت بدفتر مخصوص تحت نظر المجلس الذي رئيسه كبير وزراء الدولة التونسية وله مراقبة الدخل والخرج فانتظم الامر وخلصت فوائض الديون في مواقيتها حتى حصلت الثقة بمالية الدولة وفي هذه السنة صدر امر باسقاط ثلثي قانون بلد نفزاوة من عمل

الجريد الذي هـو مرتب على النخيل . كل نخلة ريـال وثمن الريال الذي هـو سبعة وستون سانتيها فصار اثني وعشريـن صانتيها ونصفا وفيها أنشأت سكة حديد بين تونس وحلق الوادي أعطت امتيازاتها لشركة انكليزية ثم بعد مدة حولتها لشركة طالينانية ثم حولت لشركة فرنساوية

وفي سنة 1287 هـ صدر أمر باعفاء الطلبة المتعلمين بجامع الزيتونة من الأداء الشخصي المعبر عنه بالمجبي وفي سنة 1287 عزل علي الساسي عن قيادة الجريد وابدل بعبد الرحمان بن عمر الذي يدعونه رحومة وسعى في عدة اصلاحات وساعـدته الحكومة على انجاز بعضها لكن من سوء الحظ لم تطل مدته فلم يلبث الا نحو أشهر قليلة وأبدل بحسين حيدر أحد مماليك قصر الوالي وعزلت الحكومة عدة قواد فعزلت ابراهيم بن عباس قائد دريد وعلي بن خليفـة قائد الأعراض واحمد بن يوسف قائد أولاد رضوان من الهمامة وغير هـؤلاء ممن جالت أيديهم في أحوال الرعية وأموال الدولـة . وجعل عبد الله السوداني خليفة لحسن حيدر وقد حاول هذا الأخير ان يساعـد حزبه وأهل عصبيته على اثارة بعض القلاقل ليستفيد من ذلك التشفي والانتقام من بعض اضداده فلم ينجح لتيقض عقلاء أهل البلاد وتفطن العامل لذلك وفي هذه السنة أصدر الوالي أمـره في عمل الحساب مع القواد والمقـابضين لأموال الدولة فشكـل مجلسا مركبا من نجبـاء الكتبة الحسابيين لحسـاب المكلفين بأموال الحكومة والرعية فأحضر أعيان الأهالي لتحرير الحساب وصورته أن يحرر الأهالي تفصيل ما دفعوه باسم الدولة سواء للمشائخ أو للخلفاء أو القواد فما أخذت فيه تواصل ممن ذكر يحرر على حدة وما لم يأخذوا فيه تواصل يحرر على حدة ويعرض على القابض فان أقر به سجل عليه وان أنكر استعملت وسائل التحقيق بالبحث والسؤال لبعض الثقاة منفردين ومجتمعين وهكذا حتى تحرر مقدار ما قبضه الولاة من الأهالي وتخلد بذمتهم من ذلك أمـوال طائلة لم يصل منها لصندوق الدولة شيء فشكل مجلس لمحـاكمتهم ومطالبتهم بما تخلد بـذمتهم فمن ثبت عليه شيء بالشهادة العادلة أو بالاعتراف حكم عليه به ودفعوا ذلك لصندوق الـدولة وما لم يثبت قبضهم له بما يوجب إلزامهم به بقي مثقلا على رقاب الأهالي ولكن الدولة لم تجد سبيلا لخلاصه لأن المكاسب التي هي مثقلة بالمغارم تداولتها عدة من المالكين في أدوار مختلفة وتواريخ متباينة فلم يحسن لدى الحكومة مطـالبة اشخاص ترتب الأداء على غيرهم في سنين غابرة وانتفعـوا بنتائج تلك السنين وهم لم يحصلوا على شيء من ذلك وربما استخلصه المكلفـون وذهب كامس الـدابر فتعين لـدى الحكومـة اسقاط تلك البقايـا السابقـة وأسقطتها بـالفعل وبها أصر به عبـد الله السوداني على ادراك مآربه من الاستمرار على التشيع لحزبه وأضر ذلك بعمل الجريد دفعـوا الامر الى الحكومة وقرروا لها ما ينشأ عن ذلك من المفاسد فبادرت بعزل الخليفة والعامل أيضا وقلدت عمل الجريد لمحمد المرابط القيرواني وذلك سنة 1289 وفيها توفي الشيخ ابراهيم بن عمر المعادي قاضي نفطة وعوض بـالشيخ العروسي التابعي المعادي وفي هذه السنة أوفد أهل الجريد وفـدا من أعيانهم على الحكومة ووقع التفاهم مع رجـالها في شرح الأسباب التي اخـرت الحالة الاقتصاديـة بالجريـد والأسباب التي عطلـت استخلاص المطالـب الدولية فقـرروا أن أهم الأسباب هو احصاء عـدد النخيل بأكثر من الموجود وتراكم الضرائب المتكررة عليه فتسبب عن ذلك زهد الأهـالي في الغراسة وبقي المرسوم عدده في دفتر الدولة مثقـلا عليهم وما يسقطه من النخيل يستمر أداءه كذلك ولذلك يطلبون احصـاء عدد النخيل فصدر الاذن بذلك وعين لذلك ضابط عسكري يسمى علي جهان ومعه أمير وكتبة ومعهم عرفاء من الأهالي يستعينون بهم فيما خفي عليهم وتم الاحصاء بغاية الضبط والتحري وعـرض على الدولة فـوافقت على ذلك ونقص من عدد النخيل والزيتـون المثقل على بلاد الجريد نحـو النصف واستمر الأداء على مقتضى هذا الاحصاء وفي سنة 1290 **عزل الوزير مصطفى خزندار** واستولى مكانه خيرالدين لأسباب يأتي شرحها بعد وهي أن اللجنة المالية المعبر عنها بـالكمسيون لما تعقبت أوراق الديـون التي هي حوالـة على الخزينة الدوليـة التونسية وجـدت كمية عظيمة من الأوراق قـد تكرر تحويلها اذ تبين بعد التحقيق والتدقيق انه تكرر تحويلها ثانيا بعد خلاصها لمنفعته الذاتية وعقد مجلس لمحاكمته مركبا من رجال الدولة وبعض أعيان العلماء ونشرت المسألة لدى المجلس وبعـد الأخذ والرد حكم عليه المجلس بأداء خمسة وعشرين مليونا من الريـالات لصندوق الدولة التي هي عبارة عن خمسة عشر مليونـا من الفرنكات وفي هذه السنـة أسقط قانون الوطن القبلي وأبـدل بالعشر وفي سنة 1291 هـ صدر أمرا بترتيب أعمال الشهود بجعـل دفاتر مخصوصة يـدرجون بها مـا تحملوه من الشهـادات اشتمل الترتيب على عدة فصول محصلهـا ضبط تحمل الشهادات وأدائها ضبطا محكما لحفظ الحقوق المتبادلة بين الهيأة الاجتماعية وفي هـذه السنة صدر الأمر بتأسيس جمعية الأوقاف وهي عبارة عن لجنة مركبة من رئيس وأعضاء وكتبة وقـابض يديرون شؤون الأوقاف العامة قبضا وحرفا بواسطـة نواب عن الجمعية ووكلاء في سائر بلدان المملكة ومركزهـا العاصمة وفي هذه السنة أمر باعطاء المفتيين والقضـاة مرتبات كافية من فواضل الأوقاف العـامة المخصصة لما عينه المجلس وكانوا قبل ذلك يقتصرون على أجر طابع الرسوم والفتوى فقط .

وفي هذه السنـة أعني سنة 1293 هـ نهضت طائفـة من أعيان البلـد ناقمين سيرة الخليفتين العبيدي بـن الحاج احمد والخازن بن نصر الله وتوجهوا لمركـز الولاية لنشر ما انتقدوه على الخليفتين وانهاء امرهم للحكومة وكان من جملتهم المسمى البشير بن العبيـدي من عشيرة الزبدة كان أحد رؤساء الجنـد الخيالة وكانت له وجاهة واعتبـار ثم عزل وصودر على مال غرفه وانزوى تحت طي الخمـول وكانت بينه وبين الخليفة العبيدي ضغـائن وأحقاد كامنة في طي الـرماد حتى أضرمها الخليفة فأحـرقت بشررها جميع أهل الجريد كل واحـد على قدر قربه وبعـده منها

وذلك ان البشير بن العبيدي بلغ به الفقر الى درجة التكفف فصار في حالة يرثى لها وكان العبيدي بما له من البغض فيمن ذكر يترصد له الفرص لاتخاذ الوسائل للانتقام منه فيطالبه بمغارم حتى اذا عجز عن تسديدها يعامله بضروب الاهانة فلما أعياه ذلك انضم الى من قاموا من أعيان البلد ودبر مكيدة للانتقام من الخليفة فجرّت أعظم الضرر الى عموم الأهالي في أموالهم وأبدانهم وذلك انه قدم تقريرا لخير الدين تضمن ان الخليفة تحايل مع الأهالي وأخفوا من النخيل عن المكلفين بالاحصاء حتى نقص على صندوق الدولة عدد ليس بالقليل فاهتز خيرالدين لهذا الحادث ورأى ان هذا الأمر من كفران النعم حيث أن الأهالي كانت مثقلة عليهم مئات الآلاف من النخيل لا وجود لها يغرمون عليها المغارم الثقيلة وقد زالت بتحرير عدد النخيل تحريرا حقيقيا ويدلسون على المأمورين بإخفاء بعض الموجود ولا يقنعون بالحق وتفوت عنده هذه الدعوى بالنفع الفاحش والتفاوت بين الاحصاء الأول والأخير وما درى أن السبب في ذلك أمران جديران بالاعتبار احدهما ان ملاكه النخيل والزيتون لما أدركوا ان صواعق المغارم التي تصب صواعقها على رؤوسهم لا تتناول غالبا الا أرباب النخيل فزهدوا في الغراسة والتعمير وربما عمدوا الى قص النخيل واعدامه بالمرة لتنقص عليهم مغرمته حيث انهم علموا أن الحكومة أمرت باحصاء النخيل وقد تقرر في أذهانهم ان المغارم تسلط على عدد النخيل كما قرر والثاني ان المأمورين الذين تكلفهم الحكومة باحصاء النخيل لم يكن منهم احصاء العدد الحقيقي بل القصد الوحيد ان يحرروا عددا ليتذرعوا به الى توزيع المغارم على أربابه ان كان يصح اطلاق التوزيع عليه ثم ان المأمورين بما لهم من العلم بمقاصد الدولة ليس لهم اهتمام بشأن الرعية بل مطمح انظارهم فيما يرضي الدولة فيتجازفون في اثبات العدد من غير شفقة فيرسمون في دفاتر الاحصاء على الملاكة ما يمليه عليهم حب التزلف للحكومة ولذلك لما اهتم الوزير خير الدين بالاعتدال في توزيع الضرائب وتحري الاحصاء الحقيقي ووجد من يوثق بأمانتهم نقص مما هو مثقل على رقاب الملاكة نحو النصف وفي سنة 1292 هـ أحدثت **المدرسة الصادقية** وهي عبارة عن مكتب تزاول فيه العلوم الدينية والأدبية وبعض العلوم الرياضية واللغات الاجنبية على نفقة الحكومة ثم خصصت لها أملاكا اشترتها من الوزير مصطفى خزندار وقاصصته ثمنها مما تخلد بذمته لخزينة الدولة وأوقفتها على هذه المدرسة يصرف متحصلها في القيام بشؤونها . وكان لهذا المشروع الجليل اثر جميل يحق للأمة التونسية أن تلهج بالشكر لمبتكره لأن هذه المدرسة نفخت في الأمة روحا كانت هي الوسيلة لاحتكاكها بالعناصر الحية فلو سارت في تعليمها على مقتضى البرنامج الذي رسمه الواضع لنهضت نهضة تضارع بها المكاتب المعتبرة ولا ينبغي لنا أن نتناسى ما لها من الفضل على الأفراد الذين استنار بهم سماء الأمة التونسية التي تعلمت ما لها من الحقوق الانسانية بعد أن مات شعورها ولبثت أحقابا ترصف في قيود الاستبداد معتقدة أن من حقوق الدولة ان تعاملها معاملة السوائم ولولا سقوط خيرالدين من الوزارة وابداله بغيره الذي كان سببا في تقهقر هذه الدولة لتقدمت المدرسة في درجات التعليملكن إذا أراد أمرا هيأ أسبابه .

وفي سنة 1294 هـ صدر الاذن بإعادة عدد النخيل وكلفت لجنة تستأنف ذلك واختبار عدد الرجال مما وجد زائدا على الاحصاء الأول يضاعف عليه أداء أربع سنين ، بحيث يصير المغرم على المائة نخلة من المطلق ألف ريال ومائة ريال وهي عبارة عن ستمائة وستين فرنكا وضعفها على الدقلة وعلى الرجل الواحد الذي أخفى ثلاثمائة وستون ريالا ويدفع مثل ذلك الخلفا والمشائخ وكلف بذلك أحد أعوانه المسمى احمد الجويني وأطلق له العنان في استعمال جميع وسائل الضغط سواء بالسجن أو الضرب المؤلم والتقييد في السلاسل والأغلال من ضروب التعذيب البدني وقاست من ذلك الأهالي ضروب الشدائد والأهوال ما لم يكن في الحسبان فما كانوا تناسوه ومن وجد عنه الزايد ولو نخلة واحدة فليستعد لذلك ولما رأى الناس هذا الهول الشديد عمدوا الى قص نخيلهم الذي أفنوا في تحصيله أعمارهم ليستريحوا منه حتى لا يكون وجوده مصيبة عليهم في أبدانهم وأموالهم ولما بلغ ذلك احمد الجويني وجّه أعوانه للبحث عن الذين فعلوا ذلك ولو بأدنى شبهة ومن توجهت عليه تهمة القص فبشره بالويل والثبور فسجن من أعيان البلاد ووجهائها عددا ليس بالقليل وأوثقهم كتافا وأودعهم بيوتا مظلمة أكواما على بعضهم وهذه المظلمة سوّد خير الدين بها تاريخ حياته حيث صدرت عن ارادته وكان من غيرة القدرة الأزلية ان عجل الله بموت احمد الجويني الذي وجهه لتنفيذ هذه الأوامر الصارمة وقد مات فجأة وترك السجون محشوة بالمظلومين ولم يطلق سبيلهم الا بعد مدة كما تخلى خيرالدين عن الوزارة قبل استيفاء خلاص هذه المظلمة وتقلدها محمد خزندار فسقط هذا الأداء المضاعف على اربعة اقساط قسط يدفع معجلا وهو النصف والنصف الثاني يقسط على أعقاب ثلاثة سنين فهان الأمر نوعا واذا تأمل المنصف جليا فيما سلكه خير الدين من الانحراف عن منهج العدل وما ارتكبه من الاعتساف نحو أهالي الجريد يتضح له سوء مغبة الاستبداد بالرأي اذ لو استدعى أعيان البلاد وتفاهم معهم لأبطلوا هذه الوشاية وبرهنوا على ذلك ببراهين لا تقبل الطعن وبينوا له الأسباب والعلل الذين تسبب عنهما هذا التفاوت الجزئي في بعض الأجنة أخصها ان العرفاء الذين تعينوا صحبة أمير العَدَل لا تخفى عليهم حدود الأجنة اذ هم انتخبوا لذلك ويبعد تواطؤهم مع الملاكة وعلى فرض وقوعه فالدرك على الحكومة

وأعوانها لأنها لم تجعل العهدة على الملاك حتى تؤاخذه ومع ذلك فلا أجنة محوطة بسياجات حافظة للحدود وبعضها بحفير او جسر مرتفع على سطح الأرض وعند الشروع في العد يقف المالك في الحد حتى لا يضاف لجناته من جنان جاره ما يخشى منه ان يثقل عليه أداءه وكذلك جاره فيخشى مما خشي منه جاره فكيف يتسنى لملاكة النخيل الاخفاء والحالة ما ذكر وانما الذي اعتبره زيادة على العدد الأول في بعض الأجنة فسببه ان اللجنة الأولى قابلت الأهالي بوجه الشفقة وعاملتهم بميزان العدل فتحرت الأنصاف في الاحصاء ومع ذلك فالمكلفون اذ ذاك منتخبون من صفوة الثقاة وأما اللجنة الثانية فقابلت الأهالي بوجه السخط وسيف الانتقام ومن عرف احمد الجويني الذي هو رئيس اللجنة الثانية وما هو عليه من التهور وعدم الرحمة يعلم أن الوزير خيرالدين انما قصد بتوجيهه لهذه المسألة حب الانتقام والتعصف فلا عجب اذا تعمد الزيادة في الاحصاء ومع ذلك فقد يجد ذريعة لذلك لكن أجنة النخيل مشتملة على أصناف فمنها الذي سنه خمس سنين فأقل ومنها ما هو أكثر من عشرين سنة وما دون العشرين وقد لا تثمر ما دون العشرين سيما اذا كانت غير منكشفة للشمس فمن راعى الانصاف لا يعتبر الا المثمر ومن سلك سبيل الاعتساف يدخله في سن الأداء وكذلك النخيل الذي أنهكه الضعف فإنه يوجب الانصاف بطرح من الاحصاء ومن لم يرع ذلك دخله في سن الأداء وهكذا فعلت اللجنة الأخيرة وبها تقرر تعلم أن ما ارتكبوه من الشطط في هذه المسألة لم يكن مبنيا إلا عن سوء نية اذ لم يرتكب اهل الجريد أدنى ذنب يؤاخذون عليه ولكنها الأهواء عمت فأعمت. ومما يحسن ذكره هنا ليكون حجة دامغة على خير الدين من سوء مغبة الاستبداد ما حكاه هو بنفسه في تأليفه الذي سماه، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، في صحيفة 17 منه بأنها وقعت بينه وبين أحد أعيان أروبا محاورة فجرّ الحال الى الاسهاب في مدح ملكهم وذكر له من مزيد المعرفة بأصول السياسة حتى قال انه متقيد بطبعه عن سلوك غير منهج الصواب فقلت كيف تشاحّونه في الحرية السياسية وترومون مشاركته في الأمور الملكية فأجابني بقوله من يضمن لنا بقاءه مستقيما.

وذكر في صحيفة 18 منه ان المؤرخ الشهير تيارس أحد اعضاء مجلس النواب والذي كان وزيرا للملك لويز فليب في آخر تاريخه المشهور عند ذكر عواقب الاستبداد وان العمل بالرأي الواحد المذموم ولو بلغ صاحبه أقصى الكمالات وأسمى المعارف بعد ما ترجم لنابليون الأول بأوصافه الخاصة وألحقه في السياسة بأفراد الرجال الذين جاد بهم الدهر في القرون الماضية مثل اسكندر المقدوني وقيصر الروماني وذكاء حنبعل القرطاجني ومعارفه الحربية الى أن قال بعد التنويه به فلم نعتبر بغلطاته فنتجنبها ثم نستفيد معشر أبناء الوطن تربية أخيرة لا يسع نسيانها وهي أنه لا يسوغ أبدا أن يسلم أمر المملكة لانسان واحد بحيث تكون سعادتها وشقاوتها بيده ولو كان أكمل الناس وأرجحهم عقلا وأوسعهم علما ونحن وان كنا لسنا ننتقد أعمال نابليون في افتكاك فرنسا بعدما أشرفت على الضياع لكن نرى ان وجوب استخلاص المملكة من تلك الأيدي الخاسرة لا يكون حجة في اسلامها ليد قاهرة متهورة لا تبالي بشيء ولو كانت يد المنتصر في رفلي وَمَرَنْقُو على انا نقول ان كان هناك أمة تعذر عذرا ما في تسليم أمرها لشخص واحد فلا تكون غير الأمة الفرنساوية في ذلك الوقت أعني سنة 1800 حين استرأست نابليون المذكور عليها والناس اذ ذاك فوضى لاسراة لهم ولم يكن المشير عليهم بذلك قاصدا مجرد تخويفها لالجاءها الى قيود العبودية بل كان الخوف محققا بالمشاهدة الى أن قال فبينما هم في لجج الهرج اذ أقبل عليهم ذلك الشاب المنصور من المشرق الذي ذلت اليه صعاب الأمور العاقل المتواضع المغري باستمالة قلوب البشر وهو نابليون المشار اليه افتراهم لا يعذرون في القاء زمامهم اليه والحالة هذه.

إذا لم تكنْ إلا الأسنّـــــةُ مُركبًـــا فـــلا يسَــعُ المضطـــر إلاّ ركوبُـــها

ومع ذلك فلم تمض إلا سنوات قلائل اذ انقلب ذلك العاقل مجنونا غير مماثل لجنون أرباب الثورة والجنون فنون فإنه تقرب بمليون من النفوس في ميدان الحرب وحمل اهل اوروبا على التعصب على فرنسا حتى بقيت مغلوبة غريقة في دمائها مسلوبة من نتائج انتصارها عشرين سنة فمن كان يظن ان عاقل سنة 1800م يجن سنة 1812م الخ، ونحن نقول من كان يظن ان عاقل سنة 1286 يجنّ سنة 1294هـ، لأن خير الدين في مبدإ امره خلص البلاد التونسية من مخالب الذئاب ورتب فيها من التراتيب النافعة ما خلد له جميل الذكر لكن ختمه بهذه المظلمة فسود بها تاريخ حياته وفي سنة 1295 هـ استعفى خيرالدين من الوزارة وتقلدها محمد خزندار وهو الذي قسط الغرامة التي يسمونها المضاعفة والتي نزلت على بلاد الجريد كالصاعقة وفي آخر هذه السنة استعفى محمد خزندار وتقلد الوزارة **مصطفى بن اسماعيل** وحينئذ جاء دور الانقلاب السياسي والاداري لأن هذا الرجل لم تكن له أهلية ولا استعداد لمباشرة الوزارة فلم يحسن معاملة الدول الأجنبية ولا ادارة شؤون البلاد لأن معاملتهم في الحقيقة سياسة مجاملة ومدارات شأن الضعيف مع الأقوياء وإدارة شؤون البلاد قرارها الرفق وتوطيد الأمن والعدل في الأحكام بل أطلق التصرف لشياعه الذين قلدهم قيادة الأعمال وصارت الولايات تباع بالمزاد ويطلق عنان التصرف لكل من تقلد عملا في النهب والسلب أولا لخلاص ما دفعه ثمن الولاية وثانيا لتسديد مطالب الوزير وأتباعه التي تتساقط كأوراق الخريف وقد نشأت في

مدة هذا الوزير عدة مشاكل ففي سنة 1296 هـ كانت بعض بلاد نفزاوة المسماة (جمنّة) التي لها اعتبار عظيم في نظر العموم لما لها من الأهمية بالنظر لما عليه أهلها من الاقبال على مناهل العلوم الدينية والأدبية فضغط عليها عامل الجريد اذ ذاك محمد المرابط وطالبها بدفع أموال لا طاقة لهم بها ولا قدرة لهم على الوفاء بها فاعتذر أهلها بالعجز وطلبوا التخفيف او التقسيط فلم يسعفهم بذلك وعرض امتناعهم على الوزير بن اسماعيل فبدلا أن يأمره باستعمال وسائل الرفق في استخلاص ما ضرب عليهم من المغرم، استصدر أمرا في تجنيد العساكر النظامية والاستعانة بالقبائل الذين لهم عليهم ضغائن وأحقاد وهجموا عليهم كالوحوش الكاسرة فعاثوا في البلاد بالقتل والحرق حتى تجاوزوا الى قتل النساء والأطفال والشيوخ المعتكفين في المساجد الذين حرم الله قتلهم حتى من الكفار ثم جمعوهم أكواما وحثوا عليهم التراب وارتكبوا من الفضائع ما تقشعر منه الجلود ونهبوا جميع ما وجدوه من المكاسب وتركوهم حفاة عراة وشتت الباقي منهم شذرا مذرا واصبحت تلك المدينة الزاهرة قفرا تندب حظها سوداء من أثر الحرق لابسة ثياب الحداد وفشا داء هجوم الأعراب على بعضهم واختطافهم بضائع القوافل ثم تذرعوا للاغارة على الأعراب الجزائريين الذين هم من رعايا فرنسا وأخذوا ينهبون فأنهى حكام الجزائر الأمر الى دولتهم فسجلت ذلك ثم طالبت الحكومة التونسية بتعويض ما ضاع لعرب الجزائر وايقاف الأشرار فلم تجد أذنا واعية كما ان الوزير مصطفى بن اسماعيل لجهله بمركز حكومته أمام دول أوروبا وخاطر بها فركن لقنصل ايطاليا وآثرها ببعض امتيازات تنافي السياسة التي يجب سلوكها اذ من الواجب ان يعامل دول أوروبا كلها معاملة واحدة بالمجاملة احترازا من اثارة غضب الباقين واذا كان نوع امتياز فلا يكون الا لدولة فرنسا لوجوه، **أولها** العلاقة التي بين الحكومتين وهي العهود الوثيقة والروابط العتيقة الرابطة لهما، **ثانيها** الجوار الذي بين الجزائر وتونس القاضي بامتزاجهما بالمصاهرة والمتاجرة وجميع المصالح المتبادلة بين المتجانسين، **وثالثها** شعور هذه الدولة بالسطوة والعظمة فلا تسمح نفسها بتقديم غيرها عليها فيما هي اولى به ولهذه الأسباب هاج غضب الدولة الفرنساوية وساقت عساكرها برا وبحرا على البلاد التونسية طالبة توطيد مركزها بتونس فاحتل اسطولها مرسى بنزرت بحرا واحتلت عساكرها قلعة الكاف برا وخيمت بجنودها على الحدود التونسية وألحت في عقد معاهدة تضمن للطرفين حقوق المصالح المتبادلة وتحول بينها وبين الاطماع التي تخيم حول بعض الدول الأوروباوية وقدم وزير خارجيتها لدول أروبا بواسطة سفرائه في العواصم لائحة في أسباب احتلال العساكر للبلاد التونسية دفعا لما عسى ان يتوجه على دولته من الانتقاد، ونص تعريبها في 9 **مارس سنة 1881** (1)

أيها السيد أتشرف بأن نرسل لكم جملة رسائل في شأن تونس ونريد ان نحقق لكم المقصود اجمالا ونخبركم عن سبب ارسال العساكر الآن وعن النتيجة التي نرجوا تمامها. فكم من مرة قد عرفت الدولة الجمهورية بدواعيها ومقاصدها وانتم تتذكرون ذلك خصوصا ما صرح به السيد رئيس الوزارة في المجلس العام وهو لا يمكن أن يكون فيه ادنى شك من جده وصدقه ومع هذا فإني أريد زيادة الايضاح لكم لينفعكم لدى الدولة التي أنتم عندها فنقول ان سياسة فرنسا في تونس ليس لها إلا مقصدا واحدا وهذا المقصد الذي يكفي لوضوح موضوع سيرتنا منذ خمسين سنة نحو المملكة هو الواجب علينا لحفظ راحة مستعمراتنا العظمى الجزائرية. فمن سنة 1830 لم تأت دولة من الدول المتابعة وتركت هذه المهمة العظيمة وأنا لنعمل الواجب علينا لحفظ مستعمرتنا الافريقية ولا يوجد احد من اروبا ينكر علينا ذلك لحفظها من جار عدو كثير الأراجيف وقد كانت القبائل التونسية مخوفين ومحاربين حتى فيما بينهم وقد فاق الجميع قبائل وشتاتة والفراشيش وخمير ولا تعرف كمية المحاربين ولا قوتهم ولذلك التزمنا الآن أن نرسل لهم من العساكر عشرين ألفا وانهم المتحصنون في بلاد منيعة تقريبا وكان الداعي الأول لارسال العساكر قهر قبائل حدودنا الشرقية ولكن لا فائدة في تقرير الأمن والراحة وأعداءنا لازالوا يهددوننا ونحن لا نخاف من الهجوم الكبير المنسوب لتونس وحدها لكن النظر القليل في العواقب ألزمنا التحري من اتخاذ الباي مع غيره وهذه التشويشات يمكن أن يأتي لها وقت وتقلقنا كثيرا في الجزائر وتصل الى فرنسا فيلزمنا بناء عما ذكر ان يكون لنا عند الباي محبة كبيرة واتفاق قلبي ويلزمنا جار يعوضنا المحبة التي لنا عليه ولا يسمع التشويشات الخارجية لضررنا واستحقار قوتنا الراسخة وقد وضحنا منذ أربعين سنة بأنه يلزمنا المحافظة على فرنسا الجزائرية بأن نحصل في المملكة على قاعدة راسخة ونحن نحترم بالتدقيق منافع الأجانب وهم يقدرون أن يتوسعوا بثبات مع فوائدنا والدول يتحققون أن مقاصدنا من جهتهم لا تتغير والى هاته المدة الأخيرة اتحاد منافعنا مع الباي المعظم مستمر الا ما يحدث احيانا من الاختلاف في التعويضات لقبائلنا المضرورين ثم في الحين يرجع الاتحاد ويزداد ثبوتا بعد هذه الاختلافات الصغيرة الا هاته المدة الأخيرة فإنه لأسباب يصعب الاطلاع عليها وقد تغير ميل الدولة الينا دفعة واحدة وكانت اذ ذاك الحرب ساكنة ثم لازالت تزداد الى أن وضحت وتقوت ومبناها ضد كل الامتيازات التي حصلت للفرنساويين في تونس مع شدة الارادة الردية الى ان وصلت لهذا الحال وهذا هو السبب الثاني لارسال العساكر الذي كنا نود التجنب منه ولكن بسبب السيرة الردية التي طالما صبرنا عليها التزمنا بما هو واقع ولو اننا بها ضمنا للباي المطالب الحقانية لأننا نعترف لتونس بأنها مملكة مستقلة وأما الحالة في الخلطة الآن مع الباب العالي فهي مخالطة محبة وميل طبيعي وبودنا لو كنا رأينا نازلة تونس في منظر آخر غير الذي عليه الآن ولكن قد بان ما يجب علينا مما ذكرناه سابقا واننا نقرر أن نستفهم من الباب العالي اذا كان

باي تونس هو وال من قبلهم فلماذا لم يمنعوا سيرته التي فعلها نحو فرنسا منذ عامين ولماذا لم يفتشوا ليمنعوا التحيير الموجود الآن الذي نحن منذ زمن بعيد كنا نسعى في عدم وقوعه ويلزم لهذا التعيير الذي نحن مجتهدون في حصره أن ينتهي بشروط تؤمن حدودنا من الهرج المستمر والتشويش المغري لباردو . اما من غيره او من نفسه فهذان هما المقصدان لارسال العساكر ولا نخف عندما نقول أن لنا في أروبا الرضى العام في جميع الجهات عدى التي بها النظر الفارغ المطمس للعقول وهذه أيها السيد التي خيمت حول الباب (العالي) وحول تونس ومن كلا الطرفين فنحن مشمولون بالمحلة وجميع ما نرجو من الباي هو أن لا يكون عدوا لنا ولو ان المملكة تنظر لعوائدها فتقرر ان تحصل من اتحادها معنا فوائد لا تحصى أكثر مما نحصله نحن منها ونقرر أن نأتي لها بكل خير من العمران الحاصل عندنا . ففي سنة 1847 م فعلنا البريد وفي سنة 1859 م و 1861 م فعلنا التلغراف وفي سنة 1877 م وسنة 1878 م فعلنا الشمندفير الذي طوله خمسون فرسخا من حدود الجزائر الى تونس وفي هذا الزمان نفعل لها شمندفيرين احدهما يربط تونس ببنزرت من جهة الشمال وطوله عشرون فرسخا والآخر يربط تونس بسوسة من جهة الجنوب وسنبتدىء عن قريب في ابتداء عمل مرسى تونس نفسها لتدخل المراكب من الشط ومن حلق الوادي حتى الى ذات القاعدة، ودين تونس وان كان رأس ماله مشتركا بين فرنساوي وانكلتيري وطالياني لكن اذا اعتبرت النسبة التي بينهم يوجد ان ثلاثة اخماسه لفرنسا وان الحنايا الجميلة لأدريان التي تأتي بالمياه العذبة لتونس قد اصلحها احد المهندسين الفرنساويين، ولما ترجع الخلطة فانا لا نزال نفعل اشياء حسنة ومنارات على الشطوط وطرقا داخلية توصل بين البلدان العامرة ونسقي الأرض بالترع الكبيرة في البلاد التي بها أنهر كثيرة ولكن هذه البلاد أهلها غير معتنين بتلك الأنهر وكذلك الغابات وكذلك استخراج المقاطع التي بها كل نوع من أنواع المعادن وكذلك ترتيب الفلاحة في الأراضي الحسنة التي للأجانب في المملكة والتي للأهالي ايضا وكذلك استعمال المياه المعدنية التي اكتشفها الرومانيون واستعملوها وبالجملة ان مملكة تونس خصبة غنية وغنى قرطاجنة القديمة يدل على ذلك وتحت الحماية الفرنساوية يمكن أن تزال جميع الحجب عن المنافع الطبيعية في هاته البلاد وتنتشر بشدة وبقوة الترتيب الجديد نقدر أن تزيد أشياء أخرى وهو انه اذا كان الباي يعتمد علينا في الترتيب الداخلي في المملكة فانا نفعل تعديلا لازما قارا وهذا الخير يسهل عمله من كيفية قبض المدخول ونرتب المخروج وترتيب دفاتر الحساب على مقتضى ما نفعله نحن في ماليتنا ومنه أيضا خير عظيم وهو ترتيب العدلية على مقتضى الأصول التي فعلتها الدول في ترتيب العدلية في مصر وفائدة هذه التراتيب لا ترجع لفرنسا وحدها بل ان المملكة يرجع لها النفع وكذلك لجميع الدول المتمدنة التي نحن منها ومن غير فتح ولا حرب فلا شيء يمنعنا من عملنا في تونس مثل الذي علمناه في جزائرنا والذي فعلته انكلترة في الهند، واذا جعلنا باي تونس متكفلا بمطالبنا الحقانية فهو دليل على ما نحسبه دائما من أن تونس مملكة مستقلة من غير أن نراعي بعض آثار للتبعية بالاسم فقط لأسياد تركوها منذ مدة قرون وقد تظهر تلك التبعية نادرا ولو تحسب المدة التي هي فيها مستقلة لكانت اكثر من مدة التبعية ففي سنة 1534 م - 941 هـ اخذها المشهور بربروس خير الدين أربع او خمس مرات بانتصاره على الاسبنيول في سنة 1535م - 942هـ بعدها أخذها شارل كان، وكذلك في 1553م - 961 هـ ثم أخذها داي الجزائر سنة 1570 م - 978 هـ ثم جوان النمساوي سنة 1573 م - 981 هـ ثم في طول القرن السابع عشر كانت تحت ظلم الانكشارية من غير حكم ورؤساؤهم الموسومون بالدايات كانوا اذ ذاك أربعين فقسموها تقريبا كالمماليك في مصر ثم في سنة 1705 م كان أحدهم المسمى حسين بن علي الذي أصله افريقي أو كرسيكي صار مسلما وكان احذقهم فعرف كيف يشدهم وقتل جميعهم واشتهر بالباي وبعصبيات العساكر أقام العائلة الحسينية ومن ذلك الوقت لم تزل الامارة فيهم على هيأة سيادة الاسلامية والآن مائتي سنة تقريبا وهم مستقلون والرابطة الحقيقية بينهم وبين الباب العالي هي رابطة دينية وهم يعترفون بالخليفة الا أنهم ليسوا تحت السلطان ومما يوضح هذا انهم لا يدفعون أداء له الا انه عند ولاية كل باي يرسل هدية غنية تعظيما لرئيس الديانة القاطن بالقسطنطينية وفي مدة الولاية فلا مسألة سياسية يمكن ان تذكر غير هاته التحية الودادية فليس لأمير المؤمنين حق آخر على باي تونس والمملكة تعقد شروطا كمملكة مستقلة مع الدول الأجانب وتعقد الاتفاقات وتكون لها قوة وذلك برضى الباي فقط . وعلى هذا النمط وقعت معاهدة مع فرنسا سنة 1742 م وكذلك في العام الثالث والعام العاشر وفي سنة 1824 م صارت المعاهدة المهمة وفي 8 أغسطس سنة 1830 م وقعت المعاهدة التي تمنع ملك العبيد والتلصص في البحر ولا يلزم التكلم على المعاهدات الباقية كالتي في صيد المرجان وأن الباب لا يحكم على الولاية الا حكما وقتيا وهو راض باستقلالها ومما يؤيد هذا أنه في القرن الثامن عشر لم يقبل تشكي دول أروبا من التلصص في البحر والسعي البربري وليس له حكم عليهم وهو ليس مولاهم وهو لم يضمن السرقات التي ارتكبوها والمخلة بالتجارة في البحر المتوسط . وان دول أروبا عملوا الحرب عشرين مرة مع المملكة من غير عقد حرب مع تركيا وفي سنة 1819 م كانت معاهدة ايكس لاشبيل قد حكمت على تونس بمنع التلصص في البحر من غير ان تطلب من الباب العالي التداخل على انه متسيد على تونس وفي سنة 1833 م عملت مملكة سردانيا ونابلي الحرب مع تونس من غير عمله مع الباب العالي لأنهم يرون مثل ما نرى ان تونس مستقلة ثم علاقة تونس مع فرنسا من وقت أخذ الجزائر على النحو السابق من غير واسطة تركيا ولما قدم لنا احمد باي في سنة 1843 م اقتبل بكل ما يلزم من التعظيم الملوكي وكذلك جميع أروبا لم تلم على ذلك والباب العالي لم

يتوجع من ذلك لأن ولي الدول موافق لرأي اللورد ابرسيا الذي يقول في تسجيله ضد أخذنا الجزائر المكتتب بتاريخ 23 مارس سنة 1831 م ان الدول الأروباوية مـن مدة طويلة يفعلون المعاهدات مع الـدول البربرية مثل الدول المستقلين وخصوصا تـونس فانها لا تحسب نفسها الا مستقلة والدليل الواضح الذي لا ينكره أحد هو عمل القوانين في تونس بويورلك وحلف عليها الباي الموجود بتونس محمد الصادق لما جلس على الكرسي في 23 أيلول سنة 1859 م مثل ما حلف اسلافه فإن قانونا منها وهو المسمى بالقانون النظامي لمملكة تونس قد احتوى على مائة وأربعة وعشرين مادة وانتشر بالعربي والفرنساوي في تونس وفي بونه ولم يصرح فيه الا بكلمة واحدة تقول السلطان ومما لا يقدر ان يشك احد معه في استقلال الباي ما نشر في الصحيفة الرابعة من المقدمة في ذلك القانون.

ونصه أن المتوظفين الكبار التـونسيين اختاروه بكلمة ليكون رئيسـا للمملكة على مقتضى الـوراثة المعروفـة في المملكة وفي ذلك القـانون فصول تامة شرحت الحقوق والواجبات للملك وحالة الأمراء من العائلـة الحسينية وحقوق وواجبات الرعايا وكيفية خدمة الوزراء وترتيب خـدمتهم والمجلس الكبير بـالمملكة والمداخيل والحسـاب ولا شك أن من يطلع عليهـا يقـدر ان يجد ذلك غريبـا اذا أراد ان يقيس على رأينـا الأوروبـاوي ومع هـذا فهو دليـل واضح على استقلال مملكـة تـونس وان ليست تحت يـد دولـة أجنبية وجميـع المعاهـدات التي بين الـدول الأوروباويـة ومملكة تـونس منذ مدة الثـلاثة قـرون الأخيرة لم تقل أبدا إلا مملكة تـونس وملك تونس ومنهـا خمسة عشر أو عشرون معـاهدة أمضيت بفرنسا فيها ذلك القـول وفي سنة 1868 المعـاهدة التي وقعت مع ايطاليـا مذكور فيهـا مملكة تونس وتونس نفسهـا لم تسم نفسها في قانونها النظامي الا الاسم الذي أطلقته عليها جميع الدول وهي أرادت ان توضح المزية التي لها بالاستقال والقدوة الموفقة له.

فبناء على ما سبق من الأدلة العظيمة والمتعددة فالباب العالي لا يقدر أن يتعجب من انكار فرنسا لسيادته على تونس حتى الى الآن نحن نقر بأن البـاب العالي شدد في طلبه منذ خمسين سنة وفي سنة 1835 م أدخل تحت سيادته طرابلس بعد ما ضبط التحيير الهائل هناك وأراد ان يعمم سيادته على تـونس إلا أن قوة فرنسا المضادة له منعته من قصده وبعد عشر سنين أي في 1845 م أتى مبينجي السلطان الى تونس ومعه فرمان ليقلد الباي منصب الولاية فلم يقبل منه ثم مضت عشرون سنة من غير تجربة ولكن في آخر سنة 1864 رجعت التخمينات القديمة وانما هذه المرة كانت المملكة بنفسها هي التي طلبت التقليد ولكن كان هذا من الغريب اذ وقع من الأمير الذي هو حتى ذلك الـوقت يعينه وهو يظهر المدافعة عن استقلالـه وهذا من الاشارات القويـة التي خوفت الباي من حالتـه أمام الباب العالي، فأرسل اذ ذاك أمير الأمـراء خيرالدين الى الاستانة ويأتي بالفرمان وهذه المرة أيضا عارضت فرنسا في ذلك وعوضـا عن الفرمان السلطاني فالباي ومستشاريه التزموا بالرضى بمكتوب وزيري متضمن لما في الفرمان ثم اغتنموا الفرصـة وقت مصيبتنا في سنة 1871 م وتممـوا ما كانوا ممنوعين منه سواء في مـدة لوي فليب الذي كان غالب أسطوله يمنع الأسطول التركي من القـدوم الى تونس أو في مدة الامبراطور (نابليـون الثالث) الذي لم يقلل من العـزم المشار اليه وفرمـان 15 تشرين الأول سنـة 1871 م الـذي اتخذوه تحت ظل مصيبتنا اشتهـر في 1، تشرين الثـاني في بـاردو وأعلن به خير الـدين بـاسم السلطان وقبل الذي كان طلبه، مع شيء من الغضب وفرنسا سجلت ذلك بقـوة وحسبت الفرمان باطلا او كأنه لم يقع وفي مدة عشر سنين لم تبطل شيئا من عملها عندما يقتضي الحال ومع نجاح الباب العـالي هو نفسه له شك في اجراء حق فرمانه بتاريخ 1871 الذي ضرب استقلال تونس المتقادم وهذا الفرمـان انتشر قليلا الا انه عند الغالب لا يعرف ما عدى بعض الدول الذين هم فـوائد. وفي الفرمان المذكور أن تونس تكون جزءا من المملكة العثمانية مع ان حكم الباي باق كما كان يعرف منذ مائتـي سنة غير أن باي تونس صار واليا عاما على ايالة تونس وعلى موجب ذلك فالولاية الوراثية لم تكن مستمرة في العائلة الحسينية خلافا لما ذكر بالفرمان بل الوالي يعزل بإرادة السلطان ومن الممكن ان يعرف الباي ان ضرره وملكه وحريته وحيـاته التي هي غلطة كبيرة حسبما أشاروا عليه بها ومحمد الصادق ليس له الخوف من جهـة فرنسا ولو مع ما عمل من الشر معها ومع هذا فهي ليست ضده ولا ضد عائلته ودولته وامـا من جهة الباب العالي فهو يعكس ذلك فله الخوف الكبير منه لأنه يمكن ان يبد له بحسب الحال، انتهت لائحةوزير خارجية فرنسا.

وقد أرسلت الدولة العثمانية لائحة على يد وزير خارجيتها الى عواصم أروبا بـواسطة سفرائها احتجاجا على دولة فرنسا وطلبا للمحافظة على معاهدتي باريز وبرلين القاضيتين بلزوم محافظة دول أروبا على املاك الدولة العثمانية التي منها تونس ونصها : القسطنطينية في 10 مارس 1881 م ان علامـاتي المختلفة قد عـرفت فطانتكم الوقـائع التي صارت في المسألـة التونسية وقـد نسبت هجوم بعض القبائل البـدويين جهة الجزائر ولهذا (يعني بخصوص هذا) الهجوم فـالحكام التونسيون أعلنوا بأنهم حاضرون (يعني مستعدون) ليضبطوه من غير تـراخي فالدولة الفرنساوية حكمت بأنه يلزمها عدد وافر من العساكر الـذين قد استولوا على جزءكبير من الولاية ولم يبعدوا عن المركز الا بضع فراسخ فمن غير التبعات الى اننا أكـدنا على حضرة الباشا ليأخـذ التدابير اللازمة لتمهيـد الراحة في المواضيع الثائرة فـدولة الجمهورية لا تـريد ان تنظر الى المخالطة الاقترانيـة بتونس مع الدولة العثمانية التي هـي محسوبة جزءا متمما للسلطنة المذكـورة واظهرت بانها لا تقبل قولنا لـلاتفاق الودادي معها لقطع الاختـلاف الذي وقع وترتيب حقوق البـاب العالي مع منافع فـرنسا في ذلك المحل وترتيب الأشياء الموجـودة من زمن قديم ولا

تقدر أن تزيد في ايضـاحها وهي سيادة السلطان التي ليس فيها اختلاف على هـذه الولاية وهي سيادة لا تذكرها ولا دولـة عموما وهذا الحق بقي الى الآن صحيحـا ولم ينقطع من زمن فتحها اذ ذاك وهـو سنة 1534 م خير الـدين باشـا وفي سنة 1574 م تقليد علي باشـا وسنان بـاشا وكانت الدولة العلية أرسلت الى تلك المواضع قوة عظيمة برا وبحرا ومن زمن ذلك الفتح فالتأسيسات التي فعلها الباب العالي وهي ان جميع ولاة تونس يتوارثون الولاية من ذرية الوالي الأول المسمى السلطان ويتقلدون الى الآن المنصب منه وفرامانات الولاية تبقى محفوظة في خزينة الديوان وكذلك جميع المكـاتبات التي تأتي منهم للباب العالي التي تارة في شأن مخالطتهم مع الدول الأوروباويـة وتارة تكون في شأن احوالهم الداخلية وانه في هذه المدة الأخيرة فالباب العالي من استحفاظه على حقوقه زيادة على كونه يسمى الوالي العام فإنه يرسل من القسطنطينية الى تونس قاضيا وباش كاتب ولم يكن الامر ترحم الدولة العليه ان منحـت للوالي ان يسمي هو بنفسه هذين وايضا فاتباع للمذهب وخصوصية سيادة السلطان فإن الخطبة يذكر فيها اسم جلالته ويضرب على السكة . أيضا وفي وقت الحرب ترسل تونس الاعانة الى التخت وعلى حساب العادة القديمـة يأتي القسطنطينية أناس رسميون ليقدموا تعظيمات الـوالي وخضوعه لاعتاب السلطنة وليقبلوا الاذن الـلازم من الباب العالي لأمـور عظيمة في الولاية ثم ان البـاشا الموجود الآن والأهالي طلبـوا زيادة في التفضل وأعطي له بالفـرمان المؤرخ في سنة 1871 م وتعرف به جميع الدول والآن قـد استغاث بجهد سيده الحقيقي ليعينـه على الحالة الرديئـة التي وقعت فيها تونس الآن الآ ان وهذه الأشيـاء التحقيقية لا ينكرها أحد فهل تريدون ان تعرفوا الآن تقريرها بـالتاريخ وبالمكاتبات الرسمية ، وهو سهل لكن نقتصر على المهم منها لألا يطول الكلام في هذا التلغراف . ففي المعاهدات القديمة التي بين تركيا وفرنسا تعدد ألقاب الحضرة السلطانية ويكون منها سلطان تونس فانظر مثلا معاهدة + 10 صفر 1084 هجرية وسنة 1668 م وفي هذه المعـاهدات يوجد بأن المعـاهدات التي بين الدولتين كلها تجري أيضـا في تونس وفي نصف القـرن السابع عشر أي سنة 1166 م أرسـل فرمانا للباي والحاكم العام الكبير بالـولاية في رضا الباب العالي بأن قنصل فرنسـا يجمع خدمات قناصل الـدول الذين لم يكن لهم اذ ذاك نواب بـالاستانة كالبرتغـال وكتالونيـا واسبانيا وفرنسـا وفينسيا وغيرهم والقنصل وكالتـه هي حماية السفن التي تحت راية فـرنسا في المراسي المشهورة بالـولاية والفرمـان يمنع قناصل الانكليز وهـولاندة وغيرهم من التداخل في خدمـة نائب فرنسا وكذلك سندا منع التعـدي بين الباب العالي والنمسا المؤرخ في 9 رمضان سنة 1197 هـ والمتقرر بمعاهـدة سنوفا سنة 1205 هـ وبأنه يأذن حكام الجزائر وتـونس وطرابلس الغرب بأن يحموا على اسم السلطـان السفن المتجرية لسلطنة الـرومان (يعني الافرنجية) فـان الاتفاق الذي تقدم هذا السند وتم في شوال 1161 هـ بإذن من السلطان وكـان هذا الاتفاق وقع بين الحكام المذكورين والسلطنة المذكورة فإن الوالي العام بتونس وهو إذ ذاك في رتبة بكـاربيك ونال اسم علي باشا يذكر في مقدمة كل مكتوب ممضى عليه هـذه الكلمات بعينها ، مولانا السلطان الغازي ، وعلى ذكر واقعـات الزمـان استطرد لكم الاذن الصادر من البـاب العالي في 15 ربيع الأنـور سنة 1245 هـ وسنة 1827 م لحكام الجزائر وتونس وطـرابلس الغرب يأمـرهم بأن لا يتدخلـوا في الخلاف الواقع بين سلطنـة المغرب ومملكـة النمسا وكذلـك الاذن الصادر من استانة لوالي تونس في 14 صفر سنة 1247 هـ/ 1830 م يأمر فيه بترتيب العسكر النظامي بالولاية على نمط العسكر النظامي العثماني وأيضا فقد أتـى مكتوب معين بالطاعة من الباشا التـونسي لجلالة السلطان سنة 1860 م وذلك الباشا هو الذي سماه السلطان واليـا عاما وقد انتشر هـذا المكتوب في جميع صحف أوروبا من غير أن يعارض ولا من جهة واحـدة ونزيدكم شيئا آخر وهـو انه في سنة 1863 م في واقعة القرض التونسي الذي وقع في باريز من غير رضا الباب العالي كان المسيو دوارد وارد وليوس وزير خارجية الامبراطور الثالث (نابوليون 3) قد أعلن رأيه بناء على شكايات الدولة العثمانية وقال يلزم اما الباشا بتونس او الصراف الذي يريد عقد القرض معه أن يطلب رضا البـاب العالي ليصح هذا القرض وللمـدافعة عن حقوق الباب العـالي فإن الوزير الفرنساوي أرسل يقـول هذا الكلام للصراف المشار اليـه وها نحن نضع بثبات الكلام السـابق لدى ميـزان الحق والعدل الـذين للدول الممضيين على معـاهدة بـرلين واننا لمتحققـون بأن فكر الدول محيط بدلائل كثيرة في الواجبات العمومية التي يقتضيها المؤتمر المحترم وانهم يريدون أن يفصلوا بالعدل قولنا الذي قدمناه وانهم يتحفظون على حقوق الباب العالي الأخرى المحفوظة بالمعاهدات المذكورة ويصلحون الحال بين الدولتين فرنسا وتركيا في علاقتهما التي لهما في هذه الولاية المرؤوف بها التونسية المتممة للدولة العثمانية والمرغوب من جنابكم ان تتكلم مع وزير الخارجيـة في مضمون هذا التلغراف وتشرح له ما تراه نافعا ولكم الاذن بأن تعطوا نسخة من هذا التلغراف للوزير اذا طلبكم .

الامضاء عاصم ، **انتهت لائحة تركيا .**

واذا رأى الانسان بعين الانصاف ونطق بلسان الحق من غير نظر الى احتجاج كل من الفريقين لأحقية دعواه من كون المملكة التونسية من ملحقات المملكة العثمانية أو مستقلة بنفسها فإن كل ما قرره الوزيران غير خارج عن القضايا الكلامية التي لا طائل تحتها اذ الحق مع القوة كما هي القاعدة السياسية لأن دولة فرنسا لما عقدت العزم بأن تنشر ظل حمايتهـا على تونس اعتمدت على قوتها وساقتها برا وبحرا وقررت للباي بواسطة نائبها ما وقع من الـرعايا التونسيين ووزيره وما تخشى سوء مغبته في المستقبل وقدمت له معاهـدة مشتملة على عدة مواد للامضاء بها

حتى تأمن على مركزها في مستقبل الأيام وها هنا الايالة التونسية لا فرق في كونها مستقلة او تابعة للدولة العثمانية . فبناء على انها مستقلة فهل للباي قوة تقابل قوة فرنسا ليدافع بها على فرض عدم أحقية مطالبها اذا هي أصرت على اقتراحاتها كلا . وعلى فرض انها تابعة للدولة العثمانية فهل هذه الدولة كانت معتنية بهذه الايالة وساهرة على مصالحها ومحيطة علما بما هو واقع فيها من الظلم وسوء النظام واختلال الأحكام واستنزاف الأموال واسترقاق الرجال حتى بلغ الحال الى هذه الدرجة . واذا بلغ ذلك الى علمها ، فهل نهضت لتلافي الخلل الداخلي والخارجي . بصفة كون السلطان رئيسا دينيا فكان عليه أن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويرشد الى اجراء الأحكام الشرعية وبصفة كونه رئيسا سياسيا فما يمنعه بما يجريه الانقليز في مستعمراته الهندية وغيرها وفرنسا في مستعمراتها الافريقية ومستملكاتها في أقاصي آسيا من بلاد التونكين وهولاندة في جزائر جاوة وغيرهم وعلى فرض انها تابعة للدولة العثمانية في سياستها كما قلنا فإن كانت لها قوة حربية وعدة دفاعية تضارع قوة فرنسا لتعتمد عليها عند الحاجة بجميع ما استندت اليه من البراهين يكون مقبولا لأن القوة هي القول الفصل وان لم يكن لها قوة تعتمد عليها فأي فرق بينها وبين الباي ، نعم ان فرنسا جعلت في احدى يديها سيفا وأبقت الأخرى للمصافحة ومع كونها معتمدة على قوتها واحقية مطالبها فان دول أروبا موافقة لها الا ما قيل عن دولة ايطاليا فإن لها مقاصد شخصية سياسية على ان دولة فرنسا لو رأت المملكة التونسية سالكة في سيرها مسلك الاعتدال جارية في ادارة شؤونها على نظام ملائم لحالة البلاد سواء في حالتها السياسية او العدلية او الاقتصادية لما حركت ساكنا اذ غاية أمانيها راحة البلاد وتوطيد الأمر في ربوعها غير أن المنزلة الأولى في الامتيازات الاقتصادية وغيرها تكون لها بحيث ان كل مصلحة عامة لا يقتدر على عملها الأهالي او الحكومة تسلم الى الفرنساويين مع رغبتها في أن تكون الادارة الداخلية حسنة تثمر كثرة العمران ليزداد بذلك متجرهم وحركاتهم ونفوذهم ولا يرون تقدم دولة اخرى عليهم في هذا المضمار هذا ما يصرحون به في مجتمعاتهم الرسمية وفي بعض المناسبات ذكر كاتم أسرار الولاية ابو العباس احمد بن ابي الضياف في تاريخه انه لما اجتمع المشير الأول بملك فرنسا وهو لويز فيليب في خلوة قال له في جملة الكلام الذي نعتمده ان فرنسا تحمي بسياستها حالتك التي انت عليها الآن بحيث لا يتعدى عليك أحد من جهة البحر ، واما من جهة البر فدبر أمرك فيه من جهة طرابلس وانما سر حمايتك هو التحبب الى الرعية والرفق بهم ونقل أيضا عن أحد جنرالات فرنسا وأحد حكام قصر الجزائر بقصد التبليغ الى حكومة تونس والحال انه عسكري والغالب على الحزب العسكري هو الميل الى الاستيلاء والفتح وذلك سنة 1295 هـ عند ختام مؤتمر برلين في شأن الحرب الأخيرة بين تركيا والروسيا وقد اشتهر اذ ذاك ان بعض نواب الدول في المؤتمر لما رأوا مشاحنة نائب فرنسا في تسليم قبرص الى الانكليز أوعز اليه على غير الطريقة الرسمية بأن تستولي فرنسا على تونس ارضاء لها ولم تعمل بذلك فرنسا وقال الجنرال المذكور لمن يبلغ قل لوزيركم والباي ها أنتم ترون من هي الدولة التي تصدقكم من التي تكذبكم فانهم يقولون لكم انا نريد الاستيلاء عليكم ليبعدوكم وينفروكم منا والآن قد أعطوكم لنا والينا من الاستيلاء عليكم فلتعلموا من هو الصادق ولتعلموا أنا لم نمتنع من الاستيلاء عليكم لمجرد حب الباي لأن مصالح الدول لا تتداخل فيها الشخصيات وانما امتنعنا لعدم الفائدة لأن فائدتنا في تونس ان كانت هي المال فهي فقيرة وخالية وفرنسا ليست محتاجة وان كانت هي تكبير الأرض ففي الجزائر أراضي وسيعة ولازالت الى الآن خاوية محتاجة الى التعمير فالأولى بنا ان نعمر أرضنا قبل أن نأخذ أرضا أخرى خالية ، فأي مصلحة لنا في أن نرسل عساكرنا لاطلاق الرصاص عليهم في قابس والحالة ما ذكر . نعم غاية ما نطلبه منكم هو الهنا والراحة في داخليتكم حتى نرتاح نحن براحة جوارنا واما اذا احدثتم الاختلال في داخليتكم وأحوجتمونا الى اطلاق الرصاص لأجلكم فالأولى ان نطلقه لأنفسنا لأن ما كنا نتباعد منه توقعونا فيه .

انتهى كلام هذا الجنرال . ومن دقق النظر في فحوى كلامه استدل به على ان سياسة فرنسا هي بقاء تونس على ما هي عليه اي كما انهم لا يريدون الاستيلاء عليها لا يريدون غيرهم أن يتولاها ومع الأنفة من منّة الدول في المؤتمر من اعطائهم شيئا لا فائدة فيه لهم زيادة عما هم حاصلون عليه ولكن لما تغيرت سياسة الوزير وتغيرت بها سياسة الدولة بسبب مليه الى بعض الدول الأوروباوية ورأت بعض الهضم في حقوق رعاياها مع اختلال ادارة الداخلية .

وهاته الأمور هي التي كانت دولة فرنسا تخشى سوء مغبتها وبادرت بانتهاز الفرصة فاحتلت البلاد وسافت عساكرها الى ان وصلت مركز الولاية وعرضت على الباي بواسطة الجنرال رئيس العساكر المحتلة شروط معاهدة **نص تعريبها** ان دولة الجمهورية الفرنساوية ودولة باي تونس أرادوا ان يقطعوا بالمرة التحيير المخرب الذي وقع قريبا في حدود الدولتين وفي شطوط تونس وأرادوا أن يربطوا مخالطتهم القديمة التي هي مخالطة مودة وجوار حسن فاعتمدوا على ذلك وعقدوا معاهدة في نفع الجهتين المهمتين فعلى موجب ذلك رئيس الجمهورية الفرنساوية سمي وكيله الجنرال بريار الذي يتفق مع حضرة الباي السامية على الشروط الآتية .

أولا : المعاهدات الصلحية والودادية والتجارية وغيرها الموجودة الآن بين الجمهورية الفرنساوية وحضرة الباي يتحتم تقريرها واستمرارها .

ثانيا : ليسهل للدولة الجمهورية اتمام الطرق للتوصل الى المقصود الذي يعني الجهتين العظيمتين فحضرة الباي ترضى بأن الحكم العسكري الفرنساوي يضع العساكر في المواضع التي يراها لازمة لتستقر وترجع الراحة والأمان في الحدود والشطوط وخروج العساكر يكون عندما يتوافق الحكم العسكري الفرنساوي والتونسي على أن الدولة التونسية تقدرعلى تقرير الراحة.

ثالثا : دولة الجمهورية تتعهد لحضرة الباي بأن يستند لها دائما وهي تدافع عن جميع ما يتخوف منه لضرر ما أما في نفسه أو في عائلته أو فيما يحير راحة دولته.

رابعا : دولة الجمهورية الفرنساوية تضمن في اجراء المعاهدات الموجودة الآن بين دولة تونس والدول الأوروباوية.

خامسا : دولة الجمهورية الفرنساوية تخص لدى حضرة الباي وزيرا لينظر في اجراء هذه المعاهدة ويكون واسطة في كل ما يتعلق بالدولة الفرنساوية وذوي الأمر والنهي التونسيين وفي كل الأمور المشتركة بين المملكتين.

سادسا : ان النواب السياسيين والقناصل الفرنساويين في الممالك الأجنبية يتوكلون ليحموا أشغال تونس وأشغال رعيتها وفي مقابلة هذا فحضرة الباي تتعهد بأن لا تعقد معاهدة عمومية من غير أن تعلم دولة الجمهورية الفرنساوية ومن غير أن يجعل على موافقتها من قبل.

سابعا : ان دولة الجمهورية الفرنساوية ودولة حضرة الباي أبقوا لأنفسهم الحق في أن يؤسسوا ترتيبا في المسألة التونسية ليمكن لهما ما يلزم لتسديد الدين التونسي العام وهذا الترتيب يضمن حقوق أرباب الدين التونسي.

ثامنا : ان غرامة الحرب يغصب عليها القبائل العصاة بالحدود والشطوط وتفعل دولة الجمهورية مع حضرة الباي فيما بعد شروطا على كميتها وكيفية دفعها ودولة حضرة الباي تضمن في ذلك.

تاسعا : للمحافظة على منع ادخال السلاح والآلات الحربية للمملكة الجزائرية فدولة باي تونس تتعهد بأن تمنع دخول الأشياء المشار اليها من جزيرة جربة ومرسى قابس وسائر المراسي الجنوبية في المملكة.

عاشرا : ان هذه المعاهدة توضع لدى رضاء دولة الجمهورية الفرنساوية وترجع في أقرب وقت ممكن لحضرة الباي السامية، حرر في 22 ماي سنة 1885 م بالقصر السعيد، الامضاء محمد الصادق ـ الجنرال بريار.

فصل في أعمال دولة فرنسا بالمملكة التونسية بعد نشر حمايتها عليها وبيان مقدماتها

وفي سنة 1298 هـ وقعت مبادىء المحاورات بين قنصل فرنسا والحكومة التونسية في شأن ما وقع من التعديات على القبائل المتاخمة للبلاد التونسية واشتد تعكر جو السياسة في مسائل بين الوزير التونسي وبين قنصل فرنسا لحدوث مسألة الكونت دي صانس المعمر الفرنساوي وتفاقم أمرها وذلك أن الفرنساوي المذكور كان على وزارة مصطفى خزندار طلب من الدولة التونسية بواسطة الوزير المذكور أن تمنحه أرضا مساحتها أربعة الاف هكتار على أن تنعقد بينه وبين الحكومة التونسية شروط يتوقف انجاز المطلب على اتمامها من الطرفين وتعطي له الأرض المذكورة على أربعة أقساط كلما وفى باتمام الشروط في القسم المسلم له يسلم له القسط الآخر ومن جملة شروط الدولة على المعمر أن يربي من أنواع الخيل والبقر والغنم في كل ألف هكتار عددا مخصوصا من أجود الأنواع الموجودة في القطر وخارجه ومن جملة شروطه على الدولة ان تعفيه من جميع الأداءات سواء كانت مقاصد أو وسائل فقبل القسط الأول ومضت عن قبوله آجال فادعت عليه الدولة انه لم يوف بشروطه وتعلل هو بأن الحكومة هي التي لم توف بشروطها فعاقبته بذلك عن التوصل الى اتمام ما تعهد به حيث لم تعفه من الأداء على الأشياء التي بواسطتها يتم ما اشترطته وكان ذلك في مدة وزارة خير الدين فآل الأمر بعد أن عقد للنازلة مجلس مركب من موظفي الحكومة لاجراء مطلبه وأخذه القسط الثاني من الأرض واسقاطه كل دعوى فيما تقدم تاريخه وبعد مضي مدة ادعت عليه الحكومة انه لم يوف بشروطه وطلبت انتزاع الأرض منه فادعى المعمر ان الخلل جاء من قبل الحكومة حيث أنها لم توف بشروطها من حيث حفظه حقوقه من تعدي الأهالي عليها كما انها لم تعفه مما هو مشروط عليها من الأداءات وأن الأرض التي سلمت له ليست بكاملة الصفاة ولا بكاملة المقدار واشتدت المنازعة في وزارة خزندار وأخيرا عقدت الحكومة مجلسا يرأسه مصطفى بن اسماعيل واستمرت المراجعة بين الحكومة وبين نائب فرنسا في النازلة الى أن استولى الوزارة الكبرى مصطفى بن اسماعيل فألح في اتمام النازلة وتخليص الأرض من يد المذكور وآل الأمر الى انعقاد مجلس من أعيان متوظفي الحكومة التونسية وأعيان الفرنساويين وبعد تكرار المراجعات استقر رأي الوزير على انتزاع الأرض من الكنت دي صانس فأرسل الوزير بن اسماعيل ثلاثة من متوظفي الحكومة وصاحبهم قنصل النمسا لحوز الأرض والشهادة على كيفية استلامها من المذكور وقبيل ارساله أعلمه قنصل فرنسا بأن الاولى الصلح في النازلة بأن يضرب لصاحب المنحة أجل للوفاء بشروطه ويسقط دعاويه فإن لم يوف تخلص دولة فرنسا الأرض منه وترجعها لحكومة تونس وبدون ذلك لا يمكن تسليم الأرض الا بمجلس تحكيم ولأنه لا يسمح لاتباع الحكومة بالدخول

للأرض وان أتوا للاستيلاء عليها يجدون من يعارضهم من اتباع القنصلية فلم يقبل منه ذلك وعند وصول الرسل منعهم اتباع القنصلاتو من الدخول بالكلام فرجعوا ووقع التسجيل حالا وورد من قنصل فرنسا طلب اربعة مطالب : **أولها** الترضية من الحكومة.

الثانية القاء المسؤولية على من تسبب في النازلة، **الثالثة** عقد مجلس مختلط للنظر في اثبات دعاوي دي صانس أو عـدمها، **الرابعة** الجواب عن ذلك قبل مضي يومين وإلا فانه يقطع الخلطة وقد شاع بالايعاز ان المراد بإلقاء المسؤولية هو عزل الوزير فاضطرب الوالي والوزير وكتب تلغراف لوزير الخارجيـة بفرنسا بأنه يريد أن يـرسل له رسولا خاصا ليشرح له النـازلة شفاهيا فأجيب بواسطة القنصل بأنـه لا حاجة لذلك حيث ان القنصل معتمد من دولته ولما خشي بن اسماعيل غائلة هذا الأمر افتكر في طريقة يسلكها ربما تكون حافزا حصينا بينه وبين ما يخشاه، فاستمال قنصل دولة ايطاليا وشدد الالتحام معه ومنحه بضع امتيازات تنافي رغـائب دولة فرنسا فكثر التشكي من رعايا دولة فرنسا لدولتهم من اهمال حقوقهم ثم ما لبث ان استمال قنصل فرنسا ووعده بمواعيد ترضيه لـه فلما رأت دولة فرنسا تلاعب هذا الوزير وخشيت سوء مغبة هذا التـلاعب جلبت بخيلها ورجالها على الحدود التونسيـة وقدمت للوالي تلك المعـاهدة التي تقدم نصها ثم قـدمت اللائحة بواسطـة وزير خارجيتها لدول أروبا شبه التسجيل على أعمال الوزير وأمضيت تلـك المعاهدة من الطرفين وأجريت موادها على حسبما يقتضيه الحال غير أن الأهالي لما كانوا يجهلون خبايا الوقائع السياسية وما سلكه الوزير من المراوغة وما يضمره من سوء الهوية ورأوا هجوم عساكر دولة فرنسا على بلادهم فجأة، نفـرت نفوسهـم وحـاولوا الدفـاع بما أمكن ولما تحققوا المعـاهدة المنعقـدة بين فرنسا وبين أميرهم تيقنـوا عجزهم عن مـدافعة دولتهم ودولة فـرنسا فجمعوا أمرهم وهـاجروا الى البلاد الطـرابلسية وهؤلاء هم القسم الاعظم من القبـائل الرحالة وهم الهمامـة وجلاص ونفّـات والفراشيش وأولاد عيّـار وغيرهم وبقيت المدن يجري بها الحكم العسكـري وضربت على من تعاصى منهـم غرامـة حربيـة خلص معظمها واسقطت الـدولة البقية وجرى الحال على هـذا المنوال الى أن أخذت القبـائل في التراجع عند موت زعمائهم مع أن الدولـة التركية لم تلتفت لهم ولم تعتبرهم مهاجـرين لاجئين لاخوانهم في الدين والجنسية فلـم تدفعهم عن بعضهم ولا عن غيرهم ولا دفعت عنهم غيرهم كما هو المعروف من الحكـومات شرعا وطبعا (ولولا دفاع اللـه الناس بعضهـم ببعضا لفسدت الأرض) فتركتهم فوضى حتى نفـد ما بأيديهم من الكسب نهبا وموتا فجنّوا لبلادهم وهـذا أعظم دليل على عدم اعتناء تركيا بشؤونهم فما هذا التسجيل الذي سجلته عند دخـول فرنسا للايالة التونسية اذا لم تفد التونسيين حين ألقوا انفسهم في احضانها. فما أبعد استفادتهم منها في بلاد أنشبت بها دولة عظمى مخالبها ولما تراجع العرب الى بلادهم بـواسطة بعض زعماءهم الذين مهدوا لهم السبيل عنـد نائب فرنسـا بطرابلس وحصلوا على وعود منهـا تنفعهم في مستقبل الأيام شرعت الدولة في اصلاح شؤون الادارات التونسية وترقيع ما مزقته ايدي العدوان.

فصل في ترتيب المالية

لما كـانت الدولة قد أحـدثت الكمسيون المالي وذلك سنة 1286 هـ وكان سبب احداثه مـا وقع من التضعضع في مالية الدولـة للأسباب التي تقدم شرحها فوقع ترتيبه لمراقبـة مالية الحكومة ولحفظ حقوق أرباب الدين التونسي الذي كـان أربابه متركبين من فرانسوين وانقليزيين وايطاليين وحيث نصبت الحماية على المملكـة التونسية سعت دولة فرنسا في تـوحيد الدين التونسي فجعلت جملة الـدين تحت ضمانتها وتولت بنفسها حق المراقبـة والسيطرة على مـداخيل الحكومـة التونسية حفظا لحقوقهـا والتزمت الحكومـة التونسيـة في مقابلـة ذلك ان لا تتداين في المستقبل بدون موافقة الحكـومة الفرنساوية وللقيام بهذه الغاية تقرر نصـب ادارة عمومية لمالية الحكومة التونسية يرجـع لنظرائها سائر فروع الدخل والخرج وعموم المحاسبات بأي وجه وبكل ادارة من الادارات الآتي بيانها وبموجب ذلك اصبحت سلطة مدير المالية العام من حيث خطته تتنـاول سائر المأمورين الماليين سـواء كانوا تونسيين أو فـرنساويين بجميع جهات المملكـة وقد أحدثت هـذه الادارة بمقتضى أمر من حضرة الأمير المولى علي باشـا باي في 23 ذي الحجـة سنة 1299 هــ وأركان هذه الادارة الأصلية : الادارة المركـزية، خدمة الـدين، وظيفة الأداءات من مجابي واعشار وغيرها، قباضة الدولة العامة مع أعوانها من جهة الخدمة المالية، إدارة الاختصاصات، إدارة الأداءات المختلفة، إدارة القمارق، خلاص دخل أملاك الدولة.

ادارة الأشغال العامة

هذه الادارة أحدثت بأمر على في أواخر مدة محمد الصادق باي 1298 هـ وهي الآن من أكبر الادارات وأكثرها فروعا ولها أربعة أقسام.

القسم الأول : ادارة الجسور والطرقات ويتفـرع منها تأسيس الطـرقات واختبارها والمباني المدنيـة والأشغال البلـدية ومصلحـة المياه ومراقبة اشغال البناء للسكك الحديدية وحراسة الأملاك العامة والأشغال البحرية والحربية التي تجريها وزارة البحر الفرنساويةبمراسي المملكة.

القسم الثاني : ادارة المعادن ويتفرع منها المعادن والمقاطع الحجرية وخريطة المملكة التونسية والمياه المعدنية والآبار والتحليلات الكيمياوية المعدنية .

القسم الثالث : إدارة رسم الأمثلة الأرضية وتحرير الرسوم والخرائط والتحريرات العقارية .

القسم الرابع : ادارة المراسي والصيد البحري والملاحة البحرية . وسائر هذه الادارات تحت نظر المدير العام للأشغال العامة وله السلطة المطلقة وهو الذي ينتخب موظفيها ويعين لكل ادارة منها ما يلزمها ان تقوم به من الأعمال وقد قامت ادارة الأشغال العامة منذ تأسيسها بمشروعات عظيمة ومنافع جسيمة ومديرها ينتخب من أعيان الفرنساويين .

إدارة البوسطة والتلغراف

ونعني به البريد والمخابرات بواسطة السلك الكهربائي ، ان احداث السلك الكهربائي بالإيالة التونسية كان سنة 1263 هـ / 1847 م بموجب اتفاقية بين الدولة الفرنساوية والأمير احمد باي باشا فهو متقدم على البريد بمدة طويلة ولم يتجاوز بعض النقط من المملكة لعدم اعتناء الدولة بذلك حتى خسرت عنه خسارة فادحة ولما نصبت الحماية على القطر التونسي اعتنت الدولة بتوسيع نطاق إدارة البوسطة والتلغراف فأسست عدة مراكز لما ذكر بأنحاء المملكة ولم تزل هذه المراكز تتزايد يوما فيوما سيما بعد احالة البوسطة للحكومة التونسية سنة 1306 هـ / 1888 م فشيدت إدارة البوسطة والتلغراف بتونس وغيرها من بلدان المملكة حتى بلغت البلدان التي تبادل فيها المراسلات البريدية والأسلاك الكهربائية بأنحاء المملكة نحو أربعمائة بلد وبلغت جملة ما بينها من المسافة نحو ستة آلاف كيلومتر والسلك الكهربائي نحو سبعة آلاف كيلومتر وبتنظيم هذه الادارات صارت المملكة مرتبطة مع أغلب أنحاء المعمورة وان شئت قلت كلها بتسهيل المواصلات طردا وعكسا سواء بالمخابرات او بتوجيه البضائع أو الحوالات المالية وقد سهّل ذلك خدمة تلك الطرق الجديدة في أغلب أنحاء المملكة .

المجالس البلدية

كان أول مجلس بلدي أسس بالحاضرة التونسية سنة 1275 هـ وكان نظره مقصورا على ما يحويه سور الحاضرة من المساكن والطرقات ولما جاء دور الحماية وقع تنظيم المجالس البلدية وتوسيع دوائرها ووضع ترتيب أساسي للمجالس البلدية بالعمالة في جمادى الثانية سنة 1302 هـ بمقتضى أمر من الوالي وبموجب هذا الترتيب صار نظر الادارة البلدية يشمل الأمور الآتية : ملكية العقارات البلدية والتفويت في الأملاك البلدية ولوائح اصلاحات البناء واحداث الشوارع العامة والخاصة ومعاليم الطرقات والمداخيل والنفقات البلدية والاقتراض لمصالحها والأسواق ومحلات النزهة والبساتين العامة والمقابر والمواليد والنظافة والخنادق والمسالخ والأداء الموظف على أكرية الملك واصلاح الطرقات والترميم والمياه للشرب والري والمراحيض العامة والرحب والفنادق والبيع على قارعة الطريق والحيوانات والدور والحوانيت واحدثت عدة مجالس بلدية ببلدان المملكة مثل صفاقس وسوسة والقيروان وباجة وبنزرت وحلق الوادي وسوق الاربعاء والكاف والمهدية ونابل وحمام الأنف ورادس والمنستير وقابس وجربة وجبل المنار وزغوان وعين دراهم وطبرقة وماطر ومجاز الباب وطبرقة وقفصة وتوزر وجّرجيس .

إدارة المحافظة

عبارة عن هيأة مركبة من افراد تعينهم الحكومة تحت نظر رئيس لحراسة الراحة العامة ولها عدد من الأعوان على حسب الاقتضاء وكانت هذه الهيأة قبل الاحتلال مقصورة على الحاضرة ويعبرون على رئيسها برئيس الضبطية وله رتبة أمير أمراء واعوانه يسمون بالضبطية ثم غيرت هذه الهيأة بمقتضى النظامات العصرية والحالة العمرانية فاتسع نطاقها وتعددت فروعها واحدثت عدة مراكز في بلدان المملكة تحت نظر الادارة المركزية ويلقب رئيسها بمدير المحافظة وأعوانه يسمون بالبوليسية ورؤساءهم بالكوميسارية ووظيفته السلطة المطلقة على عموم البوليس بالمملكة والحراسة العامة والحراسة البلدية والحراسة البرية وقيس المساجين ومطالب التوظيف في ادارة البوليس وولايات اعوان الضبط والطرد من المملكة والابعاد مؤقتا ومنع الأجانب من الاقامة بالتراب التونسي ومراقبة المحكوم عليهم والفرار من الجيش وبيع السلاح والبارود والرخصة في حمل السلاح والشحاذة والهملة والبيع بقارعة الطريق والصيد والاجتماعات العامة والمقامرة والخانات المسكونة والقهاوي والمطاعم العامة والمحافظة على الآداب والبحث على الاناسي والأشياء المفقودة ومراقبة الأجانب وتأسيس الجمعيات العامة .

إدارة الصحة العامة

كانت ادارة الصحة قبل نصب الحماية على المملكة التونسية مقصورة على الادارة البحرية وهي عبارة عن هيأة قائمة بالتحفظ والاحتياط عما عساه أن يرد من الوافدين على المملكة من الممالك الأجنبية التي تكون بها أمراض عدوية والمستشفى الصادقي الذي أحياه المرحوم الصادق باي سنة 1297 هـ وكان قبل ذلك التاريخ على حالة بسيطة جدا اذ هو عبارة على مأوى مشتمل على عدة مساكن يسكنها المرضى والمعتوهون وله أوقاف تقوم بضرورياتهم من فروشات ومطابخ وخدمة وطبيب يباشر المرضى والمعتوهين فنقل من محله الأول الكائن بالعزافين الى قشلة البشامقية وزيدت فيه زيادات اتسعت بها مساحته وصار محلا متسعا مناسبا ورتب ترتيبا حسنا على النسق الأوروباوي وذلك بإشارة أطباء الوالي وجعل به قسما للنساء خاصة وكل ما ينفق على ذلك يكون من فواضل الأوقاف ولا يعطي المريض شيئا ولذلك اشترط في دخول المريض أن يكون فقيرا وقد خصص فيه قسم للأغنياء على أن يعطوا مقدارا زهيدا من المال على أنه لا يكون حالهم أحسن من حال الفقراء فيما يتعلق بمؤونتهم أو رياشهم أو علاجهم وهذا بحسب الوضع اما مساحته فقد زيدت فيها مدرسة المشامقية بتمامها وكذا الميضاء الملاصقة له واما بالنظر لتراتيبه فإن قسم الفقراء الذي أسس المستشفى لأجله فغير معتبر ولا مكترث به. وفي سنة 1315 هـ / 1897 م صدر أمر علي في احداث إدارة الصحة العامة على ما تقتضيه الحالة العصرية وجعلت إدارة الصحة البحرية تابعة لهذه الادارة ونظرها يشمل المسائل الآتية وهي : الصحة والنظافة العامة والمستشفيات والمجانين والكرنتينة والطب والصيدلة والتوليد والمقابر والحمامات والمحلات المضرة بالصحة والمزعجة والمخرطة وحج بيت الله الحرام والصحة البحرية والمعاليم الموظفة على الوافدين على المراسي التونسية وحراسة المراسي وعلاج الكلب وتلقيح الجدري ولها فروع في بلدان المملكة اقتضتها الحالة الاستعمارية وأحدث لذلك مجلس مركب من عشرين عضوا يرأسها الوزير المقيم بعضوية مدير الصحة العام بالدولة التونسية ومدير الصحة العسكرية ورئيس المجلس البلدي وغيرهم وزيادة على المجلس المذكور فقد احدثت مجالس صحية بمدن المملكة مثل بنزرت وسوسة وصفاقس وقابس وسوق الاربعاء وجعلت رئاستها للمراقبين المدنيين يعضدهم في العضوية كل من عامل المكان وطبيب المجلس البلدي والطبيب العسكري والبيطار ومهندس الطرقات والجسور وقد قامت هذه الادارة بمصالح جمة وفوائد مهمة عادت بمنافع عظيمة.

إدارة السجون

لم يكن لإدارة السجون قبل سنة 1309 هـ / 1891 م نظام ذو فروع متينة بمدن المملكة لضبط أحوال المساجين وتنفيذ العقوبات البدنية الصادرة من المحاكم التونسية وما كان موجودا من هذا القبيل هو السجن الجديد بالحاضرة لحبس الموقوفين وزندالة باردو لسجن المحكوم عليهم وكراكة حلق الوادي للمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة من رعايا الحكومة التونسية ولما أصبحت المحاكم التونسية الأهلية مستقرة على أساس متين لزم ضبط إدارة السجون وجعل نظام خصوصي لها مع التكفل بمعاشات المساجين والانتفاع ببعضهم في أشغال يدوية او زراعية ووسعت الدولة نطاق هذه المصلحة بأن أحدثت لها عدة فروع بمدن المملكة التونسية وهي حاضرة تونس وباردو وحلق الوادي وسوسة والقيروان والكاف وقابس وصفاقس وجربة وتطاوين ومدنين وجرجيس وبن قردان ومطماطة وقبلي وقفصة وتوزر والنفيضة وغار الملح وبنزرت وبرج التوتة ومكثر وباجة وسوق الاربعاء وعين دراهم وزغوان والمهدية وطبرقة ومجاز الباب ونابل وقرنبالية وتالة وماطر وغار الدماء ولم تزل الحكومة مهتمة بزيادة ضبط مصلحة السجون على معنى تخفيف الحبس على المساجين والانتفاع بهم في خدمة الاحراش بما يعود عليهم وعلى التعمير بالفوائد الجمة.

العدلية التونسية

كانت العدلية التونسية في أمرين معاملات وجنايات، فالمعاملات بجميع أنواعها من ديون واستحقاق يرجع نظرها للمجالس الشرعية أو القضاة الشرعيين منفردين وكذلك الأوقاف والأحكام الشخصية وهي الزوجية وما يتفرع منها من طلاق وحضانة ومواريث وتقدير نفقات وغيرها واما الجنايات بجميع انواعها وتشمل الحرابة فأما ما كان منها خفيفا فالقواد يحكمون فيها وما وصل الى حد القتل وما شاكله فانهم يسجلونه ويحيلونه الى الوالي فاما ان يحكم فيه باجتهاده واما أن يحيلها الى المجلس الشرعي لينظر فيها ويجريها على القواعد الشرعية وهذا في خصوص قتل النفس، واما بقية الجنايات والحرابة فيحكم فيها الوالي باجتهاده بالاستشارة بمن يثق به من حاشيته اما في مركز الولاية فإن الجنايات بجميع انواعها يحكم فيها الداي وهو المعبرعنه اخيرا برئيس الضبطية أو فريك الدريبة سوى القتل فهو خاص بالوالي كما سبق

والمسائل التجارية وهو تبادل البضائع بين المتبائعين تحال لمجلس يعبرون عنه بمجلس التجارة يحكم فيما يتشعب من المسائل التجارية بما يقتضيه العرف وهو خاص بالحاضرة ما لم يطلب احد المتداعيين من الأهالي المحكمة الشرعية فيصرف لها والوالي يجلس بمحكمته يوميا لتلقي المتشكين من تصرفات الولاة فيما يتعلق بوظائفهم ومن الحرابة وقطعة الطريق ويوجه اعوانه لمن توجهت عليه التهمة ويجري عليه الحكم بما يقتضيه نظره واستمر الحال على ذلك الى ان استولى المرحوم محمد باي فرفعت اليه نازلة يهودي سب الدين الاسلامي وكان اليهودي من أتباع القائد نسيم أحد خواص الوزير فهاجت البلاد وهاج العنصر الاسلامي لهذه الحادثة ورأى انها ناشئة عن استخفاف اليهودي بالدين الاسلامي اعتمادا على سيده وطلبوا محاكمته فخشي الوالي سوء العاقبة اذا لم ينتصفوا منه اذ ربما حصلت ثورة وينجر منها قتل اليهودي وغيره ويفضي الحال الى أخذ البريء بذنب المجرم ويتسع الخرق على الراقع مع ان المذهب المالكي الذي هو المذهب الغالب في القطر التونسي يرى أن سب الذمي للدين الاسلامي نقض للعهد ويقتل الساب بموجب ذلك فعقد الوالي مجلسا وحكم المجلس المالكي بقتل اليهودي ووافق رئيس المجلس الحنفي وهو الشيخ بيرم الرابع وقد تحقق ما تكهن به الأهالي من اعتماد اليهودي على سيده في الاستخفاف بالدين لأن الوزير خزندار عارض في تنفيذ الحكم انتصارا لتابعه وطلب من الوالي أن يحكم هو في النازلة بغير القتل وألح عليه فامتنع فاحتال الوزير باغراء قنصل فرنسا بالتدخل في النازلة فلم ينجح ونفذ الحكم فانتهز الوزير هذه الفرصة ولاذ بفرنسا بواسطة قنصلها زاعما ان هذا الحكم منشؤه التعصب الديني وهو لا يلائم المصالح القاضية بها الحالة الاجتماعية العصرية وأوعز له بأن الوالي والحكام التونسيين انما يحكمون لمجرد هوى النفس وحب الانتقام وهذا الأمر لا يأمن معه الانسان على نفسه ولا تستقر له راحة بل ولا يتم معه عمران فألحت دولة فرنسا بواسطة قنصلها وعاضدها قنصل انقلترا بانشاء نظامات في الأحكام العدلية وعهدا يأمن به المتساكنون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وذلك سنة 1274 هـ وفي هذه السنة أنشأ عهد الأمان الذي تقدمت الاشارة اليه ولم يجر العمل به إلا بعد ولاية المرحوم محمد الصادق باي سنة 1276 ولاتمام الفائدة نذكر نص عهد الأمان بحروفه وهو من انشاء كاتب أسرار الوالي الكاتب البليغ احمد بن ابي الضياف برد الله ضريحه، ونصه :

عهد الأمان

بسم الله الرحمان الرحيم، الحمد لله رب العالمين الذي أوضح للحق سبيلا وجعل العدل لحفظ نظام العالم كفيلا ونزل الأحكام على قدر المصالح تنزيلا ووعد المقسط وأوعد الجائر ومن أصدق من الله قولا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي مدحه في كتابه وفضله تفضيلا وبعثه بالحنيفية السمحة فبينها تبيينا ووصلها توصيلا ورتبها كما أمر ربه وجوبا وندبا وتحريما وتحليلا فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا وعلى آله وأصحابه الذين أقاموا على معالم الهدى علما لمن اقتدى ودليلا وفهموا الشريعة نصا وتأويلا ونستهديك اللهم توفيقا يوصل الى الاسعاد برضاك توصيلا وعونا على أمور الامارة التي حملها عبئا ثقيلا وتوكلنا عليك والتجأنا اليك وكفى بالله وكيلا، أما بعد فإن هذا الأمر الذي قلدنا الله منه ما قلده وأسند الينا من أمور خلقه بهذا القطر ما أسنده الزمنا فيه حقوقا واجبة وفروضا لازمة راتبة لا تستطاع الا بإعانته التي عليها الاعتماد ولولاها فمن يقوم بحق الله وحق العباد فحصنا النصيحة في عباده وأرضه وبلاده والأمل ان لا نبقى فيهم بحول الله ظلما ولا هضما ولا نخرم في حقوقهم نظما وانّي ينصرف عن هذا القصد بعمله ونيته من يعلم ان الله لا يظلم مثقال ذرة ولا يحب الظالمين في بريئته فقد قال نبيه المعصوم الأواب يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب والله يرى أني آثرت في قبول هذا الامر على خطره مصلحة الوطن على ذاتي وعمرت بخدمته الفكرية والبدنية غالب أوقاتي وقدمت من التخفيفات في الجبايات ما علم خيره وظهر بعون الله أثره فانتشرت الامال وتشوقت النفوس الى ثمرات الأعمال وانقبضت عن التعدي أيدي العمال واستقصاء المصالح يقتضي تقديم أجمال ومن رامها جملة فقد عرضها بسبب التعذر الى الاهمال ورأينا غالب أهل القطر لم تحصل لهم الا الافنية باجراء ما عقدت عليه النية وجرت عادة الله ان العمران لا يقع من نوع الانسان إلا اذا علم انه محاط بالأمن والأمان وتحقق ان سياج العدل يدفع عنه العدوان وأن لا وصول لذلك إلا بقوة الدليل ووضوح البرهان ولا يكفي لتحققه الواحد او الاثنان فاذا رأى الجاني تعدد الانظار غلط ان كان منصفا حدسه وقال ومن يتعدى حدود الله فقد ظلم نفسه وقد رأينا سلطنة الاسلام والدول العظام الذين على سياستهم الدنياوية مرار الاعمال في النقض والاجرام يؤكدون الأمان من أنفسهم للرعية ويرونه من الحقوق الواجبة المرعية وهو أمر يستحسنه العقل والطبع واذا اعتبرنا مصلحته فهو مما يشهد باعتباره الشرع لأن الشريعة جاءت لاخراج المكلف من داعية الهوى ومن التزم العدل فهو أقرب للتقوى وبالأمر تطمئن القلوب وتقوى وقبل هذا كاتبنا علماء الملة الأركان وبعض الأعيان فعزمنا على ترتيب مجالس ذات أركان للنظر في أحوال الجنايات من نوع الانسان والمتاجر التي بها ثروة البلدان وشرعنا في فصوله السياسية المرعية بما لا يصادم القواعد الشرعية هذا واحكام الشريعة جارية مطاعة أدام الله العمل بها الى قيام الساعة وهذا القانون السياسي يستدعي زمنا لتحرير ترتيبه وتدوينه وتهذيبه وأرجو الله الذي ينظر الى قلوبنا ان يستقيم بهذا الترتيب احوال

الرئاسة ولا يخالفه ما ورد عن السلف الصالح من اعتبار السياسة وأنا العبد الفقير نعمل لمرضاة ربي بها تطمئن اليه النفوس وتكون منزلته في النفس منزلة الشاهد المحسوس وتأسيسه على احدى عشر قاعدة .

الأولى : تأكيد الأمان لسائر رعايانا وسكان أيالتنا على اختلاف الأديان والألسنة والألوان في ابدانهم المكرمة واموالهم المحرمة واعراضهم المحترمة الا بحق يوجبه نظر المجلس بالشورى ويرفعه الينا ولنا النظر في الامضاء والتخفيف ما أمكن والاذن في اعادة النظر .

الثانية : تساوي الناس في قانون الأداء المرتب او ما يترتب وان اختلف باختلاف الكمية بحيث لا يسقط على عظيم لعظمته ولا يحط على حقير لحقارته ويأتي بيانه موضحا .

الثالثة : السوية بين المسلم وغيره من سكان الايالة في استحقاق الانصاف لأن استحقاقه لذلك يوصف الانسانية لا بغيره من الأوصاف والعدل في الأرض هو الميزان المستوى يؤخذ به للحق من المبطل والضعيف من القوي .

الرابعة : ان الذمي من رعيتنا لا يجبر على تبديل دينه ولا يمنع من اجراء ما يلزم ديانته ولا تمتهن مجامعهم ويكون لهم الأمان في الاذاية والامتهان لأن ذمتهم تقتضي ان لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

الخامسة : لما كان العسكر من أسباب حفظ النوع ومصلحته تعم المجموع ولا بد للانسان من زمن لتدبير معيشته والقيام على أهله فلا نأخذ العسكر الا بترتيب وقرعة ولا يبقى العسكري في الخدمة اكثر من مدة معلومة كما نحرره في قانون العسكر .

السادسة : ان مجلس النظر في الجنايات اذا كان الحكم فيها على احد من اهل الذمة يلزم أن يحضره من نعينه من كبرائهم تأنيسا لأنفسهم ودفعا لما يتوهمونه من الحيف والشريعة توصي لهم خيرا .

السابعة : اننا نجعل مجلسا للتجارات برئيس وكاتب واعضاء من المسلمين وغيرهم من رعايا احبابنا الدول للنظر في نوازل التجارات بعد الاتفاق مع أحبابنا الدول العظام في كيفية دخول رعاياهم تحت حكم المجلس كما يأتي ايضاح تفصيله قطعا لشغب الخصام .

الثامنة : ان سائر رعايانا من المسلمين وغيرهم لهم المساوات في الأمور العرفية والقوانين الحكمية لا فضل لأحد على الآخر في ذلك .

التاسعة : تسريح المتجر من اختصاص أحد به بل يكون مباحا لكل أحد ولا تتاجر الدولة بتجارة ولا تمنع غيرها منها وتكون العناية بإعانة جميع المتجر ومنع أسباب تعطيله .

العاشرة : ان الوافدين على ايالتنا لهم ان يحترفوا سائر الصنائع والخدم بشرط ان يتبعوا القوانين المرتبة والتي يمكن ان تترتب مثل سائر الأهالي لا فضل لأحد على الآخر بعد الانفصال مع دوهم في دخوهم تحت ذلك كما يأتي بيانه .

الحادية عشرة : ان الواردين على ايالتنا من سائر أتباع الدول لهم أن يشتروا سائر ما يملك من الدور والأجنة والأرضين مثل سائر أهل البلاد بشرط ان يتبعوا القوانين المرتبة والتي تترتب من غير امتناع ولا فرق في أدنى شيء من قوانين البلاد ونبين بعدها كيفية السكنى بحيث ان المالك يكون عارفا بذلك وداخلا على اعتباره بعد الاتفاق مع احبابنا الدول فعلى عهد الله وميثاقه ان تجري هذه الأصول التي سطرناها على نحو ما بيناها ووراءها البيان لمعناها واشهد الله وهذا الجمع العظيم المرموق بعين التعظيم في حق نفسي وعلى من يكون بعدي ان لا يتم له الأمر الا باليمين على هذا العهد الذي بذلت فيه جهدي وجعلت سائر الحاضرين من نواب الدول العظام واعيان رعيتنا شاهدين على عهدي والله يعلم ان هذا القصد الذي أظهرته وجمعت له هؤلاء الأعيان وأشهرته هو ما اودعه الله في نيتي واجراء أصوله وفروعه فورا هو اعظم أمنيتي والمرء مطلوب بجهده ومن عاهد الله لزمه الوفاء بعهده والحق هو العروة الوثقى والآخرة خير وأبقى واستحلف من لدي من هؤلاء الثقات والحماة والكفاة ان يكونوا معي في اجراء هذه المصلحة يدا واحدة بقلوب سليمة متعاضدة وأقول لهم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلت الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلوه اللهم من أعاننا على مصالح عبادك فكن له معينا وأورده من توفيقك عذبا معينا اللهم اجعل لنا من عنايتك وردا وهب لنا من لدنك رحمة وهيأ لنا من لدنك رشدا منك الاعانة على ما وليت والشكر لك على ما أوليت والمهدي من هديت والخير كله فيما قضيت هذه مقدمة انتجتها الاستشارة وراءها العبد الفقير ناجحة صالحة فأعنا اللهم ببركة القرآن وسر الفاتحة والسلام من الفقير المشير محمد باشا باي صاحب المملكة التونسية في 20 محرم 1274 هـ صح محمد باشا باي والله على ما نقول وكيل .

ولما كان العمل باجراء قواعد هذا المهد يستدعي زمنا له بال لأجل تدوين قوانينه التي عليها مدار الأحكام وعرضها على الدول ذوات الشأن بعد ترجمتها للغات الأجنبية لادخال رعاياها الساكنين بالمملكة التونسية تحت احكام القوانين التي يراد انشاؤها واجراء العمل بها . توقفت مدة مع حرص الوالي على السعي في اتمامها وقد اخترته المنية قبل ذلك ولما تولى المرحوم أخوه محمد الصادق باي الامارة وذلك في صفر 1276 هـ سعى في اتمامها وابتدأ جريان العمل بها في شوال سنة 1277 هـ وقد وقفت على بعض التقاييد ممن له المام بأسرار الدولة وخباياها من تصرفات رجالها ان الوزير مصطفى خزندار هو الذي ألح في اتمام القوانين واجراء العمل بها لأنه لما جلس المرحوم محمد الصادق باي على تخت الامارة وكان له دراية كغيره من بقية العائلة الحسينية بسوء تصرف الوزير المذكور خشي الوزير سوء مغبته فسعى لدى

قناصل الدول وبعض من يعلم منه مداخلة الباي لابقائه في منصب الوزارة كل على حسب الاقتضاء فانقاد لهم الوالي وأقره على منصبه لكنه لم يأمن على نفسه وبقي خائفا يترقب فألح على الباي في انفاذ قانون عهد الأمان واجراء العمل به ليطمئن على نفسه مما كان يتوقعه وحلف الوالي على انفاذه وعدم مخالفته وكذلك سائر المتوظفين ورتبت المجالس في بلدان المملكة والمجلس الأكبر بمركز الولاية وهو الذي عليه مدار حفظه كيانها وترتيب سياستها وتعقيب ما يعرض عليه من احكامها لكن لما لم يكن للوزير قصد حقيقي في اجراء العمل به كما علمت وانما قصده حفظ مصالحه الذاتية وقد اطمأن عليها بمعاضدة الباي له ومصافاته أضمر السعي في ابطال اجراء القوانين وارجاع الحالة القديمة لأنها هي التي تلائم اغراضه وتصرفاته بدون قيد فصار يضع العقبات في سبيل سيرها وينتحل الأسباب التي تعينه على ابطالها فاستعفى بعض اعضاء المجلس الأكبر تفاديا من القاء المسؤولية على عواتقهم فيما ينتج من تصرفات المجلس التي هي ثمرة اعمال الوزير ثم تراكمت النفقات وتكاثرت بسببها الديون على الحكومة لتسديد المطالب التي تتقاطر عليها لأن الوزير صار له من المرتبات لخصوص ذاته على الوزارة الكبرى مائة وأربعون الف ريال وعلى وزارة الخارجية ستون ألف ريال وعلى وزارة المال ستون ألف ريال الجملة ثلاثمائة وثمانون الف ريال بضميمة وستين ألف ريال على وزارة العمالة وستين الف ريال على نيشان آل البيت الحسيني وهي عبارة عن مائتي ألف فرنك وثمانية وعشرين ألف فرنك مع انه ينفق غير ذلك من اموال الحكومة في مصالحه الشخصية من غير احتساب عليه حسبما اتضح ذلك بعد للعيان بعد تدقيق الحساب معه عند انتصاب الكمسيون المالي الذي أشرنا اليه وكان ذلك من جملة الخيانات التي أوجبت تأخيره ولنعد الى الأسباب التي انتحلت لابطال العمل بمواد عهد الأمان والمجالس العدلية. قلنا ان النفقات تراكمت على الحكومة حتى عجزت عن تسديدها بل عجزت عن القيام بمصاريف ذات الوالي الخاصة وعائلته وتعذر التداين لامساك الماليين عن ذلك وقد عمد الوزير بمضاعفة المجبي وهي الأداء الشخصي المرتب على عدد الذكور البالغين واستبد هو بذلك بعد ان عارضه بعض اعضاء المجلس الأكبر وأوضحوا له سوء مغبة ذلك وقام الأهالي معارضين لهذا الاقتراح أولا لثقل وطأته وثانيا لمخالفته لأصول الضرائب الدولية لأن الأداءات المفروضة على الأمم انما توظف على المكاسب لا على الرقاب مع ان المرحوم محمد باي انما فرضها مؤقتا ريثما يتوفر لديه ما يقوم مقامها عندما تنمو ثروة الأهالي بسعيهم في انتشار الحركات الفلاحية والتجارية بسبب اقرار الراحة والاطمئنان وثالثا أن الأهالي رسخ في عقولهم ان الامير حلف على الوفاء بالعهد الذي هو الأمان على الأبدان والأموال بحق وهم قد طلبوا المفاهمة مع الدولة في هذا الشأن، وحيث ان الوزير ينتهز الفرص لابطال المجالس أشاع بأن الأهالي انما ثاروا طالبين ابطال المجالس والغاء اجراء العمل بالقوانين لمخالفتها للقواعد الشرعية وبادر لابطالها بالفعل مع ان الأهالي لم يتشكوا من المجالس ضرورة انه لم يكن فيها ما يخالف قواعد الشرع الاسلامي، نعم اشتكوا من عدم جدارة أعضاء بعض المجالس بعدم فهمهم لمواد القانون وتطبيقه على الوقائع لأن أغلب القبائل وبعض البلدان لم يكن لهم من المعلومات ما يخولهم منصب الأحكام لخطارتها ولأن المجالس الحقيقية صارت صورية محضة لأن روحها احتساب الأمة بواسطة من ينتخبونه لتدوين القوانين بعقود مع أن بعض أعضاء المجلس الذين لهم دراية وربما أبدوا بعض ملحوظاتهم بادروا بالاستقالة من العضوية بمجرد ما رأوا بعض الخلل في تصرفات المجلس ولذلك سجل بعض القناصل من الدول الأوروباوية على ابطالها لأن ابطالها مخالف لروح العدل الذي عليه مدار حفظ الحقوق وخاطب قنصل انكلترة حضرة الباي بمكتوب، **ونصه مترجما للعربية** : «في فبراير 1864 م / 1280 هـ المعروض على جنابكم الرفيع اني أرى من الواجب أن نذكر جنابكم في هذا الوقت الذي أحواله ألزمت جنابكم توقيف القوانين والتراتيب المؤسسة على الحرية والحنان في بلادكم فإن هذه التراتيب وقعت الوصاية فيها وكان ترتيبها بملاحظة الدولتين الحبيبتين الانكليزية والفرنساوية وجنابكم وعدهما اذ ذاك رسميا باتمامها وابقائها على قوتها وعدم تغييرها ووكيل الدولة الامبراطورية الفرنساوية ورد له الاذن من دولته كما ورد لي الاذن من دولتي لأنهما على اتفاق واحد في النازلة والحث على ترتيب المجالس المختلطة بسرعة لفصل نوازل الجنايات والنوازل المتجرية لما يلزم من الوقت للعمل في القانون المتجري ولما كان الاذن المذكور الصادر لنا من دولتنا الذي تشرفت بفرضه عليكم بمكتوبي المؤرخ في 17 سبتمبر 1857 م وهو نظير المكتوب الذي خاطبكم به مسيور روش نصا سواء ولم تزل المكاتيب موجودة يجب ان يكون سير نواب الدولتين في هذه المملكة على مقتضاها . ولذا يلزم ان نطلب من جنابكم بشدة حرص زائد على ابقاء المجالس وهو المبادرة الى المجالس المختلطة الموعود بها منذ زمان طويل وبمقتضى ما تقدم طلبت مشاركة جنرال قنصل فرنسا في هذا المطلب كما يطلع جنابكم على نسخة المكتوب الموجه منا اليه وهو المسيو دي موفلان هذا وزيادة على الوعد الرسمي الذي أعطاه جنابكم الى ملكي انكلترة وفرنسا بحفظكم للتراتيب المبنية على الحنان والتمدن التي أعطاهما جنابكم لبلاده لا يخفى عليكم أن دولة انكلترة عقدت مع دولتكم شروطا تقتضي دوام التراتيب المذكورة لأنها الحافظة لحقوقها نحو رعاياها في هذه المملكة ومع وجود ذلك فتبديل تراتيب الحكومة الآن والرجوع للحالة القديمة بدون سبقية اعلام للدولتين الانكليزية والفرنساوية فمقصود جنابكم يظهر منه في السياسة انه فعل يدل على نقصان الاعتبار وايضا يظهر منه انه غير صواب مع الدولة الانكليزية التي في شروطها الأخيرة صدقت أمان الحكومة التونسية ومحبة الدولتين لجنابكم توجب على عدم الزيادة في المشاق الموجودة في حكومتكم

بمطالبة تشق في هذا الوقت ولكن واجبات خدمتي تلزمني أن أطلب منكم رسميا دوام الاصول المؤسسة عليها إدارة الحكومة وخصوصا التي أترك لجنابكم انتخاب الكيفية التي تظهر لجنابكم انها ملاءمة ومناسبة لاجراء تلك الأصول والأجناس المتقدمة في التمدن ربما لزمهم في أدوار مختلفة بدون تعرض للأصول المؤسسة عليها القوانين بتبديل كيفية العمل بها وهذا الباب مفتوح لتونس اقتداء بالدول الأوروباوية الذين لا شك في فطنتهم وحكمتهم وهذا الأمر يظهر انه سهل حيث ان التشكي الواقع من زيادة الأداء ومن تطويل المجالس في الحكم يمكن دواءه بما تتهنى به البلاد وترجع الى حالها الأصلي وهذا أعظم دليل على حسن خلق الرعية المستنتجة من هذه التراتيب لأنهم بوجود في تاريخ تونس مثل سيرة القبائل في هذا الزمن لما لهم من الشكايات وهم متسلحون على عادتهم السابقة في سالف الزمان لكنهم لم يتعرضوا بسلاحهم الا للاحتماء من أداء ثقيل فوق طاقتهم».

وكذلك قنصل دولة فرنسا سجل على ذلك وخاطب الوالي على هذا النمط وأجاب الوالي بأن القانون باق على قوته وانما ظروف الأحوال اقتضت ايقافه ومن ذلك وهو سنة 1280 هـ، تسلطت الأيدي بالنهب والسلب والقتل والضرب والسجن بالأشغال الشاقة لمجرد التشهي والانتقام واستمر الحال على ذلك الى ان رتب الكمسيون المالي وذلك في ربيع الأنور سنة 1284 هـ، وحيث كانت أعمال الكمسيون مراقبة مالية الحكومة وضبطها على الوجه الملائم لحالها ولمصلحة أرباب الديون وكان من مقتضيات خدمته مباشرة العمال الذين بيدهم استخلاص أموال الخزينة الدولية وهذا يقتضي تحسين الادارة وهو انما يتم بالعدل الذي هو قوام العمران وبدون ذلك لا يستقيم الأمر الذي عليه مراد حفظه حقوق الماليين ولذلك ابتكر الوزير خيرالدين طريقة تحفظ بها حقوق الماليين بدون اجحاف بسياسة الحكومة بأن جعل رئاسة الكمسيون للوزير الذي هو مفتاح الحل والعقد لدى رئيس الدولة ولقب ذلك الوزير بالمباشر ورتب أشغال الوزارة على الصورة الآتية وهي الوزارة الكبرى وتنحصر فيها شعب الادارة سوى وزارتي الحرب والبحر فلكل منهما وزير خاص غير انه تحت نظر الوزارة الكبرى بمعنى أن الوزير الأكبر ثم الوزير المباشر هما اللذان يباشران جميع المصالح اما بواسطة او بدونها ثم قسم ادارة هذه الوزارة الى أربعة أقسام. **القسم الأول** تحت رئاسة مستشار ويرجع اليه جميع الأمور السياسية العامة وأحوال المالية الخاصة بدخل الحكومة وخرجها دون ما يتعلق بالكمسيون المالي.

القسم الثاني تحت رئاسة مستشار ويرجع اليه ما يتعلق بشكايات الرعية المتوظفين والعسكر، **والقسم الثالث** تحت رئاسة مستشار ويرجع اليه ما يتعلق بالحقوق الشخصية بين افراد الرعية التي تحيلها العمال فما لم تشملها انظارهم او ترفعها الخصماء وتنشر لدى هذا القسم سواء كانت مدنية او جنائية واما المسائل الخفيفة، فما هو خارج عن نظر القضاة فقد جعل لها ترتيبا وجعلت لنظر العمال يفصلونها وتضبط بدفاتر خصصت لذلك، **والقسم الرابع** تحت رئاسة مستشار ويرجع اليه ما يتعلق بالخارجية وتمادى الامر كذلك الى ان تخلى الوزير خير الدين عن الوزارة فوقعت بعض تغييرات في فروع بعض الادارات ولما احتلت دولة فرنسا واقتضت مواد المعاهدة المنعقدة بينها وبين الباي تحسين الادارات فكان من جملة ما سعت في تنظيمه فروع الادارة العدلية على حسب ما سمحت به الظروف فقسمت العدلية الى قسمين جنائية ومدنية وظيفة كل قسم تتبع ما يعرض عليه من النوازل ولكل قسم فروع.

الفرع الأول : مكتب الادارة وظيفته قلم الضبط ومهمات الادارة وخزنة مكاتيبها ومتوظفوها وتوجيه المكاتيب الصادرة منها. **الفرع الثاني** : مكتب النوازل الجنائية وظيفته حراسة العدلية والنوازل الجنائية والمخاطبات المتعلقة بها وتنفيذ العقوبات والنظر في مطالب العفو. **الفرع الثالث** : مكتب النوازل المدنية وظيفته النوازل المدنية والمخاطبات المعلقة بها وتنفيذ الأحكام المتعلقة بالمعاملات. **الفرع الرابع** : وظيفته بحث النوازل الجنائية. **الفرع الخامس** : محكمة الوزارة وظيفتها تحضير الأحكام جنائية ومدنية وعرضها على الباي لامضائها.

واستمر الأمر كذلك الى سنة 1314هـ/ 1896 م وفي هذه السنة صدر أمر بترتيب المجالس الافاقية. القصد منها تسهيل فصل النوازل واجراء العدل بين الرعية ولها قانون خاص كافل بنظامها وترتيبها على ما يقتضيه الحال. ووظيفة هذه المجالس الافاقية النظر في سائر المعاملات فيما دون المائتين فرنك بدون استئناف وما فوقها مع الاستئناف لدى محكمة الوزارة ومن جهة الجنايات فانها تحكم بالعقوبة المالية الى نهاية مائة فرنك وبالسجن الى غاية ثلاثة اشهر ومع امكانية الاستئناف في النوازل الجنائية التي تفوت عقوبتها ما ذكر وتبت لذلك مجالس سبعة أحدها بتونس ثم سوسة ثم القيروان ثم صفاقس ثم قابس ثم قفصة ثم الكاف وكل مجلس له دائرة يتعاطى ما يعرض من نوازلها التي هي من علائقه وترجع نوازل الجريد الى مجلس قفصة بحيث أن ما يعرض للأهالي من النوازل المدنية الخفيفة يفصلها العامل وما سواها يقرره ويوجهه لمجلس الدائرة وقد جرنا الحال الى الكلام على ما يتعلق بالادارة التونسية لما لها من العلاقات ببلاد الجريد التي هي موضوع البحث والله يحكم ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب.

مطلب المعارف بالجريد

المعارف في قطر الجريد لها رواج منذ القديم وقد نبغت فيه فطاحل تشهد لها الرجال وتركوا مخلفات من التآليف المعتبرة يشار اليها بعلو الشأن ولاسيما نفطة وتوزر وقفصة، ولكن من أواخر القرن العاشر أخذت في التقلص بسبب كثرة الفتن وانتشار الظلم والعدوان والاستخفاف بالعلم والعلماء وارتحلت فئات عظيمة من القطر وزهد الناس فيه وفي أواسط القرن الثاني عشر توجهت همم بعض الموفقين الى احياء ما اندثر من رسوم العلم وأنشؤوا مدارس فأحدثت مدرسة الباي بنفطة سنة 1136 هـ أمر بانشائها المولى حسين بن علي وجعل الانفاق عليها من ربع أوقاف مدرسة المرادين بتوزر التي أحدثها محمد بن مراد لأن الأوقاف الموقوفة بغابة نفطة على أوقاف مدرسة المرادين بتوزر حسبما وقفت على ما يؤيد ذلك في بعض المكاتب ولم تزل محفوظة عندي رحم الله الجميع . وفي أواخر هذا القرن أحدثت مدرسة سيدي سالم بن علي حذو ضريح شيخه سيدي طاهر بن احمد بن عبد الرحمان بن احمد معاد وأوقف عليها أوقافا كافية للقيام بشؤونها وايواء المتعلمين والنفقة عليهم ومن أواخر القرن الثاني عشر تكاثرت المدارس لهذه الغاية ففي سنة 1186 هـ أحدث أحفاد الشيخ سيدي احمد معاد المدرسة والقبة حول ضريح جدهم المذكور وأوقفوا عليها من الأوقاف ما يقوم بمصالحها والقيام بنفقة من يقطع للتعليم بها وفي سنة 1217 هـ أحدث سيدي ابراهيم خريف مدرسته وأوقف عليها أوقافا وافية بما يقوم بمصالحها ونفقة من يأوي اليها كما أحدثت في عشيرة الشرفاء مدرسة سيدي ضيف الله ومدرسة سيدي ابراهيم بن احمد وفي عشيرة بني علي احدثت مدرسة سيدي مصطفى بن عزوز وفي كل مدرسة من هذه المدارس لها عدة مدرسين . ففي مدرسة الباي الشيخ الساسي بن قويدر والشيخ سالم بن علي الجمني الذي تقلد خطة القضاء بنفطة ثم الفتيا بها وفي مدرسة سيدي سالم يدرس بها الشيخ ابراهيم بن عمر الذي تقلد خطة القضاء ايضا بنفطة وفي مدرسة سيدي احمد معاد يدرس الشيخ بلقاسم بن عمر المعادي والشيخ احمد الصغير وتقلد الاول خطة القضاء والثاني الخطابة مدة أربعين عاما كما درس بها الشيخ ابراهيم بن ساعي والشيخ احمد زروق والشيخ احمد الصالح بن عمر الذي تقلد خطة القضاء بنفطة والشيخ محمد المبارك الذي تقلد خطة باش مفتي نحو أربعين سنة ويدرس بمدرسة سيدي ابراهيم خريف الشيخ الناصر وأخوه الشيخ العروسي الذي تقلد خطة القضاء والخطابة نحو ثلاثين سنة والشيخ محمد الصحبي وأخوه الشيخ محمد الكبير الذي تقلد خطة القضاء بتوزر وراقم هذه الأسطر أي المؤلف والشيخ عبد الباقي الذي تولى خطة القضاء بتوزر والشيخ محمد الناصر خريف والشيخ عبد الكريم بن محمد الناصر ويدرس بمدرسة سيدي ضيف الله الشيخ عمر بن عثمان والشيخ ابراهيم صمادح الاصغر، والشيخ علي بن فتيتة والشيخ محمد العبيدي وفي مدرسة سيدي ابراهيم بن احمد يدرس الشيخ عبد الله الذويبي والشيخ محمد الكيلاني والشيخ محمد العبيدي وفي مدرسة سيدي مصطفى بن عزوز درس الشيخ محمد المداني بن عزوز والشيخ ابراهيم بوعلاق والشيخ السنوسي القفصي والشيخ المكي والشيخ محمد الامين بن المدني وأخوه الشيخ احمد الامير والشيخ محمد الصالح بن حمادي وابنه الشيخ محمد الصغير وغيرهم وهناك أناس آخرون انتصبوا للتدريس بغير هذه المدارس كالشيخ النوري بن بلقاسم المنتصب بجامع سيدي مخارق وكالشيخ يوسف بن عون والشيخ علي بن الحاج نصر المدرسين بجامع الزبدة والشيخ الناصر وشيخه الشيخ ابراهيم صمادح الاكبر المدرسين بجامع علقمة والشيخ عبد الباقي بن صابر والشيخ مصطفى بن التارزي وأخيه الشيخ عبد الكريم المدرسين بجامع المصاعبة وبهذه النهضة الميمونة صار للعلوم الدينية ووسائلها اسواق نافعة في الجريد كما احدثت بتوزر مدرسة سيدي ابي بكر الشريف والد سيدي المولدي رحم الله الجميع وخصص لها نفقات طائلة للقيام بمن يأوى لها ويرد عليها واحدثت مدرسة الشيخ احمد بن حامد وأوقف عليها المرحوم الصادق باي أوقافا ذات بال للقيام بمصالحها وأحدثت فضلاء عشيرة الزبدة بزعامة الشيخ ابراهيم ابن علاق مدرستهم التي نسبوها للقطب الاعظم سيدي ابي علي رضي الله عنه وخصصوا لها ما يقوم بها وقد صارت الوفود تفد على الجريد للورود من مناهله العذبة لاقتناء العلوم والاخذ عن هؤلاء العلماء الاعلام وكان لأغلب هؤلاء المدرسين اعانات كافية من شيوخ المدارس والزوايا ولما وضعت الجمعية يدها على الاوقاف بأمر من الحكومة وانتزعت المدارس والجوامع مع اوقافها تقلص ظل التدريس واخذ في الانحطاط ولم يبق الا افراد قليلون يدرسون مجانا على حسب ما تسمح لهم الظروف وبعض الأفراد لهم اعانات طفيفة لا تسد عوزا ولذلك فان بعض العائلات النبيهة ممن رسخ فيهم اصول العلم واشربوا حب الورود من مناهله وجهوا عنايتهم لتوجيه ابنائهم لمزاولة العلم من الكليات المركزية فارتحل عدد ليس بالقليل لحاضرة تونس وأخذوا في اقتنائه من الكلية الزيتونية عن شيوخ أجلة فنبغوا في العلوم الدينية ووسائلها والعلوم العقلية ودقائقها وبعضهم ارتحل لمصر لمزاولة العلوم بأزهرها فصار لعلماء الجريد شهرة امتازوا بها على غيرهم لما لهم من القابلية والاستعداد الفطري والذكاء الطبيعي بمقتضى طقس بلادهم وغذاءهم لولا انه يسرع اليهم الملل والسآمة فهم لا يثابرون عن العمل الذي هو روح النجاح ولذلك قال شاعرهم عند ذكره لمحاسن الجريد والتنويه بشأن علماءه.

لـولا المـلال بـه لأصبـح أهـلـه ... وهم بكـل دجـنـّة أقمـار

كما انهم مخصوصون بخلق الترفع وتوهم الكمال ولهذا السبب فإن اهل الجريد مهما بلغوا الى اقصى درجة في العلم لم ينخرطوا في سلك المراتب الدولية كالوزارة وما شاكلها ولو بلغ بعض الأفراد منهم كابراهيم بن عون الذي استولى قيادة جميع بلاد الجريد وكعلي الساسي الذي أضاف للجريد بلاد نفزاوة وجبال قفصة وغالب أحياء الهمامة فانهم اضطروا لذلك بسبب ولاية بعض المماليك على أوطانهم فيعيثون فيها فسادا فكانت ولايتهم بدافع الغيرة على وطنهم وان لم يقصروا في الركض خلفهم وربما سبقوهم في ذلك الميدان. وخلق الترفع وتوهم الكمال اقتضت الحالة الاجتماعية والاستقراءات العادية انهما يحرمان من اتصف بهما من السعادة بالترفع في منصة الحكومة وذلك لأن الانسان انما يحصل على هذه المراتب غالبا بواسطة الخضوع والتملق لمن فوقه والتقرب اليه بالخدمة والانتماء والتزلف بالنصيحة والانتظام في حواشيه واهل قرابته حتى يرسخ قدمه معهم ويندمج في خدمتهم ويتدرج في مراتب الترقي حتى ينظمه السلطان في بطانته وجملة حاشيته فيحصل على الحظ العظيم من السعادة وينتظم في عدد أهل الدولة وقد عقد ولي الدين ابن خلدون فصلا في هذا المعنى حيث قال: «فصل في أن السعادة والكسب انما يحصلان غالبا لأهل الخضوع والتملق وان هذا الخلق من أسباب السعادة». واستدل على ذلك ببراهين اقتضتها العادات الاجتماعية ولن تجد لسنة الله تبديلا. كما ان لأهالي الجريد ولوعا عظيما بعلم الأدب لرقة طباعهم وجودة قرائحهم وقد نبغ فيهم عدد كبير أحرزوا قصب السبق في ميادين الشعر الرقيق الذي يأخذ بمجامع القلوب فمنهم الشيخ ابراهيم بوعلاق الذي تقدم نتف من ترجمته في الكلام على توزر ومنهم الشيخ ابرهيم البختري الذي ارتحل الى القاهرة وأقام بالأزهر مدة طويلة ومنهم الشيخ محمد الأمين بوعلاق وأخواه الشيخ عبد اللطيف والشيخ محيي الدين والشيخ سليمان بوعلاق والشيخ عامر الشابي والشيخ المداني بن الشيخ ابي بكر المولدي والشيخ حسن ابن عون النفطي الزبيدي وهؤلاء كلهم اقتنصوا جواهر الأدب من بحور الكلية الزيتونية أدام الله عمرانها وقد تقدم هؤلاء الأعلام أيمة لا يشق غبارهم كما نبغ ببلد نفطة كثير من الأدباء فممن أدركناه العالم التحرير صاحبنا الشيخ يوسف بن عون كان شاعرا وأديبا بليغا وله ديوان شعر أتى فيه من غرائب البراعة وما تطأطأ له رؤوس البلغاء ومنهم الشيخ المكي بن عزوز له القدح المعلى في فنون الشعر وطرقه وله قصائد رنانة زيادة عما نظمه من المؤلفات في فنون شتى ومنهم الأديب الأريب الشيخ احمد الأمير بن الشيخ المدني بن عزوز فإنه فضلا عن ملكته في الشعر واتقانه لأساليبه فإن له اقتدارا عجيبا على ارتجال النظم ومنهم الحسيب النسيب الشيخ محمد الخضر بن الحسين كان ارتحل لمحروسة تونس وجدّ في اقتناء العلوم ولازم عدة أعلام فحصل على حظ الأوفر من العلوم العقلية والنقلية وأحرز على رتبة التدريس بجامع الزيتونة ثم قلد خطة القضاء ببنزرت وبادر للاستعفاء منها رغبة في بث بذور العلم في رياض الجامع الأعظم. ومنهم العلامة الأديب الشيخ علي بن الحاج نصر الذي تقلد خطة القضاء بقفصة ومنهم العالم المجد الحازم المجتهد الشيخ خليفة بن عروس كان عالما نزيها وبارعا فقيها وكان مولد هذا العالم الجليل بمدينة نفطة في حدود سنة 1280 هـ فأخذ العلم عن علماء أجلة كالشيخ النوري والشيخ محمد المبارك المعادي والشيخ يوسف بن عون الزبيدي والشيخ ابراهيم بوعلاق.

ثم تاقت نفسه الى الارتحال على ما هو عليه من ضيق الحال فأناخ مطايا الامال بالجامع الأعظم جامع الزيتونة فرتع في رياضه وكرع من عذب حياضه الى ان امتلأ وطابه وعذب شرابه فأحرز حلبة السبق في ميدان الامتحان التطويعي ثم شمر على ساعد الجد وتقدم للمناظرة مع نظرائه للحصول على رتبة التدريس وبالرغم عما اعترضه في سبيل ذلك فقد أدرك ضالته المنشودة فحصل على رتبة التدريس وشرع ينشر الدر النفيس بغاية الجد مع غاية التدقيق ونهاية التحقيق وبذل من النصح واتقان أساليب الالقاء ما شهد له به أعيان الفضلاء فكان الطلبة يتزاحمون على دروسه بجامع الزيتونة، توفي سنة 1325 هـ وقد رثاه كاتب هذه الأسطر بقصيدة نصها:

خطب ألمّ بركن الدين وانهدما	وأرسلت أعين الباكين منه دما
وبات كل فؤاد فيه لوعته	تأجّج الحزن في الاحشاء واضطرما
وامطر الجامع الأعلى مدامعه	من فقده نعمات الدرس واحتدما
تضاءلت شمس هدى فيه اذ كسفت	فيا له حادث للعلم قد دهما
تبكي الأساطين ممن قد ألمّ بها	من فقد بحرها قد كان ملتطما
أعجب ببحر زلال طاب مشربه	والبحر ملح أجاج ورده حرما
يا سادة وردوا من عذب منهلة	فاستوهبوا الله يوليه بكم كرما
لكم ملتم وطابا من جواهره	به تعاظم فجرا قركم وسما
هو الهمام الذي قد طاب محتده	وخط في صفحات المجد وارتسما
نبراس علم بدت من نوره سرج	تاجه العلا برفيع الفخر قد وسما
خليفة المصطفى محيي سنته	بدر هدى نوره الأعراب والعجما

الله أكبر كيف البدر يوضع في طي التراب ويلقي السقم والألما

يا عابثا بنفيس العمر تنفقه مستعوضا لسراب خلت ذلك ما

لا تغتر بجلي الدنيا وزخرفها واسع لنفع فما ساع كمن حرما

واسلك سبيل الأولى قاموا ببزرعهم ببذور علم زكى من سعيهم ونما

وانفقوا مهجا في نفع جنسهم وشيدوا صرح مجريات محتكما

احياء معنى وان ماتوا فغرسهم قد أثمر الفجر والاداب والحكما

هيهات هيهات من للمعظلات ومن كشاف أسرارها تحت الثرى ردما

سعد البلاغة قطب الدين شمس هدى شهاب حق لسلطان الهوى رجما

واكرم يا رب وارحم نزيلا حل ساحتكم تاريخه بجزيل الفضل قد ختما

ومنهم الشيخ عثمان المكي تقلد خطة القضاء بتوزر لأسباب حافظ بها على مركزه ثم انتقل لتونس وحصل على رتبة التدريس بالجامع الأعظم وانتفع به خلق كثير وهؤلاء الأعلام كلهم اقتطفوا أزهار الاداب والمعارف من رياض الجامع الأعظم واقتنصوا الجواهر من بحوره الزواخر وكان شيوخ التدريس يباهون بتلامذتهم من أهالي الجريد لما يعجبون به من فرط ذكائهم وسرعة تحصيلهم في المدة القليلة ما لم يحصلهم غيرهم في اضعافها وقد كان العبد الضعيف من الملازمين لدروس الشيخ سالم بوحاجب واتفق عند ختم المطول على التلخيص لسعد الدين التفنزاني ان تهيأ بعض تلامذة الشيخ لنظم قصائد مشعرة بختم الكتاب مع مدح الشيخ والدعاء له وكان من عجيب الاتفاق انه لم يكن يحضر ختم الكتاب من أهالي الجريد غيري فاقترح الأديب الأريب الضارب في مذاهب الأدب بأوفر نصيب الشيخ محمد السنوسي التونسي بأن أنشىء قصيدة في الغرض المذكور فاعتذرت عن سلوك تلك المحجة وعدم القدرة عن مجاراة فرسان هذا الميدان مع تقدمهم عني في السن والمدة فأجابني بأنكم معاشر أهل الجريد تحصلون في السنة بما لم يحصله غيركم في سنوات فدعاني ذلك الاطراء وشدة الحياء الى الانخراط في سلك المنشئين للقصائد فنظمت قصيدة في هذا الموضوع واني على علم من تطفلي على التشبه بالقوم والوغول في مجتمعهم وهي أول قصيدة نظمتها فلما تلوتها في ذلك المجتمع المهاب عند الختم وكان المجلس حافلا بالمشائخ أهل المجلس الشرعي وأكابر المدرسين وغيرهم على عادة الاختام المعتبرة وانتهيت من تلاوتها خاطبني الشيخ سالم أطال الله بقاءه بقوله :

واذا رأيت من الهلال نموه أيقنت أن سيصير بدرا كاملا

ثم بسط كفيه وقال اللهم اجعله كمثل حبة أنبتت سبعة سنابل في كل سنبلة مائة حبة . والله لمن يشاء ولاتمام الفائدة التي ربما تشوّف القاري لها وتاقت نفسه للاطلاع عليها ونصّها :

تهلل وجه السعد والسعد طالع وداعُ الهنَا في روضَة العزِّ راتع

وذا عندما ماست بقد مهفهف فجنت قلوب من هواها مصارع

وحيت خيالا كاد يعدمه النوى ففازت بوصل الروح منها المطامع

وأبدت محيا بين ليلى شعرها كأن سناء البدر في الأفق ساطع

فلله من ورد بجنة خالها وحارسه شزر عن القطب رادع

ولاح وميض البرق لما تبسمت فأضحت لها شمس الضحى تتواضع

تناولني طورا كؤوس حديثها وطورا لأفنان الدلال تراجع

وعند انهزام الليل قامت وودعت وسمت على روض الخدود المدامع

فكم بت أرعى النجم خوفا من الضيا ينم فلا يبقى الخليل المضاجع

وبانت فأضحى القلب منها متيما عديم اصطبار ما له الدهر دافع

فؤادي لا يبغي بديلا بذكرها سوى مدح من للعلم والحلم جامع

أبو حاجب شمس المعارف من له مآثر في أفق الكمال سواطع

هو الجهبذ النحرير مفرد عصره سراج العلوم اللوذع على المتواضع

وانسان عين المجد روح حياته وبدر المعالي في سما الفضل لامع

بتقشير أسراره يجلى عن العقل غيهب وتدنو الى الفهم البطيء الشواسع

فكم مشكلات كالسما فابانها ... شموسا لها ضوء لدى الفكر ساطع
وكم من معان من بديع بيانه ... تصاغ فتجلى فهي بيض نواصع
هو الشمس الا أنها لم تكن لها ... فروع ومن هذا السراج طوالع
ويبدي علو ما لم تكن في حساب من ... يحاول تحصيلا لما هو نافع
خضم اذا وفيت ساحل درسه ... تفوز بدرّ اللفظ منك المسامع
سديد الحجا اذا ما بدت نغماته ... ترى الناس من كل النواحي تسارع
إذا صار يبدي في عجائب سحره ... إجلالا فكل مشرئبا مطاوع
لقد سمحت كف الزمان لتابه ... وعهدي بها أن لا تبين المنافع
ملأ الأرض علما يا له من سَمَيْدَع ... أشارت له بالمكرمات الأصابع
فدونك مضى العلم واغنم دروسه ... فمجلسه في الورى لا يضارع
يدوم لنا شمسا بجاه محمد ... رسول الورى من في البريئة شافع
صلاة وتسليما عليه وآله ... متى قام يشدو في الاثيلات ساجع
وما قال داع بالهناء مؤرخا ... يختم هناء كاليا لا يوادع

وقد أنبتت أرض الجريد نباتا حسنا وأثمرت من العلماء الأفاضل أفرادا تفتخر الايالة التونسية بهم رحمه الله السلف وبارك في الخلف ومما يحسن أن نسوقه هنا على وجه الاستطراد الأبيات التي مدح بها الشاعر البليغ الشيخ محمد الحشائشي التونسي بنفطة وتوزر عند زيارته لبلدان الجريد للتفسح وترويض النفس سنة 1320 هـ وشطرها كاتب هذه الأسطر تنويها بشأن المادح واستدلالا على أفضل الممدوح ونصها بحروفها :

ولو سألوني عن بساتين نفطة ... مدينة أهل العلم والفضل والفخر
ومنبع أهل الخير والحلم والحجا ... وتوزر والماء العباب الذي يجر
وما حوت كلتاهما من مآثر ... حسان وخيرات تجل عن الحصر
جواهر فضل قد حوتها بحورها ... بدت مثل عقد الزهر في عنق الدهر
لقلت هما الفردوس والخلد اذا بدا ... بأرضهما ما تشتهيه من الخير
ترى منظرا يسبي العقول بحسنه ... جنى الجنتين من عبابهما يجر
فنزه رعاك الله طرفا بنظرة ... الى جنة الدنيا وحافظ عن الفكر
فمن كان ذا هم يزول اذا رنا ... الى حسن ذاك النخل منشرح الصدر
ترى رطبا يبدو بطلع منضد ... ويسرا يصاغ من لجين ومن تبر
وطعمها الفالوذج الرطب اذ بدا ... فابشر بمبيض وانعم بمصفر

أما الكتاتيب القرآنية فهي كثيرة جدا بحيث تكاد أن لا تجد مسجدا ولا مدرسة بدون معلم لتعليم الصبيان مبادىء الكتابة وحفظ القرآن زيادة عما يوجد من الكتاتيب الخصوصية التي يعدها ذووا اليسار لأبنائهم خاصة ولذلك قل ان تجد من لا يحسن الكتابة والقراءة بالجريد وان كان التعليم لازال على الشكل القديم ولذلك ترى السير بطيئا بحيث يمكث التلميذ نحو العشر سنين ولا يحصل على اتقان رسم الكتابة ولو في خصوص الحاضرة التونسية لان نظم أنظارهم هو حفظ القرآن ورسمه وانما بعد حفظ القرآن، من يتصدى للتعلم يتفرغ عند ذلك لاتقان الخط وتعلم الرسم بصفة خاصة وأما أسلوب التدريس فلهم فيه طريقتان : **الطريقة الأولى** في تدريس كتب الفقه. فانهم يقتصرون فيها على تصوير المسائل في المتن وما تصدى الشرح لحله بما يتعلق بفقه المسألة **والطريقة الثانية** تدريس العلوم العربية وغيرها فإنهم يتوسعون في شرحها وتوجيهاتها وتعليلاتها وما يتعلق بها من الأبحاث الفنية وقصارى القول ان تحصيل روح المسائل الفقهية سهل التناول بواسطة التدريس في بلاد الجريد فلو أن الحكومة وجهت عنايتها لهذا القطر بأن تمد له يد المساعدة فتمد عددا مناسبا من المدرسين بإعانات مالية من فواضل أوقاف المدارس التي أسسها مؤسسوها لهذه الغاية لكانت للعلوم بهذه الأصقاع أسواق نافقة.

مطلب الصنائع بالجريد

توجد بأمهات بلاد الجريد وهي توزر ونفطة وقفصة ودقاش وكذلك بنفزاوة جميع الصنائع الضرورية للهيأة الاجتماعية وهي : البناء والحدادة والنجارة وصناعة القرميد المسمى بالآجر الذي يصنع من الطين وبعد تشميسه الى ان ييبس يسخن بالنار حتى يتصلب وهو الذي يعتمدونه في بناء مساكنهم ولهم في وضعه انواع من الزينة شبيهة بنقش حديدة يتفننون فيها . اما ما يحتاجونه من مواد البناء فلا يجلبونه من خارج . فهم مستغنون عن ذلك اذ السقوف والأبواب يتخذونها من خشب النخيل والأشجار التي يستنبتونها عندهم وكذلك سرر النوم وظروف الحمل تتخذ من جريد النخل ايضا كما تتخذ منه البسط المعبر عنا بالسجاجد للصلاة والجلوس عليها . اللهم إلا من أراد التأنق من ذوي اليسار فيجلب ما يتميز به من الخارج . اما البناء فيعتمدون فيه على الآجر الذي يصنع ببلدهم والصخور التي تقطع من مقاطعهم والبنى المتركب من الطين والرمل وأجزاء معروفة عندهم وبعد مزجه بالماء وتخميره تخميرا محكما ثم يبقى في الشمس حتى يجف ويتصلب وبعد بنائه فبعضه يلحمه بالجص فيصير له منظرا مهما وخصوصا اذا غشي بالنور ولما كان قطر الجريد قليل الأمطار وجاف الهواء فالبناء فيه يطول أمده كما أن لهم اعتناء بصناعة الخزف وهي أوان تصنع من الطين للأكل والشرب والطبخ وحمل الماء وخزن الزيت ولهم اعتناء بدباغة الجلود وصنع الأحذية وبرادع الدواب اما الثياب الصوفية والحريرية والممزوجة بها فلهم في نسجها براعة غريبة ويتفننون في صفاقتها واتقانها فلا تجد في المصنوعات اليدوية لها مثيلا ويتغالى الناس في اقتنائها بأثمان باهظة ويتفاخر المثريون في ذلك ولو أن في السنين الأخيرة زاحمتها المعامل الأروباوية فلازال اقليمي الجزائر وتونس وغيرهما من الأقاليم القريبة لهم اعتناء باقتنائها ويتغالون في أثمانها أما صناعة الطيب فإن الطريقة القديمة المبنية على التجربة الشفاهية هي التي يسلكونها أو يقتبسون من كتب الطب والحكمة ما قدروا على فهمه كتذكرة داود والدرة المنتخبة ومفردات ابن البيطار وكتاب الرحمة في الطب والحكمة وتسهيل المنافع وكنوز الصحة وغير ذلك، اما الجراحات والكسر فلهم فيها طرق عجيبة في علاج الأولى وجبر الثانية يتلقاها الخلف عن السلف وعلى الخصوص الكسر فإن جبره بسيط جدا عندهم اذ بمجرد ما يكسر العضو يعمدون الى تحضير أعواد مستقيمة والغالب ان تكون من القصب ويجبرون العضو على حسب حالته الطبيعية ثم يضعون عليه قطنا أو صوفا يحيطونه به ويلفون عليه خرقة ويطلونها ببياض بيض الدجاج ثم يديرون تلك الأعواد على كامل العضو ويربط كل عود بخيط يوصله بالعود الآخر وهكذا إلى أن يتم دوران تلك الأعواد على العضو من الجهتين العليا والسفلى ويبقى معتدلا ممتدا على مقتضى حالته الطبيعية فلا يلبث أن يزيد من أسبوع حتى يلتحم العضو كحالته الأصلية .

مطلب التجارة ببلاد الجريد

كانت للتجارة بهذا القطر أسواق نافقة في السنين الفارطة مع بلاد السودان ودواخل الصحراء حيث تتجهز القوافل ويحملون بضائع يستبدلون بها بضائع تلك الجهات كالتبن والزباد وريش النعام والجلود المدبوغة والرقيق وغير ذلك ثم ينتقل الى داخل القطر التونسي والقطر الجزائري فيربحون فيها الأرباح الطائلة وهذه الحركة خاصة بأفراد لهم دراية وخبرة بالتوغل في دواخل السودان مع جرأة واقدام بصعوبة تلك المفاوز لقلة مائها وكثرة رمالها ووعرة مسالكها ولهذه الأسباب كان الاشتغال بهذه الحركة مختص بمن لهم معرفة ببعض أهالي تلك الانحاء ولذلك فالارباح المتكون من هذه الحركة وافرة جدا لما فيها من المخاطر أمّا التجارة العامة فانها متبادلة بين أهاليّ البلاد وغيرهم من سكان القطر فيجلبون الى البلاد الصوف والحرير والمصنوعات التونسية وينقلون المنسوجات الصوفية والحريرية والمركبة منها والجلود ونتائج البلاد من تمر وزيت الزيتون وغيرهما وقد كان لأهالي هذه البلاد قبل الاحتلال الفرنساوي ترتيب في نقل البضائع وجلبها بسبب قلة أمن الطريق فيجمعون عددا وافرا من أرباب الابل مسلحين ويتقلدون هم سلاحهم بعد ان يهيئوا ما أحضروه من البضائع ويكترون تلك الابل بكراء له بال ويتهيئون للسفر . اما للقطر الجزائري او للقطر التونسي . فيبيعون ما حملوه بأثمان مرتفعة ويستبدلون بأثمانه بضائع أخرى إما من المصنوعات التونسية او الأروباوية او النتائج الجزائرية ويرجعون بها لبلادهم فيبيعونها بأرباح مهمة ايضا بحيث ان التجارة في بلاد الجريد وان كان دورانها قليلا كقلة الأمن وتعسر المواصلات لكن الأرباح كثيرة بالنظر للفوائض المتكونة منها بسبب قلة المزاحم ولولا سيرة الحكام الاستبدادية التي منها استنزاف الأموال بوسائل الضغط لكان لسكان الجريد ثروة عظمى . اما في هذه السنين الأخيرة فالتجارة تخضرمت أحوالها واختلطت طرقها بسبب تكاثر الأيدي عليها مع الجهل بمناهجها الحديثة وذلك أن القوافل التي كانت تتجهز الى بلاد السودان ودواخل الصحراء انقطع أثرها بالمرة لأسباب كثيرة منها احتلال بعض الدول الأروباوية للمراكز التجارية بدواخل السودان وتسهيل وسائل التنقل فاستغنوا عن غيرهم واثروا الاختصاص بالأرباح من أن يشاركهم فيها غيرهم وأخذت المواصلات تتناقص مع بلاد السودان لنقص الأرباح عما اعتادوه ومنها بطلان تجارة الرقيق ومنها ربط مواصلات بلاد السودان بالقطر المصري فصارت تجارتهم مرتبطة معه طردا وعكسا

فلهذه الأسباب مع المخاطرة انقطعت رأسـا ، اما التجارة العامة المتبادلة مع القطر التونسي والقطـر الجزائري فقد اعتراها فتور لأسباب كثيرة أخصها تشبث التجار بـالحالة القديمة وجهلهم بنظام التجارة الحديثـة التي من أهم فروعها ضبط الصادرات والواردات يـوميا من مكاتيب وقوائم وبضائع بدفاتر مخصوصة معدة لذلك وتحرير حسابها تحريرا مدققا بتواريخها التي يعبرون عنها بعلم مسك الدفاتر ولا يخفى ان الجهل بهذا الأساس مقوض لهيكل التجـارة ففي هذا الدور انقلبت هيأة التجـارة وغيرها من بقية الحركات الاقتصاديـة من دور الانحطاط الى دور الترقي وذلك أن حالة التجارة في القديم بسيطـة جدا حيث ان التاجر يجهز بضاعته مرة في السنة مثلا يستعد لها بجميـع ما يحتاجه ويأخذ أهبة السفر وعند انتهاء سفره ورجـوعه لمحل اقامته يَعمل حسابه وينهي أعماله وقد حصل على ربح جزيل ثم يتجهـز لحركة أخرى من جديد لأن الحركة بطيئة والـربح وافر بسبب قلة المزاحم واما التجـارة العصرية فهي مغايرة للتجـارة القديمة اذ بوجود وسـائل النقل وربط المواصلات وسرعة المخابرت بـواسطة البريـد والأسلاك الكهربـائية والحوالات الماليـة سهل التهافت على الـدخول في هـذا المعترك من غير استعداد اذ التجارة العصرية وان كانت قليلة الـربح بالنظر للبيعة الواحدة ولكن ينمو الربح بدوران المتاجـر وتداول الحركات مع الضبط بكيفية منظمة وانى لنـا بمن يتقن نظامهـا من الأهليين ومن أسباب انحطـاط التجـارة أيضا اقبـال أهالي القطر على المصنوعـات الأجنبية والأعـراض عن مصنوعـات بلادهم وذهلوا عما ينشأ عن ذلك من هجـوم جيش الفلاقـة عليهم اذ بهذا السبب تنحط قيم البضائع الأهلية أولا لقلـة الراغب فيها وثانيا لفتور عزائم أرباب الصنائع لكساد سـوق صنائعهم . واعظم من الكل افراغ ثروة البلاد في صناديق أرباب المعامل الأجنبية لأنهم يشترون المواد الأوليـة بأثمان زهيدة ثم يـردونها لهم مصنـوعات مـزخرفـة بألـوان مختلفة فيبيعـونها لهم بأثمان مرتفعـة اذ ربما يشترونها بعشرة أضعافها وزاد الطين بلة اندفاع الناس مع تيار المخترعات والتألق في المآكل والملابس والمراكب والملاهي ومجاراة من لا قدرة لهم على مجاراتهم بسبب احتكاك العناصر المتولد منها التقليد الأعمى من غير أن يكون في التقليد ما ينفع في حركاتهم الاقتصادية وان كان الجهل بعلم الاقتصاد داء سرى في شرايين جميع العنصر الاسلامي اذ لم يكن فيه كتب مؤلفـة عندهم يحذون حذوها سوى ما يلتقطونه من كتب لـلافرنج بالصدفة وحيث ان علم الاقتصاد من أهم أسباب الحياة النوعية لزم أن نلم بأنموذج منه حتى لا يخلو كتابنلهذا من فائدة .

اعلم ان علم الاقتصاد ينقسـم الى قسمين الاقتصاد السياسي والاقتصـاد العائلي فـالأول علم يبحث عن ايجاد الثروة الاجتماعيـة ووجوه تصريفها واستهلاكها بكيفية معتدلة فهو علم اجتماعي لا شخصي وليس المراد من ايجاد الثروة هي ان يصبح الناس أغنياء بل المراد البحث عن المنافع العـامة للهيأة الاجتماعية والثـاني علم يبحث عن الثروة البيتية والتصرف فيهـا على نسبة ايجادها ويسمـونه ايضا الاقتصـاد العائلي وانما سمي الأول الاقتصاد السياسي لأن الذين يسعون في ايجاد الثـروة العامة طائفة تلقي اليها الأمة مقاليد سياستهـا تحت رئاسة فرد منها ينفذ ما يستقر عليه رأيها مقـودة بقانون سماوي او وضعي تخصص لها قسطا من نتـائج أعمالها تدفعه للخزينـة العامة ويكون صرفـه على يد ثقات من الوطنيين في المصـالح المشتركة ومن جملتها تهيأة أسباب الثـروة العامة بتسهيل مناهجهـا واستنباط ينابيعها بنشر لـواء الأمن وبسط العدل بين الأهالي بردع اليد الحاكمة عن التجازف والتساهل في الحقـوق ليمكن التصرف في نتائج اعمالهم بكامل الحرية على مقتضى القانون مع تسهيل المواصلات واستخراج المياه وجمع المتفرق منها وتوزيعها على نسبة عـادلة واستنهاض الهمم لاحياء الصنائع باحداث المكاتب حتى لا يضطر الوطنيون بجلب ما يحتـاجونه من الخارج او يهجرون وطنهم لطلب المعيشـة وكان الأولون يهتمون بأمـر الثروة العامة ويحرصـون على وجوه استثمارها وتوزيعهـا ولكنه كلام كان لا يخرج عن حد النصـائح المستمـدة من محض الفكر غير آتية على تـرتيب عملي كما هو الحال اليوم انما كانت تلقي على مسامع الأفراد بعض ارشادات تنهض بهم من دور الانحطاط الى الـدور الذي هو أرقى منه بالنسبة الى وسائل الاسترزاق ولم يعتني المسلمون بتدوينه في علم مخصوص بل يـدرجون مسائله في احشاء مؤلفاتهم العلمية كما فعل ابن خلدون فإنـه ذكر من هذا العلم طرفا مناسبا بمقتضى الحال فلو جرد وحلل تحليلا وقتيا ملائما للحالة الحاضرة لجاء تأليفا حافلا كافلا بسعادة النوع .

مطلب في مبدي شعور النوع البشري بكيفية الاقتصاد

كان الانسان في أول أطواره مقتنعا بما تدفعه الطبيعة في تقيوم أوده وحفظ حياته مما ساقته له الصدفة من نبات الأرض وأعشابها يقتات به ويتقي بأوراق الشجر عادية القر والحر وبما في طبيعة البشر من حب الاستيثار بالمنافع ومدافعة من يأنس من نفسه الاقتدار عن دفعه وقد شعر من نفسه بضرورة اقتناص الحيـوانات فـوجه فكـره لذلك واهتـم باختراع آلـة حادة يتخـذها من الحجـر ويركبهـا على طرف عصـا يضرب الحيوانات التي يريد صيدها او التي تحاول ان تعدو عليه ويدفع بها من يقدر على دفعه من أبناء جنسه وشعر بـاحتياجه الى مأوى يأويه فاتخذ أكواخا من الشجر يأوي اليها عند الحاجة وحيث ان الحقوق المدنية تابعة في شؤونها للانتقالات الاجتماعية كان اول ما شعر به الانسان في هذا الدور الانتقالي ان ينضم الى افراد من امثالـه في صعيد واحد يتحدون على المعيشة فيه ويمرحون كل يـوم في مناحيه ثم يصطادون ثم يعود كل منهم الى كوخـه ليسكن اليه فحدث في هذا الـدور أن كل طائفة من النـاس اتخذت لها مكانا تأوي اليـه وجعلت ما حوله مسرحـا لها تصطاد

وحوشه وتتغذى من ثمرات نباته وربما طوح بالرجل السير أحيانا الى ما يوقعه بين يدي طائفة من الناس اتحدت مع طائفة أخرى وتخيرت محلا خاصا بها فيصيبه منها أذى فتنتصر له طائفته وكثيرا ما يحصل قتال بين الطائفتين من جراء الدفاع عن المواضع فكان هذا أول دور نشأت عنه فكرة الوطن والدفاع عنه وتولدت في هذا الدور وهو دور حدوث الجمعيات اقتناء الحيوانات فنشأت عنه صناعة الرعاية وهي ثاني درجة من الصناعة التي ارتقى اليها النوع البشري وكانت صناعة الرعاية تجمعهم بعد أن كانت الصناعة الأولى تفرقهم وتولدت عن الرعاية أي قيادة الحيوانات وتربيتها للاستفادة منها اي من لحومها وألبانها وأشعارها وأوبارها مبادىء بعض الصنائع اليدوية مثل اصطناع الألبسة والخيام ومقاود الخيل لرياضتها. وفي خلال هذا الدور اكتشفت صناعة النسيج فالرعاية مع ما تستدعيه من حفظ البهائم لاجتناء نتائجها وعلمت الانسان في هذا الدور أن يلتصق ببني جنسه ويعتمد عليهم وهذه درجة من درجات الترقي في حياة الأمم وكما هدت الرعاية أصحابها الى الاجتماع هدتهم لترتيب درجات الأفراد بالنظر لمزاياهم وقابليتهم ولكنهم لم يغيروا من أمر معيشتهم شيئا على الحالة الاشتراكية بل كانت حياتهم مشتركة بالنظر لحاجاتهم يستفيد كل منهم من فضل المال العام لأن مالك الحيوان يحتاج الى التنقل دائما من مرعى الى آخر وهو كذلك يريد ان تكون الأرض كلها أمامه ملكا مشاعا للمستفيدين منها ولذلك لم تنشأ الملكية الشخصية فى الأدوار الاولى لمضادتها طبيعية تلك الأدوار وتارة يحدث ان طائفتين من الرعاة تنموا رجالها وبهائمها فتحتاج للتوسعة في الأرض وربما تصادمها في طريقها طائفة أخرى فيقع الحرب بينها وينشأ عن ذلك نقص في الأموال والأنفس وربما يحصل أن الطائفة الراعية التي تريد الامتداد تصادف في طريقها جبلا شاهقا يعترضها فيردها على أدبارها أو أمة أشد شكيمة منها تضرب وجوهها فتردها من حيث أتت فاذا طرأت هذه العقبة تضطر الطائفة الراعية للمكث مكانها وتستحيل حياتها الى حياة مستقرة فتتغير أحوالها الاجتماعية وتحملها الحاجة لأن تسلك طريقة جديدة في الحياة فتتولد عاطفة الزراعة واستدرار خيرات الأرض بالعمل والكد فتصبح أمة زراعية وهنا يحدث انقلاب وتغيير جديد بالنسبة لتوزيع الأرض وتخصيصها بالأشخاص لأن كل كائن من الكائنات الحية لأجل ان يحصل على حاجاته وكمالاته الشخصية مضطر لأن يلتصق بالعالم الخارجي يستمد منه عناصر يحيى بها حياته المقدرة ولما كان النوع البشري بما أودعه الله فيه من العقل الذي هو دالة التدبير والتفكير، كان كلما شعر بطور أرقى من الحالة التي هو عليها سعى فيها واتخذ وسائل التوصل اليها على قدر وسعه ومتى حصل على حاجاته تولدت له منها حاجات اخرى خاصة وكل حاجة تولد فيه رغبة تبعثه على الاندفاع بمجهود لتحصيل تلك الحاجات الخارجية الملائمة له وتراه مضطرا لذلك لأن الحصول على تلك الأشياء يدفع عنه آلاما والحرمان ومنها يوقعه فيها لأن حاجات الانسان في أطواره تشبه حاجات الطفل في تدرجها وترقى أنواعها فكما ان الطفل عند ميلاده لا يضطر لأكثر من اللبن والمهد ثم تنشأ فيه بنمو جسده احتياجات للأغذية المختلفة والملابس المركبة والالاعيب المريضة ولا تمضي عليه سنة حتى يتسع نطاق حاجاته وتتشعب فروعها وكذلك الحال في الجمعيات البشرية وان كانت تختلف تلك الحاجات باختلاف الأزمنة والأمكنة فما يحتاجه اهل هذا العصر وشعروا بانه من لوازم الحياة مثل حفظ الصحة والنظافة والتعلم والسياحة والمراسلات لم يكن معروفا في الادوار الاولى وكذلك ما هو ضروري في البلاد الأروباوية من كيفية المساكن والملابس والمآكل والمراكب البخارية والمخابرت بواسطة الأسلاك الكهربائية لم يكن معروفا عند أسلافنا ومما لا مشاحة فيه أن أحفادنا سيشعرون بأكثر مما ذكر اذا تقرر ذلك فاعلم أن الأمم التي تقنع بالقليل من الحاجيات ولا تمتد مطامعها الى ما يبعد عن الدائرة التي حصرت نفسها فيها ودامت مكتفية من الغذاء بشيء يدفع عنها ألم الجوع ومن المأوى ما يقيها لفح الشمس فهي لا محالة عرضة لأول أكل وبشرها بالجلاء العاجل من تلك الأرض التي عجزت عن الاستفادة منها واستخراج كنوزها الطبيعية فيأتي من الأمم الحية من يزحزحها عن مركزها ويخلفها في تلك الأرض فيتصرف في طبقاتها ويستخرج منها الذخائر الثمينة التي دخلت بها عن ابنائها العاقين فتصبح تلك الأرض المعطلة جنات تجري من تحتها الأنهار ويصبح ما بقي فيها من أهلها خولا وعبيدا مسخرين للوافدين عليهم يقنعون منهم باليسير من أجر فهم في نظر ساداتهم كالآلات يستخدمونهم في الأمور الشاقة بما يسدون به خلّيتهم ولذلك فإن الأمم الذين استنارت بصائرهم بأنوار المعارف وشعرت بأن الحاجات البشرية لا تتناهى دائما بالمرصاد من نظراءها فتتخذ جميع الوسائل لاستعلام كل حادث من أسباب الترقيات المادية والأدبية فمهما شعرت بأمر جالب للثروة إلا وحذت حذوه كي لا تكون عالة على غيرها أو شعرت باختراع آلة هجومية او دفاعية إلا وبادرت لمجاراتها حتى لا تكون طعمة لغيرها ومما يجب أن يكون دستورا أن الحاجات الاقتصادية ليست مجردةمن نتائج أدبية عالية لأن كل حاجة بمثابة رابطة جديدة تزيد انضمام الناس لبعضهم لأن تلك الحاجات متنوعة لا تنتهي عند حد ويستحيل على الفرد الواحد القيام بها اذ أن نيلها لا يتأتى الا بالاشتراك ومن هنا ينمو في البشرية الشعور بالتساعد والترافد ولذلك فإن الذين قلت حاجاتهم لا يحتاجون لغيرهم احتياج الذين ترقى شعورهم وذلك مثل ساكني الخيام فان نفوسهم لا تتشوف لأكثر من الخبز واللحم البسيطين وما يقيهم عادية القر والحر ما لم يمتزجوا بالحواضر ولذلك فإن حاجات الانسان الحيوية هي العامل الوحيد للعالم في الحركة المعاشية وهي أساس علم الاقتصاد غير أن تلك الحاجات محدودة بالنظر لمقاديرها وغير متناهية بالنظر لأعدادها فالانسان يكفيه من الطعام والماء مقدارا لا يتعداه حتى أنه لو شرب اكثر من كفايته أو

أكل أكثر من كفايته المعتادة عاد عليه بالضرر وربما قتله واما بالنظر لتعددها فهو دائر بين حاجاته ورغباته في مثل الحلقة المفرغة فهي لا تنتهي حتى تبتديء فهو لا يكاد يصل لرغبته حتى تخزه حاجة جديدة ثم ان الحاجات الانسانية لا يخلوا امرها اما أن تكون في حيز العدم فتقضي بها نواميس العمران ويبرزها ترقي الانسان في الشعور أو يكون الموجود منها حاجات سافلة فتنتج منها حاجات من جنسها غير أنها أرقى منها وأكثر نفعا في بابها فتتلاشى تلك الحاجات السافلة وتخلفها الراقية . فالترقي في المدينة يقضي برفع الاحتياجات السافلة في الأمة واحلال احتياجات أرقى منها وأكثر نفعا في بابها وقد اقتضت الحكمة الالهية ان يودع الباري جل وعلا في النوع الانساني عقلا يفتكر به ويتدبر به صوالحه فيجب ان لا يخلو وقت من أوقاته ولا نفس من أنفاسه عن فكر أو عمل فيما يصلح معاشه أو معاده لألا يذهب عمره سدى فإن الانفاس محسوبة عليه .

ليس الحياة بأنفاس ترددها   أن الحياة لهي الفكر والعمل

ولهذه الحكمة البالغة جاءت شريعتنا المطهرة بمنع تناول المسكرات التي تلحق الانسان بأنواع الحيوانات العجم ويحرم من آلة الفكر والتدبير .

واهجر الخمرة ان كنت فتى   كيف في جنون من عقل

وقد اهتدى المفكرون من غير أهل الدين الاسلامي الى مضار المسكرات فشمروا عن ساعد الجد في محاربة الادمان وأسسوا منتديات سموها «قهاوي الاعتدال» وجعلوا الغرض من ايجادها حمل الشاربين على استبدال الخمر بالقهوة والشاي والقصد من ذلك ايجاد الجمعيات لأجل احتكاك العناصر ببعضها لتبادل الأفكار في المصالح الحيوية لا لمجرد اللهو ونشر المثالب وقد كفتنا شريعتنا المطهر عن ذلك بوجود الجمعة والجماعات فقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم من الصحابة والتابعين عندما يرون بث مصلحة بين طبقات الأمة فعند اجتماع طائفة بالمسجد الجامع يقوم الخطيب فيدعو الناس اليها لكن أبطلت هذه السنة حكومات الاستبداد كي لا يتطرق الناس الى انتقاد سيرتهم وجاراهم العلماء الذين استمالوهم بأغداق الجرايات والاحسانات الوافرة حتى تنوسيت بالكلية حكمة تشريع الجمعة والجماعات وجمعية الحج وترك خطباؤهم ووعاظهم التعرض للشؤون العامة خوفا من أهل السياسة كما ان عامة العلماء صاروا يسترون جُبْنَهم بجعلهم التحدث في الأمور العمومية والخوض فيها من الفضول والاشتغال بما لا يعني وان اتيان ذلك في الجوامع من اللغو الذي لا يجوز وربما اعتبروه من التجسس والسعي بالفساد وسرى ذلك الى أفراد الأمة لمجرد التقليد حتى صار كل شخص لا يهتم إلا بخاصة نفسه كأنه يعيش منفردا ولم يتأمل قوله عليه الصلاة والسلام المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . سامح الله الجميع . ولكن يمكن الاستعاضة عن حاجات جسدية بحاجات عقلية اذ يمكن اتخاذ نوادي أدبية ويكون التردد عليها قائما مقام التردد عن الملاهي العمومية كي لا تخل حصة من الزمان من فائدة يستفيدها الانسان من الاحتكاك ببني جنسه . وبما تقرر تعلم ان الانسان إذا ارتقى شعوره وارتقت حاجاته وتولدت فيها حاجات لا تقف عند حدود الفرد الواحد يستحيل عليه أن يقوم بجميع ما تستدعيه حاجاته كان من مقتضيات الحكمة الإلاهية أن تجعل الحاجات واسطة للتوصل اليها وتلك الواسطة اما أن تكون سعيا وعملا وعوضا يستبدله بها لأن ما وقعت عليه يد الواحد امتنعت عليه يد الآخر إلا بعوض يسترضيه به لأن الله خلق جميع ما في العالم وسخره للانسان لينتفع به فمتى تجاوز الانسان طور الضعف سعى في اقتناء المكاسب لينفق منها ما أتاه الله في تحصيل حاجاته وما فضل عن تسديد ضرورياته اعتاض به غيره مما تدعو الحاجة اليه وعجز عن تحصيله وحيث كانت الحاجات البشرية لا تتناهى وكانت مقدرة البشر تقصر عن استيعابها ألهم الله الانسان أن يجعل الحجرين المعدنيين من الذهب والفضة أو ما يقوم مقامها قيمة لكل متمول فمن حصل شيئا سهل عليه جميع ما يحتاجه بواسطتها فكأن الأشياء كامنة فيها متى طلب شيئا استبدله بها وكان التعامل بالنقدين وزنا فلما سرى لها الغش عدلوا عن التعامل بهما وزنا الى التعامل بهما عددا مسكوكين واحتاطوا للتحري من الغش بأن تضرب سكة من خالص الذهب والفضة أو تذاكر تقوم مقامها ويجعلون عليها علامة ختم السلطان شهادة على سلامة النقدين وكفالة فيما يقوم مقامها لتطمئن النفوس لذلك وبهذه المناسبة ندرج ما ذكره حجة الاسلام الغزالي في إحياء علوم الدين ما محصله بنصه : «من نعم الله تعالى على خلقه أن ألهم الناس التعامل بالدراهم والدنانير اذ بهما قوام الدنيا وهما حجران لا منفعة فيهما ولكن اضطرار الناس اليهما من حيث أنهم محتاجون الى اشياء كثيرة في مطعمهم وملبسهم وسائر حاجاتهم فجعل الله تعالى الدراهم والدنانير حاكمين بين سائر المتمولات» (انتهى كلام الغزالي) وللتوصل الى كافة الأشياء فمن ملكهما فقد ملك كل شيء بالقوة ولذلك توعد الله من كنزهما او استعملهما في غير ما وضعهما الله لأجله بقوله تعالى : ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم﴾ . هذه الآية جاءت عقب الآية التي وصف الله فيها رؤساء اليهود والنصارى وهم احبارهم ورهبانهم بأكل اموال الناس بالباطل وصدهم عن سبيل الله بعد أن وصفهم في الآية قبلها بالتجبر والتكبر الذين هما من خصائص الرب جل جلاله واتخذوا ذلك ذريعة للاستيلاء على عقول الأمة يوهمونهم أن كل ما ينطقون به عن محض أمر الله ومن عصاهم فقد عصى الله وان رضى الله منوط برضاهم وبهذه الخزعبلات تسلطوا على

فكر العوام يفزعـون اليهم عند النوائب فكانوا لهذه الأسباب يستنزفون أمـوالهم في مقابلة ما يوهمونهم به من قضاء مطالبهم وهـو ما أشار له سبحانه وتعالى منتقدا أفعال هـؤلاء الدجالين ومعرضا بذلك أمة محمد صلى الله عليه وسلم كي لا يسلكـوا مسلكهم بقوله جل وعلا : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا مـن الأحبار والرهبان ليأكلوا أمـوال الناس بالباطل ويصـدون عن سبيل الله والذين يكتنزون الـذهب والفضة﴾ ، اشتملت هذه الآية الكريمـة على الجواهر النفيسة والحكم البليغة والاداب العالية التي هي روح علم الاقتصـاد وخلاصة تهذيب الأخلاق اذ قد جـاءت بالتنذير على مـن لم يحافظ على ماله فينخدع للمحتـالين ويبذله لهم من غير مقـابل بل لمجرد مخادعتهم للبسطاء بقـولهم انه لا سبيل للفوز بمرضات الله إلا بخدمتهم وطاعتهم وبذل الأموال في طلب مـرضاتهم والعوام كانوا يغترون بذلك فنبههم ربنا تقدس شأنه بأن ذلك من أكل أموال النـاس بالبـاطل وكذلك جـاءت في معرض التوبيـخ والتقريع لأولئك المحتالين الـذين اتخذوا هذه الطـريقة السخيفـة وسيلة لاختطاف اموال الغير ولم يسعوا في الارتـزاق من وجوهه اتلطبيعية فالله تعـالى قرعهم على سلوك هذه الطريقة المعـوجة حيث يظهرون تارة بمظهر التجبر والامتيـاز على بقية الجنس ليظهروا بمظهر يلفـت لهم الأنظاروأونة يتظاهـرون بالزهـد في الدنيا والاقبال على الآخـرة ويلقون الخطب الرنانـة على مسامع السواد الأعظم لاستدرار أموالهم فيـوهمونهم أن ما يبذلونه لهم انما ينفقـونه فيما يرضي الله فبهذا التـوبيخ الشديد هتكت سرائرهم وانكشفت أعوارهـم فلم يبق لدي عقل سليم ان ينخدع لأمثـالهم فهذه أقصى درجـات التأديب والتهذيب وقـوله أن كثيرا إشارة الى انه لا يخلو الكون من أفـراد تجردوا للعبادة وارشاد الأمم الى مصالحهم في معاشهم ومعادهم وقولـه ليأكلوا أموال الناس عدل على التعبير بالأخذ الى التعبير بـالأكل تنبيها على شدة حرصهم على اختطاف مـا في يد غيرهم بكل وسيلة كحرص النهم الـذي دعاه الجوع وشدة الاضطرار الى طلب الأكل فإن الجوع يدعو صاحبه الى التهافت عما يأكله ولو أدى الى ارتكاب المعرة فهو مدفوع بطبعه الى تحصيل قوته وقوله بالبـاطل ذهب بعض المفسرين الى أن الأحبـار والرهبـان من اليهود والنصـارى يأخذون ا لـرّشاوي لتخفيف الاحكـام والمسامحة في الشرائع وذهب بعضهم الى أنهم كانـوا يدعون عند العوام انـه لا سبيل للفوز بمرضات اللـه الا بخدمتهم وبذل الأموال في طلب مـرضاتهم والعوام كـانوا يغترون لـذلك سيما وهم يكسونها صبغـة دينية ولا شك أن النـاس مفطورون على الانقيـاد لما جاءهم من قبل الـدين فبهذه الأبـاطيل والخزعبلات تنخدع لهم العامة ويحملونهم على أن يبذلوا لهم أموالهم وأنفسهم في خـدمتهم فهذا هو الباطل الذي يأكلون به أموال الناس قال **الإمام** فخر الدين الرازي في تفسير هذه الآية وتقريره لهذا الوجه «وهـذه الأمور بأسرها حاضرة في زماننا وهو الطريق لأكثر الجهال والحمقى» ثم قال : «ولعمري من تأمل في أحوال أهل زماننا وجد هذه الآيات كأنما نزلت إلا في شأنهم وفي شرح احوالهم فترى الواحد منهم يدعي أنه لا يلتفت الى الدنيا ولا يتعلق خاطره بجميع المخلوقات وأنه في نهاية العصمة والطهارة حتى اذا آل أمره الى الرغيف الواحد تراه يتهالك عليه ويتحمل نهاية الذل والـدناءة في تحصيله» . وهذا التدجيل السخيف انما ينشأ عن أمراض أخلاقية منها دنـاءة النفس ومنها جهل الانسان بما يجب له وعليه فالجهل ينشأ عنه الخروج عن الجادة العمرانية للهيأة الاجتماعية فإن طرق التكسب الطبيعية لا تخرج عن اربعة : زراعة وصناعة وتجارة وإمارة وهو لم يسلك طـريقا من هذه الطرق الأربعة ودنـاءة النفس دهورته الى سلوك طريقـة منحطة حتى عن درجة العجماوات فإن هذه قسمان قسم الـوحوش وقسم المتأنسـة فالاولى تسعى وراء طلب غذائها وغداء صغـارها بكدهـا والثانية تحصل على غـذائها في مقـابلة تسخرهـا فهي تأخذ أجرا على عمل وهؤلاء الـدجاجلة يمتصون دمـاء الأمة بدون عنـاء ولا عوض وقوله «ويصـدون عن سبيل الله» يعني يقفون بالمرصاد لمن يحاول سلوك السبل الموصلة لما أمر الله به ويوهمون الناس أن ما هم عليه هو الحق الذي لا مرية فيه ومن خالفهم فقد ضل سواء السبيل وحيث أن مطلـوب الخلق في الدنيا هو المال والجاه فـاتخذ هؤلاء الجهلة هذين الـوسيلتين أحدهما تزويق مدعيـاتهم لأكل أموال الناس والثـانية صد الناس عن الحق ليقع الاقبـال عليهم والتعلق بأذيالهم وهو غـاية مطلوبهم وقـد فضحهم الله وقوله : «والـذين يكتنزون الذهب والفضة» أصل الكنز في كـلام العرب الجمع وكل شيء جمع بعضه لبعض فهو مكنوز يقال جسم مكتنز الأجـزاء اذا كان مجتمعا بعضه للبعض واعلم أن الله شدد في الوعيد وبالغ في التهديد لمن جمع هذين المعدنين وحبسهما عما اتخذا لأجله فقد تقرر عند علماء الاقتصاد أن المال جسم والعمل روحـه فمن حبس المال فقد أمـاته وأبقـاه جسما بلا روح ومن المعلـوم ان الذهب والفضـة لا منفعة في أعيانهما بـل هما واسطة لتطييب نفس كل من وقعت يده على شيء بـوجه من وجوه التملك ودعت الضرورة لـلانتفاع به فإذا جمعت هذه الـواسطة وحبست تعطلت منفعتها واختل النظام العمراني . هذا ما يتعلق بحالتهما الدنياوية واما مـا يتعلق بهما من جهة الدين فقد أشار له بقوله تعالى : «ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون» . لا شك ان لله حقوقـا على العبد في ماله فمنها الزكـاة ومنها الكفارات عند حصول موجبها ومنهـا نفقة الحج وما يجب من الدين والانفاق على الأهل والعيال وضمان المتلفات وأرش الجنايات فهذه الأقسام كلها داخلة فيما أوجبه الله من الحقوق في المال فمن كنزه ولم ينفق منه في هـذا السبيل الذي أمر الله بـالانفاق فيه تنـاوله هذا الـوعيد المغلظ وبعد أن وصف الله رؤسـاء اليهود والنصارى بأكل أمـوال الناس بالباطل والحرص على استدرارها بوسائل المكر والاحتيال أردف ذلك بوعيد كل من امتنع من اخراجها لحقوق من ماله تنبيها على انه لما كان

حال من أمسك مال نفسه بالباطل . كذلك فما ظنك بحال من سعى في اخذ مال غيره بالخداع والمكر ومنعه من الانتفاع بـه ثم ان الله تعالى ذكر شيئين وهما الذهب والفضة ثم أفرد الضمير في قوله : «ولا ينفقونها في سبيل الله» . استغنى بذكر احدهما عن الاخر كقوله : «واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها» وقوله : «ومن يكسب خطيئة وإثما» ثم يرمي به بريئا فجعل الضمير للتجارة والاثم استغناء بهما ولما كانت غاية مطلوب الانسان وقصارى آماله أن ما يقتنيه من المكاسب وما يدخره من المتمولات انما أعده لضرورياته الحيوية وما تهواه النفس وتلتزم به الحواس ولا شك أن أقوى الحواس التي يتوصل بها لذلك حاسة الذوق ولذا خاطب ربنا جل شأنه «الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فيما أمر الله به» متهكما بقوله : «ذوقوا ما كنتم تكنزون» . فهذا العذاب الأليم هو عاقبة ما كنزتموه فبدلا أن تلتذوا به في ضرورياتكم المعاشية وشهواتكم النفسية كانت عاقبته احراقكم بنار جهنم في جباهكم وجنوبكم وظهوركم أعاذنا الله منها بجاه رسوله المجتبى وحبيبه المرتضى .

مطلب اللغة ببلاد الجريد

لما كان أغلب سكان هذا القطر من العرب الداخلين على عهد المعز بن باديس في أواسط القرن الخامس هجري وما بقي من الأهالي الأصليين من بربر ورومان وواندال اندمجوا في العنصر الغالب كما سبقت الاشارة اليه لغة وعقيدة كما هو الشأن في تداخل العناصر وأكد ذلك ما اقتضته أصول الدين الاسلامي من تناسي الجنسية القومية واعتبار اللحمة الدينية هي النسب الحقيقي إلا أن امتزاجهم بالمصاهرة والظهر قضت بإدخال بعض الكلمات في احشاء لغتهم الأصلية وتغيير حركات الأعراب اما بإبدالها سكونا طلبا لخفة النطق في مجال التخاطب أو للاكتفاء بما حصل به الفهم المقصود للواضع ، ومن حسن الحظ ان البلاغة التي اقتضتها التراكيب العربية من تقديم المسند أو تأخيره والتعبير بالجملة الاسمية والفعلية وتأكيد الحكم باحدى المؤكدات وخلوه منها هي موجودة في لغة أهل هذا القطر من غير اعتبار هذه القيود اذ البلاغة في الكلام مطابقة لمقتضى الحال مع فصاحته والمراد بالحال كما قال التفتزاني : «الأمر الداعي الى التكلم وجه مخصوص . يعني أن الذي يعتبر مع الكلام الذي يؤدي بها لمعنى خصوصية ما هو مقتضى الحال» . يعني أن تلك الخصوصية اقتضاء الحال مثلا كون المخاطب منكر الحكم حال يقتضي التأكيد . ومعنى مطابقته له أن الحال ان اقتضى التأكيد كان الكلام مؤكدا وإن اقتضى الإطلاق كان الكلام عاريا عن التأكيد وكذلك حذف المسند اليه وذكره الى غير ذلك من الإيجاز والإطناب والوصل والفصل وكذلك خطاب الذكي الفطن مع خطاب الغبي فإن مقام الأول بيائن مقام الثاني فالذكي يناسبه من الاعتبارات اللطيفة والمعاني الرقيقة ما لا يناسب الغني واعتبار قيد الفصاحة لا يلزم منه أن يكون الكلام عربيا بحتا اذ تخلل كلمات أعجمية في الكلام العربي لا يخرجه عن كونه عربيا كما حققه الشيخ عبد القاهر وغيره من فحول علماء البلاغة اذ الفصاحة في المتكلم ملكة يقدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح أي خفيف الالقاء سهل التناول والفهم فإن اللغات ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة ونقصانها وليس ذلك بالنظر الى المفردات بل بالنظر للتراكيب فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصودة للسامع وهذا هو معنى البلاغة كما حققه ولي الدين ابن خلدون حيث قال : ومازالت هذه البلاغة ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد ولا تلتفتن في ذلك لخرفشة النحاة القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون أن البلاغة لهذا العهد . وأن فقدت اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع في أواخر الكلم من فساد الاعراب الذي يتدارسون قوانينه وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم وألقاها القصور في أفئدتهم وإلا فنحن اليوم نجد كثيرا من الألفاظ العربية لم تزل في موضوعاتها الأولى والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الابانة موجود في كلامهم هذا العهد وأساليب اللسان من النظم والنثر موجودة في مخاطباتهم وفيهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم والشاعر المفلق على أساليب لغتهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك (اهـ) نعم ان لغة مضر التي نزل بها القرآن ووردت بها السنة هي في أعلى طبقات البلاغة اذ المعاني المقصودة تأديتها قد وضعوا لها ألفاظا تدل عليها تراكيب خاصة بها وبقي ما تقتضيه الأحوال من الخصوصيات التي تكتنفه فوجب أن تعتبر تلك الأحوال في تأدية المعنى مع خصائصه وتلك الأحوال في الألسن الأخرى ما يستدل عليها بألفاظ تخصها وضعا واما في اللسان المضر فإنما يستدل عليها بأحوال وكيفيات في نفس تراكيب الألفاظ وتأليفها من تقديم وتأخير أو حذف أو حركة اعراب وقد يستدل عليها بحروف وتتفاوت طبقات الكلام في اللسان المضر بحسب تفاوت الدلالة على تلك الكيفيات ولهذا كان هذا اللسان أوجز وأقل ألفاظا في تراكيبه وخصائصه وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : أوتيت جوامع الكلم ، واختصر الى الكلام اختصارا ثم أن تراكيب الكلام ترتفع وتنحط بها درجات البلاغة بحسب الملكات الحاصلة للمتكلم فهي في الحديث النبوي أعلى وأرفع بمراتب من كلام فصحاء العرب وبلغائها وفي القرآن العظيم المعجز لكل مخلوق أرقى وأعظم من الكل فأما الحديث فقد ذكر الإمام فخر الاسلام أبو الفضل عياض في التعريف بما خص به النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : واما فصاحة اللسان

وبلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل سلاقة قول وبراءة منزع وايجاز مقطع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معنى وقلة تكلف أوتي جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب يخاطب كل أمة بلسانها ويحاربها بلغتها ويباريها في منزع بلاغتها حتى كان كثيرا من أصحابه فيسألونه في غير موطن عن شرح قوله وتفسيره ثم قال واما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه وحكمه المأثورة فقد ألف الناس بها الدواوين وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب ومنها ما لا يوزن فصاحة وبلاغة كقوله المسلمون تتكفاة دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم على من سواهم وقوله الناس كأسنان المشط والمرء مع من أحب ولا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له والناس معادن وما هلك امرىء عرف قدره والمستشار مؤتمر وهو بالخيار ما لم يتكلم ورحم الله عبدا قال خيرا فغنم او سكت فسلم وقوله أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وقوله ان أحبكم إلي وأقربكم مني منزلا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون الى غير ذلك من جوامع الكلم التي تسحر الألباب وتأخذ بمجامع القلوب وأما القرآن العظيم فبلاغته من قبيل الاعجاز ويقصر اللسان عن الاطناب فيها والايجاز اذ أنه أعجز فصحاء العرب عن أن يجاروه وأفحم بلغائهم عن أن يباروه فطأطؤوا رؤوسهم خاضعين لأوامره ونواهيه منقادين لمواعظه وزواجره منتظرين بشاراته وانذاراته حيث علموا علم اليقين أنه معجزة تحدى محمد صلى الله عليه وسلم دل على عموم رسالته ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ألا ترى ان العرب كانت لهم أيام مشهورة وأسواق معلومة ومواقب مأثورة ينافر شعراءهم بعضهم بعضا وكانوا يتنافسون على الفصاحة والبلاغة والخطابة والذلاقة ويتبجحون بذلك ويتنافرون ويتفاخرون بينهم وكان أكمل حالاتهم في البلاغة ما يحتوي عليه الشعر من الالفاظ الأنيقة والتشبيهات الرقيقة والمعاني الدقيقة اذ الشعر مشتق من الشعور وهو تأثير وجداني يحصل للسامع عند سماعه ما يتلى عليه فتضرب في الطباع البشرية حسبما يقتضيه المقام فينقلب البخل كرما والجبن شجاعة والغضب حلما ويقال في الشعر البليغ يسحر الألباب اي يخلب العقول حتى لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له أن عمدت الى سبع قصائد خيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها في أستار الكعبة فمنها معلقة امرىء القيس ويقال المذهبة أيضا ومذهبة زهير والمعلقات السبع فمنها لامرىء القيس : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل، ومنها لزهير امن امّ أوفر وفي دمنه لم تكلم، ومنها لطرفة لخولة اطلال ببرقة شهد، تلوح كباقي الوشم في طاهر اليد، ومنها للبيد بن ربيعة العامري عفت الديار محلها بمقامها بمنى تابد قولها، ومنها لعمرو بن كلثوم، ألا هبي بصبحك فاصبحنا ولا تبقي خمور الأندرينا، ومنها لعنتر بن شداد، هل غادر الشعراء من متردم أم قد عرفت الرأي بعد توهم، ومنها للحرث ابن جابر، اذ تتاييبنها اسماء رب ثا ويحل من الثواء وبالرغم عن طلاوة النظم واعتدال موازينه وأعاريضه ووقوعه الموقع المؤثر من النفوس فأنه لما نزل القرآن وتليت على العرب آياته سقط اعتبار الشعر في النظر بالنسبة لبلاغة القرآن وحسن سبكه وجودة نظمه واشتماله على النكات الغريبة واللطائف العجيبة فوقفوا مندهشين وأحجموا متحيرين وعلموا انه ليس من مقدور البشر ولم يكن من مألوف كلامهم اذ أنه على طوله وتباين مواضيعه بين أمر ونهي وترهيب وترغيب وتنكيت وتبكيت لم يقع منه لؤلؤة من تيجان بلاغته ولا جوهرة من حلي فصاحته ومع اتفاق فرسان البلاغة على علو شأن المعلقات السبع التي انعقد الاجتماع على تفضيلها فإن أهل النقد قد يزيفون تراكيبها ويعيبون أساليبها ويظهرون من قبائحها ما يمجه السمع وينفره الطبع فقد اتفقوا على أفضلية معلقة امرىء القيس على غيرها من المعلقات اذ لا يرتاب أحد في جودة نظمها وتقدم صاحبها في البراعة والفصاحة والابداع في طرق الشعر من ذكر الديار والوقوف عليها الى ما يتصل بذلك من البديع الذي أبدعه والتشبيه الذي اختاره والتلميح الذي يوجد في شعره والتصرف الكثير الذي تصادفه في قوله والوجوه التي ينقسم لها كلامه من دقة سلاسة وعلو ومتانة وأسباب تحير وأمور تؤثر وتمدح وترى الأدباء لا يوزنون بشعره فلانا وفلانا ولما كان كلامهم من جنس كلامهم أمكنهم تتبع عثراته فوقفوا على معائبه وسقطاته بخلاف نظم القرآن فهو جنس مميز وأسلوب متخصص وقبيل عن التطير متلخص فلا سبيل الى ان يشق غباره ولا ان تتبع آثاره فإذا أردت أن تعرف عظم شأن هذا القرآن العظيم فتأمل ما وجده أهل النقد من المعايب في أجود الشعر وما عثروا عليه من النقائص فانظر الى قصيدة امير الشعراء المشهورة التي مطلعها قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل، بسقط اللواء بين الدخول فحومل فتوضح فالمقرات لم يعف رسمها لما نسجها من جنوب وشمال قال الإمام أبو بكر الفاقلاني في كتابه اعجاز القرآن ان الذين يتعصبون لامرىء القيس وينسبون له محاسن الشعر يقولون هذا من البديع لأنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر العهد والمنزل والحبيب وتوجع واستوجع كل ذلك في بيت واحد ونحو ذلك وانما قلنا هذا لئلا يقع لك ذهابنا عن مواقع المحاسن ان كانت أو غفلنا عن مواضع الصناعة ان وجدت تأمل ارشدك الله وانظر هداك الله انه ليس في البيتين شيء قد سبق في ميدانه شاعرا ولا تقدم به صانعا ومع ذلك ففي لفظه ومعناه خلل فأول ذلك انه استوقف من يبكي لذكر الحبيب وذكراه لا يقتضي بكاء الخلي وانما يصح طلب الاسعاد في مثل هذا على أن يبكي لبكائه ويرق لصديقه في شدة برجائه فأما ان يبكي على حبيب صديقه وعشيق رفيقه فأمر محال فإن كان وقوفه وبكاؤه ايضا على انه عاشق صح الكلام وفسد المعنى من وجه آخر لأنه من السخف على ان لا يغار على حبيبه وان يدعو غيره الى التغازل فيه ثم ان في البيتين ما لا فائدة فيه من ذكر هذه المواضع وتسمية هذه الأماكن

من الدخـول وحومل وتوضح والحقـرات وسقط اللواء وكان يكفيه في التعـريف بعض ذلك وهذا التطويل اذا لم يكن مفيـدا فهو ضرب من العبر ثم ان قوله لم يعف رسمها ذكـر الا لمعنى من محاسنه انه باق فنحن نحزن على مشاهـدته فلو عفا لاسترحنا وهذا بـاب يكون من مساويه اولى لأنه كان صادقا الـود فلا يزيده عفا الرسوم الا جده عهـد وشدة وجد وانما قرع له الاصمعي ما إفادته هـذه الفائدة خشية أن يعاب عليه فيقال أي فائدة لأن يعرفنا أنه لم يعف رسم منازل الأحبة وأي معنى لهذا الحشو فذكر ما يمكن أن يذكر ولكن لم يخلصه بانتصاره له من الخلل ثم في هذه الكلمة خلل آخـر لأنه عقب البيت بأن قال مهل عند رسم دارس من معول فـذكر ابو عبيدة انه رجع فاكـذب نفسه كما قال زهير قف بالديار التي لم يعفها القدم نعم وغيرها الأرواح والديم وقال غيره أراد بالبيت الأول انه لم ينطمس أثره كله وباثاني انه ذهب بعضه حتى لا يتناقض الكـلام وليس في هذا انتصار لأن معنى عفـا ودرس واحد فإذا قـال لم يعف رسمها ثم قال عفـا فهو تناقض لا محالـة واعتذار أبي عبيدة أقرب لـو صح ولكن لم يرد هذا القول مـورد الاستدراك كما قاله زهير فهو الى الخلل أقـرب وقوله لما نسجتها كـان الأقرب ان يقول لما نسجها بالتذكير ولكنه تعسف فجعل ما في تأويل التأنيث لأنها في معنى الريح والأولى للتذكير دون التأنيث وضرورة الشعر قد حملته على هذا التعسف وقوله لم يعف رسمهـا كان الأولى أن يقول لم يعف رسمه لأنه ذكـر المنزل فإن كان أراد بذلك البقاع والأمـاكن التي المنزل واقع منها فذلك خلل لأنه يريد وصفه الذي نزله حبيبه بعفائه أو بأنه لم يعف دون ما جاوره وان أراد المنزل الدار حتى أنّث فذلك ايضا خلل وقد أطال في هذا الموضوع بذكر من القصيـدة ما يزيد على عشرين بيتا كل بيت بين فيه ما اشتمل عليه من المعـائب وأوضح ما فيه من السقطات التي لا يخلـو منها كـلام البشر الى أن قال فـاما نهج القـرآن ونظمه وتأليفـه فإن العقـول تتيه في جهتـه وتحار في بحره وتضل في وصفـه واسترسل في الاطناب والتنويه بقدر مـا وصلت اليه مقدرته فقال سماه الله تعالى جل ذكره حكيما عظيما ومجيدا وقال لا يأتيـه الباطل من يديه ولا من خلفه تنزل من حكيم مجيد وقال لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون.
وقال تعالى : ولو ان قـرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل للـه الأمر جميعا فحذف جواب لوضوحـه وجوابه لكان هذا القـرآن ولأن الحذف أبلغ من الذكـر حيث أن النفس تذهب كل مـذهب وقولـه قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتـوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولـو كان بعضهم لبعض ظهيرا ولو لم يكن من عظم شأنه إلا أنه طبق الأرض قدره وحلل الافـاق ضياؤه ونفد في العالم حكمه وقبل في الدنيـا رسمه وطمس ظلام الكفر بعد أن كـان مضروب الرواق مبسوط الباع مرفـوع العماد ليس على الأرض من يعرف الله حق معرفته ويعبده حتى عبادته ويدين بعظمته وجلاله او يتفكر في حكمتـه وكان كافيا في الدلالة على احجازه فهو كما وصفه الله من أنه نور فقال وكذلك أوحينا إليك روحا من أمـرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي بـه نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم . فانظر الى شريف هذا النظم وبديع هذا النظام وعظم هذا الوصف كل كلمـة من هذه الآية تامة وكل لفظ بديع واقع ـ فقوله وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنـا يدل على صدوره من الربوبية ويبين عن وروده عن الألوهية وهذه الكلمـة نجدها وأخواتها كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير لتميزت عن جميعـه وكانت واسطة عقدة وفاتحة نصرة وغرة شهرة وعين دهره وكـذلك قوله ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا فجعله روحلا لأنه يحيي بـه الخلق فله فضل الأرواح في الأجساد وجعله نورا لأنه يضيء ضياء الشمس في الافاق ثم أضاف وقـوع الهداية به الى مشيئتـه ووقف وقوع الاسترشـاد به على ارادته وبين انـه لم يكن ليتهدي اليه لـولا توفيقـه ولم يكن ليعلم ما في الكتاب ولا الايمان لولا تعليمه وانـه لم يكن ليهتدي كيف يهتدي لولاه فقد صار يهدي ولم يكن من قبل ذلـك ليهتدي فقال وانك لتهتدي الى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا الى الله تصير الأمور فانظر الى هذه الكلمات الثلاث فالكلمتان الأولتان مؤتلفان وقوله ألا الى الله تصير الأمور كلمة منفصلة مباينة للأولى قد صيرها شريف النظم أشد ائتلافا من الكلام المؤلف وألطف انتظاما من الحديث الملائم وبهذا يتبين فضل الكلام وتظهـر فصاحته وبلاغته لأمـر واضح والحمد لله والحال ابين من ان يحتاج الى كشف وتـأمل قوله ـ فالق الاصباح، وجـاعل الليل سكنا، والشمس والقمر حسبانـا، ذلك تقدير العزيز العليم، انظر الى هذه الكلمات الأربع التي اللف بينهما واحتج بها على ظهور قدرتـه ونفاذ أمره أليس كل كلمة في نفسهـا غرة وبمفردها درة وهـو مع ذلك بين انه صادر عن علو الأمـر ونفاذ القهر ويتجلى في بهجة القدرة ويتحلى بخالصة العـزة ويجمع السلاسة الى ذاته والسلامة الى المتانة والرونق الصـافي الى البهاء الضافي ولست أقول انه شمل الطباق المليح والايجاز اللطيف والتعديل والتمثيل والتقريب والتشكيل وان كان قد جمع ذلك وأكثر منه لأن العجيب ما بيناه من انفراد كل كلمة بنفسها حتى تصلح ان تكون عين رسالة او خطبة او وجه قصيـدة او فقرة فاد اللفت ازدادت حسنا وزادتك اذا تأملت معرفة وايمانا ثم تأمل قولـه : «وآيـة لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقـدير العزيز العليم والقمر قـدرناه منازل حتى عاد كالعرجـون القديم» . فتجد كل لفظة وتعلم كل كلمة تستقل بالاشتمال على نهاية البـديع والبلاغة وتتضمن شرط القول البليغ فإذا كانت الآية تنتظم من البـديع وتتآلف من البلاغة فكيف لا تفـوت حد المعهود ولا نحوي شـاو المألوف وكيف لا تحوز السبق ولا تتعالى على كلام الخلق .

وتمادى في ذكر بعض الآيات من القرآن التي تسحر الألباب وتقضي بالعجب العجاب وشرح ما اشتملت عليه من غرائب الاعجاز مع لطائف الايجاز الى أن قال واعلم اننا لم نقصد في ما سطرنا من الآيات وسمينا من السور والدلالات ذكر الأحسن والأكشف والا ظهر لأننا نعتقد في كل سورة ذكرناها أو أضربنا عن ذكرها اعتقادا واحدا في الدلالة على الاعجاز والكفاية في البرهان ولكن لم يكن بد من ذكر البعض فذكرنا ما تيسر وقلنا في ما اتجه في الحال وخطر وان كنا نعتقد أن اعجاز في بعض القرآن أظهر وفي البعض أدق وأغمض ثم انه لا يخفى على ذي ذوق سليم وطبع مستقيم ان الكلام اذا كان مشتملا على أحكام أو حكايات حال يكون قاصرا على درجة البلاغة اذ لا يسع المتكلم تأليف الكلام ببيان الحكم واعتبار ما يلائمه من القيود والألفاظ المناسبة لذلك مع مراعاة الأحوال التي يقتضيها المقام بخلاف القرآن الذي أبهت البلغاء وأفحم الفصحاء فإن بلاغته عامة في كل ما يعبر عنه سواء كانت قصصا او احكاما او ترهيبا او ترغيبا او وعدا أو وعيدا أو تقريعا أو توبيخا أو اقامة براهين وحججا فكل موضوع عبر عنه سحر الألباب ببلاغته وجذب القلوب لخير الله فهو يذكر الألفاظ القليلة المتضمنة للمعاني الكثيرة مع اشتمال على ما يتعلق بها من النكات العجيبة بغاية الوضوح فانظر ما ذكره العلامة الإمام رحمه الله الهندي في قوله تعالى : ولكم في القصاص حياة . فإن هذا القول لفظه قليل ومعناه كثير ومع كونه بليغا فهو مشتمل المطابقة بين المتقابلين وهما القصاص والحياة وعلى الغرابة فجعل القتل الذي هو مفوتا للموت ظربا لها وأولى من جميع الأقوال المشهورة عند العرب في هذا الباب فانهم حاولوا ان يعبروا بقول بليغ لحكم لزجر النوع البشري على الفتك والمحافظة على حياة النفوس فاختاروا كلمة مفيدة لذلك بليغة وجيزة وهي قولهم (قتل البعض احيى للجمع) وقول بعضهم (اكثروا القتل ليقل القتل) وقول بعضهم (القتل انفى للقتل) وأجود الأقوال المنقولة عنهم القول الأخير ولفظ القرآن أبلغ من ستة أوجه، أولها انه أخص من الكل لأن قوله ولكم لا يدخل في هذا الباب اذ لا بد من تقدير ذلك في الكل لأن قول القائل قتل البعض أحيى للجميع لا بد فيه من تقدير مثله وكذلك في قولهم القتل أبقى القتل، وثانيها ان قولهم القتل أبقى للقتل ظاهره كون الشيء سببا في انتفاء نفسه بخلاف لفظ القرآن فانه يقتضي ان نوعا من القتل وهو القصاص سبب لنوع من أنواع الحياة وثالثها أن قولهم الأجود تكرير بعض القتل بخلاف لفظ القرآن ورابعها أن قولهم الأجود لا يفيد العربي من الهجير . اهـ الردع على القتل بخلاف لفظ القرآن فإنه يفيد الردع عن القتل والجرح فهو أفيد وخامسها ان قولهم الأجود دال على المطلوب الذي هو حفظ النوع بالتبع لأن قولهم القتل أبقى للقتل المطلوب فيه القتل والمتسبب الذي هو انتفاء القتل تابع له بخلاف لفظ القرآن فإن دال على ما هو المطلوب بالأصالة وسادسا ان القتل ظلما أيضا قتل مع انه ليس بناف للقتل بخلاف القصاص فظاهر قولهم باطل واما لفظ القرآن فصحيح ظاهرا وباطنا وكذلك قوله تعالى ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله فأولئك هم الفائزون .

حكي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه كان نائما في المسجد فإذا هو بقائم على رأسه يتشهد بشهادة الحق فأعلمه انه من بطارقة الروم من جملة من يفهم الألسن من العرب وغيرها وانه سمع رجلا من الاسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم ص 259 فإذا هي جامعة لكل ما أنزل على عيسى بن مريم من أحوال الدنيا والآخرة وهي قوله تعالى : «ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله» وكذلك قوله تعالى : «كلوا واشربوا ولا تسرفوا» أي لا تتعدوا الى الحرام ولا تكثروا الانفاق المستقبح الذي يفضي بكم الى الافلاس ولا تتناولوا مقدارا يضركم في صحتكم ولا تحتاجون اليه قلت وقد اشملت هذه الآية العزيزة المفيدة بل الدرة النضيرة والجوهرة الفريدة مع ايجازها على أداب الدنيا ومن احكام فقهية وقوانين صحية وعلوم عمرانية واقتصادية واخلاقية وغير ذلك مما هو داخل ضمن التجافي عن الاسراف في كل شيء هذا وقد جرى القلم بذكر بلاغة القرآن العظيم والحديث الشريف بمناسبة الكلام على اللغة العربية تيمنا بعظيم قدرها وتلذذا بما اشتملت عليه من النكات العجيبة واظهار ما لهذه الأمة من الشرف الباذخ والمجد الشامخ وقد ذكرنا ان لغة قطر الجريد عربية لأن سكان هذا القطر من العرب الوافدين وقد اقتضى احتكاكهم بالعناصر الأجنبية ادخال بعض المفردات في احشاء لغتهم وتغيير حركات الاعراب اما بإبدالها بالسكون طلبا لخفة النطق في مجال التخاطب او اكتفاء بما حصل به الفهم المقصود فاتضح ان قطر الجريد افصح ما سمعناه في النطق بجميع الاحرف العربية فقد ذكر العلامة الرحالة الشيخ محمد بيرم في صفوة الاعتبار ان هذا القطر افصح من رأيت على العموم في النطق بجميع الحروف العربية والقاف لها غير اهل الحواضر بكاف اعجمية وقد ورد انها لغة قلت بل هي اللغة الأصلية العربية اعني النطق بالقاف الذي مخرجه بين القاف والكاف فتسمية هذا الكاف أعجمية وهم، قال الامام ولي الدين ابن خلدون في الفصل السادس من الكتاب الأول من المقدمة في الكلام على لغة العرب لعهده ومما وقع في لغة الجيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من الأقطار شأنهم في النطق بالقاف انهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الامصار كما هو مذكور في كتب العربية انه من اقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى وما ينطقون بها ايضا من مخرج الكاف وان كان أسفل من موضع القاف وما يليه من الحنك الأعلى كما هي هي بين فيجيئون بها متوسطة بين القاف والكاف وهو موجود للجيل أجمع حيث كانوا من غرب او شرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الأمم والأجيال ومختصابهم لا يشاركهم فيها غيرهم حتى انه من يريد التعريف والانتساب الى الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بها وعندهم انما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية

والحضري بالنطق بهذه القاف ويظهر بذلك انها لغة مضر بعينها فان اهل هذا الجيل الباقين معظمهم ورؤساؤهم شرقا وغربا في ولد منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس بن غيلان بن سليم بن منصور ومن بني عامر بن صعصعة بن معاوية . بن بكر بن هوازي بن منصور وهم لهذا العهد أكثر الأمم في المعمورة وأغلبهم من أعقاب مضر وهم وسائر الجيل منهم في النطق بهذا القاف الذي مخرجه بين القاف والكاف أسوة ورهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك انها لغة مضر الاقدمين ولعلها لغة النبي صلى الله ع ليه وسلم بعينها وقد ادعى ذلك فقهاء اهل البيت وزعموا ان من قرأ في أم القرآن اهدنا الصراط المستقيم بغير القاف التي لهذا الجيل فقد لحن وأفسد صلاته ثم قال ولم أدر من أين جاءهم هذا يعني نطقهم بالقاف المغربية فإن لغة اهل الامصار ايضا لم يستحدثوها وانما تناقلوها من لدن أسلافهم وكان اكثرهم من مضر لما نزلوا الامطار منذ الفتح واهل الجيل ايضا لم يستحدثوها الا أنهم أبعد عن مخالطة الأعاجم من أهل الأمصار فهذا يرجع فيما يوجد من اللغة لديهم انه من لغة سلفهم هذا مع اتفاق اهل الجيل اجمع شرقا وغربا في النطق بها وانها الخاصية التي يتميز بها العربي من الهجير فبان لك ان هذا القاف الجاري على ألسنة اغلب هذه القارة الافريقية الذين ينطقون باللسان العربي هو أصل اللسان الحضري كما علمت .

فصل في علاقة قفصة السياسية والادارية

لا جرام ان مدينة قفصة جزء من بلاد الجريد وما قيل فيه يقال فيها من جهة ارتباطها بمركز الولاية غير انه بقي الكلام فيما يخصها من جهات آخر حسبما نبينه بعد ولم تزل قفصة تابعة في شؤونها السياسية لمركز الولاية منذ الفتح الاسلامي فمنذ أسست مدينة القيروان صارت جميع البلاد الافريقية تابعة لها سياسيا واداريا مدة دولة الأمويين وصدرا من دولة العباسيين وهي تابعة لمركز الخلافة الاسلامية كذلك ولما استولى امارة القيروان ابراهيم بن الأغلب بعهد الرشيد العباسي ودخل الرشيد في تجديد عهد الولاية مع امتياز بالمعاملات الافريقية على ان يترك له المائة ألف دينار التي كانت تحمل من مصر لافريقية ويحمل ابراهيم من افريقية أربعين ألف دينار كل عام فاستشار الرشيد اولياءه فأشاروا بولايته فأولاه في جمادى الثانية سنة 184 واستقل بالامارة تقريبا وكان ابراهيم بن الأغلب احد رجالات العرب المشهورين بالشجاعة والمروءة والذكاء والشهامة وأصالة الرأي وكان أديبا فقيها حافظا للقرآن عارفا بأحكامه رؤوفا بالرعية فمهد الأحوال وقمع البربر وقطع دابر الثوار وكان سمع من الليث بن سعد ولم يزل مشمرا على ساعد الجد في مقارعة الثوار ودفاع الناعيين الى ان ظهرت دولة الادراسة بالمغرب الأقصى فأمده الرشيد بالمال والرجال وأبلى فيها البلاد الحسن وله واقع مشهورة بالمغرب الأقصى مع اهل دعوة الادريسيين تراجع في محلها وبقيت الامارة في عقبة ومركزها القيروان الى سنة 296 وان نزل بعض أمراء الأغالبة حاضرة تونس في بعض الأحيان ثم جاءت دولة العبيديين وتفرعت منها دولة صنهاجة وصار مركز الولاية العامة مدينة المهدية الى ان جاءت دولة الموحدين سنة 555 على يد امير المؤمنين عبد المؤمن بن علي وفتح المهدية وشرد منها النصارى وصارت افريقية من جملة اعماله ومحط رحال عماله وضمت في سلك دولته فحولوا مركز الولاية الى حضارة تونس في اوائل القرن السابع وصارت جميع بلاد افريقية تابعة في سياستها وادارتها لحاضرة تونس ومنها مدينة قفصة وان وقع لبعض عمالها استبداد بالامر كبقية بلدان الجريد عندما ينتهزون الفرصة لذلك فقد استبد بإمارتها بنوا الرند من عمال الدولة الصنهاجية وذلك عندما تغلب العرب الوافدون من المشرق على بلاد افريقية في دولة المعز بن باديس وانحل عقد نظام الدولة الصنهاجية وارتحل المعز من القيروان الى المهدية وكان عبد الله بن الرند عاملا لصنهاجة على قفصة واصله من حرمة بني صديغان فرع من بني مرين فضبط قفصة وقطع عنها عادية الفساد وصالح العرب على الاتاوة فصلحت السابلة واستقام الحال ثم استبد بأمره وخلع الامتثال من عنقه وذلك سنة 445 واستمر على ذلك وبايعته نفطة وتوزر والحامة وبلاد نفزاوة وسائر اعمال قسطيلية فاستفحل امره وعظم سلطانه ووفد عليه الشعراء والقصاد وكان معظما لأهل العلم الى ان هلك سنة 465 هـ وتولى بعده ابنه المعتز وكنيته ابو عمرو وانقاد اليه الناس وضبط الامور وجني الاموال واصطنع الرجال وتغلب على قموده وجبلا هواره وسائر ما يليها وحسنت سيرته الى ان فقد بصره .

فصل في الكلام على مدينة قفصة

ان الأصل في احداث هذه المدينة وأولية أمرها ان بعض أمراء سبيطلة من الفينيقيين لما حدثته نفسه على الاستقلال على الحاكم العام بقرطاجنة وخشي ان يستعين عليه بأمراء الاطراف كأمير كبة وغيره فأحدث حصنين عظيمين أحدهما جنوبي سبيطلة وهو المسمى عند الرومان كابصة ثم عرب قفصة وثانيهما غربها وهو المسمى تبسة حيث كان للحصن والحضير اهمية عظمى بموقعه الجغرافي ومركزه الحربي وشحنتها بالرجال والخونة والذخائر الحربية ثم اتسع نطاق عمرانها وصارت لكل منهما قوة عتيدة وجنود عديدة ثم ازدادت اهمية قفصة واعتبارها من حيث كونها طريق لأقطار الشرقية فصار لذلك على جانب عظيم من الاعتبار واستمرت قرونا عديدة في النمو وتبحر العمران

الى أن سطت دولة الرومان على دولة قرطاجنة وطحنتها بكلاكلها فاستولى القائد الروماني ماريوس على قفصة وخربها سنة 107 قبل الميلاد المسيحي ثم جدد بناؤها وصارت من اعظم المدن الرومانية قلت وبعد الفتح الاسلامي وقف سير تقدمها في العمران وربما اخذ في التناقص بسبب كثرة الفتن التي وقعت بين الفاتحين من العرب وبين أهالي البلاد من بربر وروبان وفي صدر الدولة الأغلبية تصدى لعمرانها ابراهيم بن الأغلب وجدد بناء حصنها العظيم وحشر بها العملة والصناع من الذين بنوا جامع القيروان وأخذ في احداث ما اقتضاه حسن موقعها وتجديد ما اندثر من محاسنها فصارت من الأمصار العظيمة واستمر عمرانها وازداد رونقها بما لها من الاستعداد الطبيعي الزراعي والتجاري والحربي فقد نقل ابن الشباط عن البكري ان سور قفصة كأنه فرغ منه بالأمس وداخلها عينان نضاختان ينبعان بنهرين خرارتين يسقيان بساتينها ومزارعها وفي داخل جامعها عين كبيرة مبنية بالصخر من بنيان الأولين أربعون باعا في مثلها كذا وقفصة اكثر بلاد افريقية فستقا ومنها ينتشر في افريقية ويحمل الى بلاد الأندلس وبها تمر مثل بيض الحمام وهي تميز القيروان بأنواع الفواكه والتمر وحولها اكثر من مائة قصر عامرة آهلة وحولها الحياة الجارية ثم قال ابن الشباط قلت اما ما ذكره البكري فان بها عينا كبيرة بداخل الجامع فليس في عصرنا عين وكذا القصور التي نقلها قلت ان عصره في المائة السابعة للهجرة التي هي أول دولة الموحدين ولا يخفى ان ما وقع فيها من الحروب والفتن هو الذي تسبب عنه التخريب ثم نقل عن اقتباس الأنوار ما نصه ومدينة قفصة حصينة عليها سور حجارة وفيها عيون ماء داخل المدينة وهي مفروشة بالبلاط وفيها وحولها عمارات كثيرة ذكر ذلك اليعقوبي ينسب اليها جماعة منهم ابو سعيد جميل بن طارق القفصي يروى عن سحنون ونقل عن البكري ايضا ان مدينة قفصة كلها أساطين وطبقات رخام قد بنى خلالها بالصخر الجميل باحكم عمل ثم زعم ان باني صورها غلام النمرود وذكر اسمه قلت وهذا من خرافات القصاصين ان النمرود في زمن ابراهيم الخليل عليه السلام لأنه هو المراد بقوله تعالى : «ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه» كما حققه ثقات المفسرين وأجمعوا عليه ولا شك ان ابراهيم هو الجد الرابع ليوسف الصديق عليه السلام ويوسف في زمن الفراعنة الرعات وبين آخر ملوكهم وميلاد المسيح عليه السلام ألف وسبعمائة سنة كما حرره محققوا المؤرخين وفي هذا التاريخ كانت افريقية الشمالية الغربية مَا هُوَ لَة بأمم البربر الرحالة ومساكنهم الخيام لا يعرفون للخضراء إسماء ولا رسما وانما ابتدأ عمران هذه الجهات الفينيقيون قبل الميلاد المسيحي بنحو ألف سنة كما حققه المؤرخ الشهير والجغرافي الخطير ملطبرون الفرنساوي في الجغرفية العمومية التي ترجمها الشيخ رفاعة المصري والفينيقيون أصلهم من فنيقية مملكة صغيرة قاعدتها مدينة صور على الساحل الشمالي من بلاد الشام وكان لأهلها مهارة في التجارة وهم أول من اهتدى الى خوض عباب البحر وذلك هو سبب انشاءهم للمستعمرات والمراكب التجارية على سواحل البحر المتوسط مثل كريت وقبرص وسردانية وبشمال افريقية أوتيكة التي خربت بعد قرطاجنة وسوسة وبنزرت وبعد تأسيسهم لمدينة قرطاجنة وغيرها من الموانى البحرية وتوغلوا في دواخل البلاد وانتقلت حالتهم من الدور التجاري الى الدور السياسي فأسسوا مدنا أخرى منها مدينة قفصة وعليه فإن بين النمرود وتأسيس مدينة قفصة نحو ألفي سنة فلا معنى لهذه الدعوى الزائفة على ان ابن الشباط نفسه ذكر أن قرطاجنة أسست في زمن داود عليه السلام ولا شك ان داود بعد النمرود بالاف من السنين وقفصة حدثت بعد قرطاجنة بمدة طويلة واما اعتناء الدولة العربية بعمران المدن واحياء ما اندرس من معالمها فقد قلنا ان مدينة قفصة تصدى لعمرانها الأغالبة في صدر الدولة العباسية وتفننوا في أساليب المتمدن الشرقي وامتد عمرانها وشعشعت فيها أنوار المعارف على اختلاف أنواعها وفق سوق العمران واستمر سائرا بسرعة عجيبة الى أن جاءت دولة العبيديين واستعرت نار الفتن بين القبائل وامتد لهيبها الى أقاصي المغرب بسبب الاعتقادات الدينية التي بين الخوارج والشيعة ثم هاجت القبائل العربية من الهلاليين وبني سليم البلاد الافريقية على عهد الدولة الصنهاجية وتأججت نار الحرب بين القبائل البربرية والعربية فانتصر العرب المهاجمون وأخذوا في التخريب والسلب والنهب وافساد السابلة ولازالت على تلك الحالة حتى جاءت دولة الموحدين وقامت الحرب على قدم وساق بينهم وبين القائم بالدولة الملثمية المسمى ابن غانية وسبب تلك الفتن كانت هذه البلاد مسرحا للحروب فتناقص عمرانها وأخذت في الانحطاط ولما زالت أخذت في التقهقر والآن يظهر ان قفصة ستعود الى شبابها والى ما كانت عليه من العمران حيث اكتشفت بجهاتها العربية على مناجم الفوسفات وتشكلت منذ عهد قريب شركة لاستخراج الفوسفات الذي يستعمله المزارعون في تسميد الارض وتقويتها لتكثير محصولها ومدت على نفقتها سكة حديد بين صفاقس والمتلوي مارة على قفصة ليسهل بذلك نقل الفوسفات لجهات أروبا ثم امتد فرع من المتلوي الى توزر وفرع منه الى فريانة والقصرين وسبيطلة والقيروان وبذلك ارتبطت بالمراكز التجارية ولا شك ان ذلك يجعل لها أهمية عظمى بشرط ان تنبعث همة الأهالي الى انتهاز هذه الفرصة الثمينة في استخراج كنوز الأرض ونقلها الى حيث رواجها .

فصل في من استوطن مدينة قفصة

من الشعوب والقبائل ان اول من استوطن هذه البلاد قبائل البربر وكانوا يتخذون خياما من وبر الابل والشعر والصوف يسكنونها ويظعنون بخيامهم لانتجاع المرعى ثم يأوون لهذه البلاد عند الاقتضاء وبقوا على هذه الحالة احقابا الى ان وفدت الأمة الفنيقية على البلاد الافريقية بحرا فجاء دور الانقلاب والتنقل من حضيض البداوية الى أوج الحضارة فأنشؤوا مراكز لرواج نتائج اعمالهم وادارة متاجرهم وشرعوا في اعداد وسائل الزراعة لاستخراج كنوز الأرض وخالطوا البربر باستخدامهم في ضروب الاستعمار وضربوا معهم بسهم في الانتفاع بنتائج الارض فذاقوا لذة الحياة الاجتماعية واستدرار خيرات الطبيعة بعد ان كانوا مشتتين في البراري والقفار يتمعشون مما تدفعه لهم الطبيعة ساذجا فكشفوا لهم صناعة النسيج وفروع البناء ولقنوهم طرق الفلاحة وقد تقدم ان الفنيقيين لما رسخ قدمهم واستحكم امتزاجهم بأهالي البلاد انتقلت حالتهم من الدور الاقتصادي الى الدور السياسي فأحدثوا مراكز برية بحرية تجارية وحربية ومن المعاقل التي احدثوها لهذه الغاية مدينة قفصة ثم توسعوا في اتخاذ المنازل وغراسة الاشجار وبناء المعاصر لعصر الزيتون واتسع نطاق عمرانها واستمر كذلك الى أن جاءت دولة الرومان وسطت على دولة قرطاجنة كما مر واستولت على المراكز الحربية والتجارية واستمرت سائرة في فتوحاتها الى أن أتى الدور الى مدينة قفصة وحيث انها مركز حربي وقفت امام القائد الروماني **ماريوس** ودافعت دفاع الابطال فشددت عليها الحصار حتى اقتحمها عنوة فخربها وذلك سنة 107 قبل الميلاد المسيحي ثم جدد بناءها وعمرها بجلب المهندسين والمزارعين الذين اجتهدوا في البناء وتنوعوا في الزراعة وغراسة الاشجار وتوزيع المياه على اسلوب هندسي واختلطت السكان وتداخلت العناصر من بربر وفنيقيين ورومانيين واستمرت دولة الرومان ناشرة علم السيطرة وعلم تمدنها يخفق على ربوع البلاد من ابتداء تسلطها على دولة قرطاجنة وهو سنة 241 قبل الميلاد المسيحي الى أن أدركها الهرم وأخذت في الانحطاط فهاجمتها أمة الواندال واستولت عليها نهائيا سنة 439 بعد الميلاد وفي مدة الاستيلاء الروماني على البلاد الافريقية التي هي ستمائة وثمانون سنة احدثت عمارات مهمة من مدن رفيعة وحصون منيعة واتسع مجال الزراعة ونفق سوق الصناعة وضرب الأمن اطنابه وسد جلبابه فلما هرمت دولة الرومان هاجمتها أمة الواندال فانتزعت مستملكاتها الافريقية واتخذت قرطاجنة مركزا لها وعاصمة لمملكتها وامتد هجومها الى عاصمة المملكة الرومانية فطحنتها بكلاكلها والله يحكم لا معقب لحكمه واستمرت دولة الواندال ضاربة أطنابها على ما انتزعته من المستملكات الرومانية من سنة 439 الى سنة 534 حين أخلدت الى اللهو والترف واهمال التنظيمات النافعة للممالك فانتهزت دولة الروم الشرقية الفرصة للاجهاز عليها وساقت جيوشها الجرارة تمخر البحر بأساطيلها العظام وألقت مراسيها في الموانىء الافريقية فتلقتها عساكر الواندال وانتشب الحرب بين الجيشين فكانت الدائرة على الجيوش الواندالية واستولت دولة الروم نهائيا على الاراضي الافريقية التي انتزعتها من الواندال وصارت مستعمرة تابعة لدولة الروم التي قاعدتها القسطنطينية وامتد عمرانها وقوي نفوذها في بقية الانحاء الى ان بلغت سلطتها مدينة قفصة وبقية بلدان الجريد ولكن البربر استيقظوا من سنة توحشهم وباحتكاكهم بالعناصر الحية ذاقوا لذة الحياة واشرأبت نفوسهم الى الاستقلال فلم يخضعوا كل الخضوع لدولة الروم بالرغم عما سلكته معهم من الرفق والملاينة ولم تزل البلاد مضطربة مدة مائة واحدى عشر سنة الى أن هجمت الأمة العربية بجيوشها الباسلة بخيلها ورجالها وتقلدوا سلاح الحزم وتمنطقوا بمنطقة العزم وتزودوا قوة الارادة واعتمدوا على الله حتى فتحوها بلدا بلدا الى أن بلغوا في فتوحاتهم الجزائر الخالدات ومكثوا في معاناة فتوحاتها نحو الخمسين سنة لأن الغزوة الأولى تحت لواء عبد الله بن سعد بن ابي سرح سنة 27/ 665م والثانية تحت معاوية بن حديج سنة 45هـ/ 665م والثالثة تحت لواء عقبة بن نافع سنة 51هـ/ 671م والرابعة تحت لواء حسان ابن النعمان الغساني سنة 76هـ/ 695م وقد تقدم في الباب الثاني بعض تفصيل الوقائع الحربية التي جرت بين العرب والروم وبين العرب والبربر الى ان رسخ قدمهم بهذه الديار واستفحل أمرهم وقويت شوكتهم وامتدت ودانت لهم البلاد وخضعت لهم العباد وقد سبق ان الاميرة دهياء البربرية الملقبة بالكاهنة لما هاجمها جيش الأمير حسان وهزمته وانحاز مع جيشه بجهة برقة واخبر أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان بهزيمته فأخبره بالمقام حيث ادركه كتابه الى أن يأتيه ما يعتمده واهتم عبد الملك بأمر افريقية وهزيمة حسان وقد أقام حسان ببرقة خمس سنين ورد له الأمر من عبد الملك ابن مروان فأمده بالرجال والمال والذخائر الحربية وأطلق يده في أموال مصر يأخذ منها كفايته وزحف بجيش جرار على بلاد افريقية مارا على قابس فلما حل بقفصة واقام بها ريثما يوجه طلائعه الى جهات المراكز ويستطلع احوالهم فبادر وفود الجريد لتلقي الأمير حسان يستغيثون به من صنيع الكاهنة فيما ارتكبته من حرق الأشجار وتغوير الأنهار ونهب الأرزاق وهدم الأسواق ودخلوا في دين الله أفواجا طوعا لما رأوه من عدل المسلمين ورفقهم بمن دخل في دين الاسلام واستظل بذمامهم وبهذا نعلم ان قفصة وبلاد الجريد فتحت صلحا ودخل اهلها طوعا في الدين الاسلامي اما المستوطنون بقفصة في هذا الدور الأخير فهم ذرية العرب الفاتحين والذين دخلوا في أواسط القرن الخامس على عهد المعز بن باديس الصنهاجي وبقية من البربر وبقية من الرومان والواندال وما تناسل من جند الترك الأسي المجلوبين من ساحل البحر المتوسط.

ثم ان ابنه تميم هلك في حياته فعهـد لابنه يحيى بن تميم وقام بالامر واستبد على جده ولم يزالـوا بخير حال الى ان نازلهم عبد المؤمن بن علي سنة 555 فمنعهم من الأمر ونقلهم الى بجـاية فمات المعتز بها سنة 557 هـ لمائة واربعة عشر سنة من عمـره ومات بعده بيسير حفيده يحيى بن تميم وقـد ولى عبد المؤمن عـاملا على قفصـة نعمان بن عبـد الحق الهنتاتي ثم عـزلـه بميمون بن جـانا الكنستيفي ثـم عزلـه بعمران بن مـوسى الصنهاجي ولما أساء للـرعية بعثوا لعلي بن العزيز بن المعتـز بن عبد الله بن الرند من بجـاية وكان بها في مضيعة يحترف بالخيـاطة فقدم عليهم وثاروا بعمران عامل الموحـدين فقتلوه وقدموا على بن العزيز فساس ملكـه وحاط رعيته ثم ان يوسف بن عبد المومن جهز لـه اخاه السيد ابا زكريا فحاصره وضيق عليه فأخذه وأشخصه الى مراكش بأهله ومـاله واستعمله على الاشغال بمدينة سلا الى ان هلك وفنيت دولة بني الرند والبقاء لله وحده واستمرت قفصة وبقيـة بلاد الجريد تابعة في شؤونها السياسية والادارية لدولة الموحـدين التي مركزها حاضرة تونس الى ان استولى السلطان ابو اسحاق ابـراهيم بن ابي زكريا الحفصي وذلك سنة 678 حين ابتزها من أخيه الواثق بـن المستنصر وقتله مع بنيه الثلاثة في محبسه فما لبث ان قام عليـه الدعي احمد بن مرزوق بن ابي عمارة الحسيلي اليماىء وزعم انه الفضل ابن أخيه الـواثق ولقب نفسه المهدي والتف عليه جموع كثيرة فزحف لقابس وأطـاعه أهلها وبايعه صـاحبها في رجب سنة 681 وأطـاعه أهل جربة وبلاد نفـزاوة والحامة والجريد فعظم حاله وعظم واشتدت وطأتـه فعقد السلطان الى ابنه أبي زكريا على جربـة ولما بلغ قمودة بلغ من معه استفحال أمر الدعي فـانفضوا من حوله ودخل الدعي بلاد القيروان بجيوشه الجرارة فبايعه أهلها وتفهم أهل المهديـة وسوسة وصفاقس فخرج السلطان ابو اسحاق بعسكره خارج الحاضرة ولما رأى وزيره موسى بن ياسين استعجال الأمر انتفض مع معظم الموحدين فاختل أمره ولحق بقسنطينة ثم ببجاية مستنجدا بابنه أبي فارس فحاوله على الخلع فانخلع وبايعه الموحدون ولقب بالمعضد وخرج لقتال الدعي، واما الدعي فانه دخل الحضرة وبايعه أهلها وتم أمره واستوزر ابن يـاسين وقسم الرتب وعزم على غزو بجـاية واعتقل من بتونس من الحفصيين وخرج من تـونس في عساكر جرارة في صفـر سنة 682 وحمي وطيس الحرب فقتل المعتد واخـوته صبرا وتخلص محمد ابـو حفص عمر راجلا ولما بلغت الهزيمة أهـل بجاية خرج ابـو اسحاق وابنه أبو زكريا لتلمسان فأدركه بعض أتباع الدعي ورجع به اسيرا واعتقله ببجاية وطير الخبر فوجد من قتله بها آخر ربيع الأول سنة 683هـ ونجى ابنه أبو زكريا لتسلمان وبسبب هذه الحوادث والارتباكات اختل نظام الموحدين وانتشر سلك عقدهم فامتدت أيدي عمال الأطراف الى الاستبداد بالأمـر واخذوا يتشبثون بأدنى سبب للتوصل لـذلك ومن جملة الأسباب التي حملت عمال بلاد الجريـد على الاستبداد وقوع بعض حوادث طفيفة تذرعوا بها الى ما تهواه أنفسهم من الاستقلال بالامر وذلك ان في عشرة التسعين وستمائة وقعت بين بلد سدادة وكنومة (اولاد ماجد) من عمل تقيـوس فتنة قتل فيها ابن شيخ سدادة فهاج غضب ابيـه وأقسم ليثأرن فيه بشيخ كنومة نفسه وكان عـامل توزر محمد بن ابي بكر من مشيخـة الموحدين فتقدم اليه شيخ كنـومة وبذل لـه مـالا على أن ينتقم له من عدوه وينصره عليه بعـد أن تذمم له ولم يقبل منه فـوافقه عامل توزر وأعلن بخلاف اهل سدادة واحتشد لهم أهل نفطة وتقيوس وتـوزر وغزاهم في بلادهم ولاذوا باعطاء الرهن وبذل المال فأمدهم أهل نفـزاوة وزحفوا اليه فـانهزمت جموعه واثخنوا فيهم قتـلا وأسرا وذلك سنة 686 هـ ثم عـاود غزوهم عقب ذلك ففتحوا عليـه ثم عقد معهم سلما على الـوفاء بمغـارمهم واشترطوا أن لا حكم عليهم سـوى ذلك وأن يرأسـوا اهل نفزاوة فأمضى لهم شرطهم وكـان هذا ابتـداء استبداد اهل الجريد في دولة الموحـدين حسبما ذكره ابن خلدون في الجزء السادس الى أن قال : وكان الجريـد منذ تقلص عليهم ظل الموحدين عند اقتسـام الملك بين الثغور المغربية والحضرة وصـار أمر الجريد الى الشـورى في بعض الأحيان كما سبقت الاشارة اليه أخـذوا يستعدون الى الاستبداد كما كانوا عليه قبل الموحدين وقد استبد بنوا يخلف بنفطة وبنو يملول بتوزر وبنوا العابد بقفصة فكان بنو العابد هؤلاء من البيوتات الرفيعة فانتحلوا اشارة الملك وتلقبوا بألقاب الخلافة وكان أعظمهم شأنا وأرفعهم بنيانا وأعزهم سلطانا يحيى بن محمد بن علي بن عبد الجليل بن العـابد فرسخت قدمـه في الامارة وبعد صيتـه ونفذت كلمته وصار الأمـر بعده لعائلتـه من سنة 686 الى آخر المائة الثامنـة لأن في خلال الدولة الحفصية وقع اضطراب وانقسام بين افراد العائلة المالكة ثم تخلل ملكهم ابو الحسن المريني وانتزعه من يد السلطان أبي حفص عمر بن ابي بكـر بن ابي زكريا وهو أعقب أبا حفص خامس عشرهم وذلك سنة 748 وبقي امر الجريد في يد المستبدين الى أن استولى البازي المطل ابو العبـاس احمد بن محمد ابي بكر سنة 771 وهو الأحق بها وأهلها ولما تفقد الأعمال وجد العمال قد تغلبوا على معظمهـا فانتزع أعمالا وأمصارا من يد المتغلبين واتى الدور على بلدان الجريد فانتزعه من يد المستبدين به وانخرط في أعماله وقد ولى على قفصة عندما ملكها ابنه الأمير أبا بكر وأقام في خدمتـه من رجال دولتهم عبد الله التريكي مـن موالي جدهم السلطان ابي يحيى فـانتظم له الأمر وأقام بها حولا كـاملا ثم تجافى عن امارتها ولحق بأبيه وذلك سنة 782 هـ فجعل السلطـان امر قفصة لعبد الله التريكي ثقة به لاضطلاعه بما عهـد اليه ولم يزل واليا عليها الى أن هلك سنة 794 وولى السلطان مكـانه ابنه محمدا وكان لـه اخوة أعزاء معقلا فوثبـوا اليه واعتقلوه واظهروا العصيان ثم حملـه أعيان البلد على البراءة منهم استرابه بهم ان يراجعوا الطاعة وزينوا له الاستقلال بـالبلد فوثب عليهم وأخرجهم من البلد واستصفاهم واستغل برئاسة البلد كما كان حالها قبلا فأرعد السلطان وأبرق وعزم على منازلة قفصـة فجمع جنوده واحتشد واستالف الأعراب ونهض اليها حتى نزل بساحتها منتصف سنة 795 هـ فضاق مخنقهم وقطع نخيلهم فـوجهوا له احـد عمدهم المسمى الزيدي ليعقد معـه صلحا على بلده وقـومه فـاعتقله السلطان وكان بعض بني العـابد واسمه عمرو بن الحسن قد انتبـذ عن قفصة أيام نكبتهم وأبعد الى المغرب ثم رجع ونـزل بأطراف الزاب ثم

جاء لقفصة متطلعا أحوالها وركن الى الزيدي احد رؤساء البلد فأقام معه أياما ثم استراب به فتقبض عليه وحبسه فلما اعتقل السلطان الزيدي اجتمعت عليه المشيخة وعقدوا له الأمر وبعثوا الى أشياعهم من العرب يستحثونهم وسربوا اليهم الأموال فتصدى الى الدفاع عنهم صولة بن حمزة أمير أولاد ابي الليل احد قبائل العرب المشهورين بالشهامة فرد السلطان على عقبه لأن أولياءه من العرب قد أبعدوا عنه في الجهات ومازال صولة يكر عليه في بنيه وخواصه حتى رده على عقبيه لتونس وكان السلطان أطلق الديون حين أجفل بتونس نكاية بعمرو بن العابد المستبد بقفصة فبدا به عمر ابن العابد وقتله واستبد بأمر قفصة ولكن أهل قفصة خشوا بادرة السلطان فبعثوا بطاعتهم اليه فاشترط عليهم نزول عامله عندهم فأجابوه لذلك ودخلوا تحت طاعته وتوفي السلطان أبو العباس احمد في شعبان سنة 896 هـ وتولى ابنه ابو فارس عزوز فمهد النواحي وعزز الثغور وسدد الأمور وفي سنة 802 هـ خالفه اهل قفصة وبلدان الجريد فغزاهم وفتح بلادهم واستمر غازيا مؤيدا الى أن بلغ نواحي غدامس ففتحها في هذه السنة ورجع ظافرا منصورا وانتظمت قفصة في جملة اعماله فأصلح شأنها وجدد ما عدت عليه الفتن فمن ذلك حصنها الشهير فجلب العملة ومواد البناء وجدده وأسكن فيه عماله واستمرت خاضعة لمركز الولاية من أوائل القرن التاسع الى أوائل القرن العاشر حينما تقلد الولاية السلطان ابو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد المسعودي ابن عمر عثمان بن أبي عبد الله محمد بن ابي فارس عبد العزيز وذلك سنة 899 هـ تاسع شعبان وكان هذا السلطان محبا للخير ذكيا فطنا وكانت له مآثر جمة منها انشاءه للمكتبة المسماة بالعبدلية وأوقف عليها أوقافا وخزائن من الكتب واعدها للانتفاع بها على وجه العموم وله غير ذلك من المآثر الخيرية وكان شهما جسورا حازما إلا أن دولتهم أذنت بالادبار والانقراض لأن في دولة هذا السلطان انتشر سلك المملكة الحفصية وخرجت أكثر البلاد من يده ففي سنة 910 هـ خرجت من يده بجاية فاستولت عليها النصارى وبعدها استولى عروج على الجزائر وفي سنة 914 ملك بنو عزاب للنصارى طرابلس وبقيت في يدهم الى أن فتحها درغوث باشا وفتح صالح باشا مدينة الجزائر ولما توفي ابو عبد الله محمد ابن الحسن الحفصي في سنة 932 تولى ابنه الحسن وفي سنة 935 انتزع خيرالدين باسم الدولة العثمانية مدينة تونس من يد الحسن وهو رجل من جزيرة مدلي وفر الحسن من تونس وخطب الى السلطان سليمان بها ثم استنجد الحسن بمن ينجده فالتفت عليه الأعراب وزحف بهم على خير الدين فكافحهم بالمدفع الذي لم يألفوه فانهزموا امامه ثم استنجد بدولة اسبانيا فأنجدته بأسطولها وعدد وافر من الرجال والذخائر الحربية وقد أضمرت الاستيلاء على تونس ولما عجز خير الدين عن مقاومتهم فرّ بما معه من الجند وترك البلاد وشأنها وفي خلال هذه الاضطرابات استقل بعض العمال بأعمالها ومنها عامل سوسة والقيروان وقفصة والجريد وقابس وبقيت الاحوال مخضرمة الى سنة 981 هـ حين ورد الأسطول العثماني الى مياه تونس برئاسة سنان باشا فطهر البلاد ورحم العباد ولما انتزعت البلاد من يد اسبانيا وحثالة بني حفص بعد معاناة شديدة وضمت مع طرابلس والجزائر للممالك العثمانية وضع لحراستها جندا من عساكر الترك وجعل كل فرقة من العسكر لنظر رئيس يسوسها ورتب أمير لواء لضبط الايالة وجباية الاموال يلقب بالباي وهو رمضان باي وجعل النظر في عموم العسكر للآغة ورتب فيها قاضيا على المذهب الحنفي والنظر العام للباشا وهو حيدر باشا وخطب باسم السلطان سليم بن سليمان وضربت السكة باسمه ثم رتب الاحكام وشملها النظام وسافر المعسكر تحت رئاسة الباي لتفقد شؤون البلاد وقطع جراثيم الفساد فهدأت الأحوال وجنئت الاموال ووضع في البلاد التي يخشى منها غائلة الفتن حرسا عسكريا من الترك وأسكنهم الحصون المعدة لسكنى الأمراء وزودهم بما يحتاجونه من الذخائر الحربية ومن الحصون الذي استقر بها الجند الحصن العظيم الذي بقفصة فقد رتب فيه جندا كثيفا يتناوبون الحراسة فضرب الأمن اطنابه وسدل الاطمئنان جلبابه واستمر سفر المعسكر كل سنة تحت رئاسة الباي لجباية الباي وتهدئة الأحوال ولما كان تعدد الرؤساء جالبا للخلل في التصرف سرى الشقاق بين رؤساء العسكر وأساؤوا التصرف في الجند والرعية وصار الحال اقرب الى الفوضى فثار الجند وقدموا واحدا من الرؤساء على الجميع وأسقطوا الباقين وآل الأمر الى ولاية عثمان داي وكان الأحق بالولاية فصارت البلاد للداي ورئاسة المعسكر للباي ورئاسة الجميع للباشا ثم تارة ينفرد الباي وتارة ينفرد بها الباشا وآونة ينفرد بها الداي الى ان استولى المولى حسين بن علي رئاسة المعسكر باجماع اهل الحل والعقد فرأى من حسن النظر اسقاط الجميع وتولى رئاسة الدولة وكانت ولايته سنة 1117 وجعل الداي عبارة عن محافظ المدينة فقط ورئاسة المعسكر لغيره والجميع تحت تصرفه وبقي الأمر كذلك الى ان احتلت دولة فرنسا البلاد فتغيرالنظام، أسأل الله حسن الختام.

فصل في شؤون قفصة الحديثة

أما في سياستها فهي تابعة للحكومة التونسية منذ سنة 981 ه أي من حين افتتاحها من يد اسبانيا لم يستبد احد بها، فإن في دولة صنهاجة ودولة الموحدين تارة ترجع لمركز الحكومة العامة وتارة يغلظن عن أمرها واستفحل شأنهم ويأنسون الضعف من رئيس الدولة لما يعرض له من مقارعة الثائرين ومدافعة المنتهزين فيبادرون للاستغلال، ومنذ استيلاء الدولة العثمانية استمرت تابعة لتونس ودفعت بها الاحكام والنظامات الادارية والحربية على مقتضى الأسلوب الحديث مراعين في ذلك عوائد البلاد وشريعتها وفي الغالب تابعة لعمال الجريد وفي ولاية الصادق باي وذلك في حدود الثمانين ومائتين والف اختطفها بعض عمال الهمامة وجلاص ولم تلبث غير قليل حتى اضيفت لعمل الجريد، اما

المستوطنون بها في هذا الدور الاخير فهم خليط من البربر وبقية من ذرية الرومان والعرب الفاتحين وهي ستة عشائر احدها عشيرة ا لاجرين ثم البلدية ثم جبارقو ثم الخنانسة بنو نبير ثم المنارين ثم الحنفية ، فأما الاجريون فينسبون انفسهم الى الشابية الذين تقدم التعريف بنسبهم عند الكلام على عشائر توزر فقد ذكر بعض شيوخ نسابتهم ان عدة عائلات من الشابية لما وقع اضطهادهم من الملوك تفرقوا في البلاد فاستقرت منهم فرقة بقفصة وبها وسلفهم من الوجاهة والاعتبار بسبب ميلهم لاقتناء العلوم الدينية ووسائلها وانتحال طريق الارشاد التف عليهم بعض عائلات اخرى وصارت لهم رئاسة فتقلدوا الخطط النبيهة من شرعية وسياسية ونبتت منهم علماء أجلة ازدانت بهم المحافل وسارت بعلومهم الرواحل واختلطوا بالمصاهرة مع بقية العناصر من عرب وبربر وروما ولكن الدم الروماني ما برح جاريا في عروقهم لأول متأمل وكذلك البلدية فإنهم من بقايا الرومان وبما لهم من الامتزاج ببعضهم ظهرت بقفصة علماء اشتهروا بالعلم والورع فمنهم الشيخ بن حامد كان عالما متضلعا في الفنون على اختلاف انواعها وورعا عفيفا انتفع به خلق كثير ومنهم الشيخ تاج وابنه الشيخ علي بن تاج كانا عالمين فاضلين لهما القدح المعلى في نشر العلم في تلك البلاد ومنهم الشيخ علي بن الطيب الذي تصدى للتدريس ونشر الدر النفيس واخذ عليه العلم جم غفير من الوافدين واهل البلاد ومنهم الشيخ محمد بن المفتي الذي اشتهر علمه في الافاق واجمع الناس على فضله على الاطلاق ومنهم الشيخ احمد بن المفتي واخوه الشيخ صالح وابنه الشيخ الحسين وهذه العائلة عائلة علم وفضل تقلدوا خططا نبيلة وقاموا بها احسن قيام ومنهم ذلك الطود الشهير والبدر المنير والعلامة الكبير الشيخ احمد السنوسي تقلد القضاء ورئاسة الافتاء رحم الله الجميع واما جبارقوا فهم من قبائل البربر نزحوا من قبائل طرابلس عندما شردهم ابن غانية في اواخر القرن السادس فاستوطن بعضهم قفصة في حدود القرن العاشر بعد ان مكثوا مدة على حالة البداوة ينتقلون بخيامهم ومواشيهم الى حيث يجدون المرعى ثم استوطن بعضهم بعض القرى المجاورة لبلد قفصة وهي قرية السند ولالة والقصر والقطار وكذا المناريون فهم فرع من جبارقو واحد الخنانسة فهم عائلات وفدوا من بلد جربة بقي معظمهم بها الى الآن واستوطنوا بلد قفصة في حدود القرن العاشر ولا يخفى ان سكان بلد جربة مزيج من بقية الفينيقيين والبربر والعرب فالبربر من قبيلة كتامة والعرب من بني سليم واما وان الحنفية فهم من ذرية الجند الذين يوجهون من طرف الحكومة يقيمون بالقلاع والحصون لحراسة اطراف الولاية واقرار الراحة ولا يخفى ان الجند الموجه من طرف الدولة العثمانية لحماية ممالكها الشاسعة المعبر عنه بالينكشارية هم مزيج مركب من الاساري الواقعين تحت أسر الدولة هم من الارمن واليونان والمجر والنمساويين وغيرهم من الاروباويين الذين اعتنقوا الديانة الاسلامية على مذهب الامام ابي حنيفة الذي هو مذهب رجال الدولة ولذلك سموهم بالحنفية نسبة الى المذهب لأن جميع سكان افريقية الغربية الشمالية على مذهب الامام مالك وهؤلاء الجند صاهروا ابناء البلاد متحلين مذهبهم وعوائدهم ولغتهم وتناسلوا مع بعضهم ودخل في زمرتهم بعض ابناء البلاد الاصليين ليحرزوا على ما هم عليه من الامتيازات التي امتازوا بها من قبل الدولة بسبب الجندية ولكنهم تمذهبوا بمذهب مالك كلهم سواء ولم يبق في بلد قفصة مذهب الحنفية وبقي الاسم نظرا لأصل التسمية هذا اصل عشائر قفصة بقطع النظر عما اندمج في العشائر من العائلات الاجنبية فانتحلوا عوائد البلاد وتزيوا بزيهم كبعض اهل القيروان وأهل صفاقس وأهل الجريد وغيرهم .

فصل في الكلام على بلاد نفزاوة

ذكر ابن الشباط ان بلاد نفزاوة تشتمل على بلدان كثيرة واعظمها مدينتان احدهما يقال لها بشرى والاخرى يقال لها طرة وبها تنزل العمال وكلتاهما بها عيون ومياه جارية ونخيل وثمار ويصنع فيها انواع من الملابس الصوفية الرفيعة مما يتنافس فيها وقال البكري : «ولمدينة نفزاوة عين تسمى بالبربرية تاورغة وهي كبيرة لا يدرك لها قعر قال ابو الحكم يرمى بها الرمح فيرتفع فوق الماء بقدر ما غاص ثم قال البكري ولمدينة نفزاوة صور صخر ولبن ولها ستة ابواب وبها جامع وحمام وأسواق حافلة وهي على نهر كثيرة النخيل والثمار وحولها العيون والبساتين وقبيلها مدينة قديمة تعرف بالمدينة عليها سور وبها جامع وسوق تكتنفها عيون وبساتين من مدينة نفزاوة الى قابس ثلاثة مراحل ومن قيطون بياضة الى نفطة مرحلة والى توزر مرحلة وبين نفزاوة وقسطيلية ارض سواخة لا يهتدي للطريق فيها إلا بخشب منصوب فإن ضل احد يمينا او شمالا غرق في أرض دهس تشبه في الرطوبة الصابون وقد هلكت فيها العساكر والجماعات ممن دخلها ولم يدر أمرها وتصل هذه السواخة الى مدينة غمراسن انتهى ، كلام ابن الشباط ، قلت ما ذكره ابن الشباط وغيره من مؤلفي العرب انما هو بعد التاريخ الاسلامي اما ما قبل ذلك فقد كان اكثر هذه البلاد يغمره الماء لأنه كان خليجا يمتد الى قابس ويتصل بشط الجريد فان بلد فطناسة والمنصورة وقبلي ولماقس واستفطيمي وغيرهما من قرى نفزاوة كانت تحت سطح البحر وبتقادم الدهور وكر العصور جف الماء في البعض وتراكمت عليه الرمال فعمت معظمها ومن اوائل القر الثاني جدد عمرانها فاحدثت فيها عدة بلدان واستبحر عمرانها ومن مدنها مدينة قبلي ومدينة تلمين التي أقيمت على أطلال طرة ومدينة جمنة ودوز ومن بلدانها الثنوية طنبار غربي تلمين وفطناسة والدبابشة وزاوية الحرث وبشرى كانت مدينة ثم ضعفت بتوالي الحروب الاهلية

ونقة وابو عبد الله والقليعة والزيرة وزمرة الوحيشي والمنصورة والقطعاية وتنبيب وانبس والرابطة والبليدات وجرسين والقرعة وبازقة وتويل والمرازيق التي من قراها دوز والعوينة وعوينة ام هندة فقول ابن الشباط : «ان نفزاوة تشتمل على بلدان كثيرة اعظمها مدينتان احداهما يقال لها بشرىء والاخرى يقال لها طزة مناف لما نقله عن البكري بعربان مدينة نفزاوة لها سور وستة ابواب لأن كلام ابن شباط يقتضي ان لفظ نفزاوة اسم لمجموع عدة بلدان كما هي الآن وما نقله عن البكري يؤخذ منه ان نفزاوة علم على المدينة المخصوصة اللهم الا ان يقال مراده بالمدينة المسماة بنفزاوة ما اشار له بقوله وتليها مدينة قديمة تعرف بالمدينة وعليها سور الخ ولعلها هي التي أقيمت على أطلالها مدينة قبلي التي هي مركز العمل الآن.

فصل في من استوطن بلاد نفزاوة من الشعوب والقبائل

قد سبق في الفصل قبل هذا ان لفظ نفزاوة يطلق على عدة مدن وقرى على ما ذكره ابن الشباط ويطلق على مدينة مسورة على ما ذكره البكري والتحقيق ما ذكره ابن خلدون بنفزاوة قبيلة عظيمة من قبائل البربر تنسب الى تطوفت بن نفزاي بن لوا الاكبر بن زجيك وبطونهم كثير مثل غساسة ومزقيسة وزهيلة وسمانة وولهاصة وفجرة وورسيف ثم قال ومن بطون ولهاصة ورتد بن داحلية بن ولهاصة وورفجومة بن تيرفاص بن لهاص وورفجومة هؤلاء اشد قبائل نفزاوة بأسا وقوة وكانوا متمسكين بعقائد الاباضية من الخوارج وزحفوا الى القيروان سنة 140 وفر عنها حبيب بن عبد الرحمان ودخلها عبد الملك بن ابي الجعد فتبع اثر حبيب وقتله واستولت نفزاوة على القيروان وقتلوا من كان بها من قريش وبطوا دوابهم بالمسجد وعظمت حوادثهم وشغلوا امر افريقية بهجماتهم المتكررة فضيقوا عليهم الامر وشددوا عليهم الحصار بقطع السابلة الى تولّى يزيد بن حاتم امر افريقية سنة 157 فسرح اليهم العساكر مع ابنه وقومه فأثخنوا فيهم وخضدوا شوكتهم وقتلوهم ابرح قتل وعليها كان ركود ريح الخوارج بافريقية واذعان البربر وبقي منهم فريق بمرماجنة وهناك قرية يمسيطها تنسب اليهم وتشتت ولهاصة وورفجومة من قبائل نفزاوة وهم ارزاع اشهرهم قبيلة بساحل تلمسان وجد نفزاوة يسمى لوا الاصغر بن لوا الاكبر وهو جد لواته الذين منهم اولاد عيار وانما زيدت له التاء علامة على الجمع عند البربر ثم زاد له العرب الهاء للسكت فصارت لواته واسهب ابن خلدون في تعداد قبائلهم وفروع شعوبهم وبطونهم وذكر رؤساءهم وما لهم من الاثار المشكورة والوقائع المأثورة الى ان قال وكان من مشاهير علمائهم المنذر بن سعيد القاضي بقرطبة لعهد عبد الرحمان الناصر الأموي امير المؤمنين ومنهم ابو يعقوب الباديسي اكبر اولياء المغرب الى ان قال واما بقايا بطون نفزاوة فلا يعرف لهم هذا العهد حي ولا موطن الا القرى الظاهرة المقررة السير المنسوبة اليهم ببلاد قسطيلية وبها معاهدون من الفرنجة وطنوهم على الجزيرة واعقابهم بها لهذا العهد وقد نزل لهم كثير من بني سليم وزغبة من الشريد واوطنوهم وتملكوا بها العقار والضياع وكان امر هذه القرى راجعا الى عامل توزر ايام الاستبداد فلما تقلص ظل الدولة عنهم وحدثت العصبة في الامصار استبدت كل بلدة بأمرها وصار مقدم توزر يحاول دخولهم في ايالته فتارة يعطونه ذلك وتارة يابونه حتى أضلتهم دولة السلطان ابو العباس احمد فادرجوا في طاعته وذلك سنة 778 هـ فعلم مما تقرران اسم نفزاوة من اطلاق الحال وارادة المحل، اما المستوطنون بها الآن فهم مزيج من البربر والرومان الذين عبر عنهم ابن خلدون بالفرنجة كما هي عادته ومن العرب الداخلين ولم تزل تتوارد على تلك البلاد شعوب وقبائل شتى يستوطنون البلاد ويمتزجون بالأهالي حتى لا تكاد تميز بين الاهالي الدخلين والاصليين واما اهالي قبلي فقد وفدوا من نواحي طرابلس انفصلوا من قبيلة المحاميد ونزلوا بمكانهم الآن في أواسط القرن السابع وهم ينتسبون الى ذياب صاحب الوقائع المشهورة مع زناتة حسبما قرره ابن خلدون لأن جدهم محمود بن صوب او ابن طوق بالقاف وهو الذي قتله قراقش مولى صلاح الدين الايوبي ومعه سبعون رجلا من زعماء مشيخة قومه وذلك في منتصف القرن السادس هجري وطوب او طوق هو ابن بقية بن وشاح بن عامر ومواطنهم بين قابس وسوسة ويجتمعون مع النوائل في عامر بن جابر فجد النوائل نائل بن عامر بن جابر بن فاتك بن رافع بن ذئاب بن ربيعة بن جرق بن مالك بن خفاف بن امرىء القيس هكذا ذكره ابن خلدون في شجرة نسبهم وعليه فمن انفصل من المحاميد الذين نزحوا من طرابلس هم الذين استوطنوا بلد قبلي وامتزجوا بغيرهم ممن انضم اليهم من بقية العناصر وكذلك بلد نقة فهم من العرب كما ان بلد جمنة اغلبها من العنصر العربي الداخلين في اواسط القرن الخامس اما بقية بلدان نفزاوة فغالبهم من البربر كما تقدم الا بلاد نويل فقد استوطنها فريق من النوائل اخوة المحاميد حسبما سبق تفصيله اما حالتها السياسية فهي راجعة لعمال الجريد كما ان شؤونها الادارية كذلك ولم تزل كذلك حتى جاء دور الاحتلال فاقتضى تقسيم الدائرات الى مدنية وحربية فصادف موقعه بنفزاوة فجيؤوه في الدائرة الحربية فانسلخت عن الجريد وامتازت بعامل وصارت تابعة للدائرة العسكرية اما حالة المعارف في نفزاوة فكادت ان تنحصر في جمنة وما بها من ذلك لا يتجاوز العلوم الشرعية ووسائلها وقد نبغ في بلد جمنة نخبة من العلماء الأجلة كانوا يرتحلون لمصر ويرجعون ممتلئة حقائبهم بالعلوم الفقهية والأدبية ثم ينثرون لآلئها بين طبقات الشبيبة الأهلية حتى صار لبلد جمنة مزية

على البلاد وفي الدور الأخير لما وضعت التراتيب بالكلية الزيتونة صارت هي المورد لكل شارب والمرتع لكل راغب فعدلوا عن الارتحال الى الديار المصرية واخذ في الارتشاف من المعهد الزيتوني اما الصنائع فيشتغلون بالثياب الصوفية فترسل منها للخارج ميات لها بال وكذلك الصنائع الضرورية كالحدادة والنجارة والبناء وما يلحق بها .

فصل في من استوطن بلاد نفزاوة من الشعوب والقبائل

قد سبق في الفصل قبل هذا ان لفظ نفزاوة يطلق على عدة مدن وقرى على ما ذكره ابن الشباط ويطلق على مدينة مسورة على ما ذكره البكري والتحقيق ما ذكره ابن خلدون بنفزاوة قبيلة عظيمة من قبائل البربر تنسب الى تطوفت بن نفزاي بن لوا الاكبر بن زجيك وبطونهم كثير مثل غساسة ومزقيسة وزهيلة وسمانة وولهاصة وفجرة وورسيف ثم قال ومن بطون ولهاصة ورتد بن داحلية بن ولهاصة وور فجومة بن تيرفاص بن ولهاص وورفجومة هؤلاء اشد قبائل نفزاوة بأسا وقوة وكانوا متمسكين بعقائد الاباضية من الخوارج وزحفوا الى القيروان سنة 140 وفر عنها حبيب بن عبد الرحمان ودخلها عبد الملك بن ابي الجعد فتبع اثر حبيب وقتله واستولت نفزاوة على القيروان وقتلوا من كان بها من قريش وبطوا دوابهم بالمسجد وعظمت حوادثهم وشغلوا امر افريقية بهجماتهم المتكررة فضيقوا عليهم الامر وشددوا عليهم الحصار بقطع السابلة الى تولّى يزيد بن حاتم امر افريقية سنة 157 فسرح اليهم العساكر مع ابنه وقومه فأثخنوا فيهم وخضدوا شوكتهم وقتلوهم ابرح قتل وعليها كان ركود ريح الخوارج بافريقية واذعان البربر وبقي منهم فريق بمرماجنة وهناك قرية يمسيطها تنسب اليهم وتشتت ولهاصة وورفجومة من قبائل نفزاوة وهم ارزاع اشهرهم قبيلة بساحل تلمسان وجد نفزاوة يسمى لوا الاصغر بن لوا الاكبر وهو جد لواته الذين منهم اولاد عيار وانما زيدت له التاء علامة على الجمع عند البربر ثم زاد له العرب الهاء للسكت فصارت لواته واسهب ابن خلدون في تعداد قبائلهم وفروع شعوبهم وبطونهم وذكر رؤساءهم وما لهم من الاثار المشكورة والوقائع المأثورة الى ان قال وكان من مشاهير علمائهم المنذر بن سعيد القاضي بقرطبة لعهد عبد الرحمان الناصر الأموي امير المؤمنين ومنهم ابو يعقوب الباديسي اكبر اولياء المغرب الى ان قال واما بقايا بطون نفزاوة فلا يعرف لهم هذا العهد حي ولا موطن الا القرى الظاهرة المقررة السير المنسوبة اليهم ببلاد قسطيلية وبها معاهدون من الفرنجة وطنوهم على الجزيرة واعقابهم بها لهذا العهد وقد نزل لهم كثير من بني سليم وزغبة من الشريد واوطنوهم وتملكوا بها العقار والضياع وكان امر هذه القرى راجعا الى عامل توزر ايام الاستبداد فلما تقلص ظل الدولة عنهم وحدثت العصبة في الامصار استبدت كل بلدة بأمرها وصار مقدم توزر يحاول دخولهم في ايالته فتارة يعطونه ذلك وتارة يابونه حتى أضلتهم دولة السلطان ابو العباس احمد فادرجوا في طاعته وذلك سنة 778 هـ فعلم مما تقرران اسم نفزاوة من اطلاق الحال وارادة المحل ، اما المستوطنون بها الآن فهم مزيج من البربر والرومان الذين عبر عنهم ابن خلدون بالفرنجة كما هي عادته ومن العرب الداخلين ولم تزل تتوارد على تلك البلاد شعوب وقبائل شتى يستوطنون البلاد ويمتزجون بالأهالي حتى لا تكاد تميز بين الاهالي الدخلين والاصليين واما اهالي قبلي فقد وفدوا من نواحي طرابلس انفصلوا من قبيلة المحاميد ونزلوا بمكانهم الآن في أواسط القرن السابع وهم ينتسبون الى ذياب صاحب الوقائع المشهورة مع زناتة حسبما قرره ابن خلدون لأن جدهم محمود بن صوب او ابن طوق بالقاف وهو الذي قتله قراقش مولى صلاح الدين الايوبي ومعه سبعون رجلا من زعماء مشيخة قومه وذلك في منتصف القرن السادس هجري وطوب او طوق هو ابن بقية بن وشاح بن عامر ومواطنهم بين قابس وسوسة ويجتمعون مع النوائل في عامر بن جابر فجد النوائل نائل بن عامر بن جابر بن فاتك بن رافع بن ذئاب بن ربيعة بن جرق بن مالك بن خفاف بن امرىء القيس هكذا ذكره ابن خلدون في شجرة نسبهم وعليه فمن انفصل من المحاميد الذين نزحوا من طرابلس هم الذين استوطنوا بلد قبلي وامتزجوا بغيرهم ممن انضم اليهم من بقية العناصر وكذلك بلد نقة فهم من العرب كما ان بلد جمنة اغلبها من العنصر العربي الداخلين في اواسط القرن الخامس اما بقية بلدان نفزاوة فغالبهم من البربر كما تقدم الا بلاد نويل فقد استوطنها فريق من النوائل اخوة المحاميد حسبما سبق تفصيله اما حالتها السياسية فهي راجعة لعمال الجريد كما ان شؤونها الادارية كذلك ولم تزل كذلك حتى جاء دور الاحتلال فاقتضى تقسيم الدائرات الى مدنية وحربية فصادف موقعه بنفزاوة فجيؤوه في الدائرة الحربية فانسلخت عن الجريد وامتازت بعامل وصارت تابعة للدائرة العسكرية اما حالة المعارف في نفزاوة فكادت ان تنحصر في جمنة وما بها من ذلك لا يتجاوز العلوم الشرعية ووسائلها وقد نبغ في بلد جمنة نخبة من العلماء الأجلة كانوا يرحلون لمصر ويرجعون ممتلئة حقائبهم بالعلوم الفقهية والأدبية ثم ينثرون لآلئها بين طبقات الشبيبة الأهلية حتى صار لبلد جمنة مزية على البلاد وفي الدور الأخير لما وضعت التراتيب بالكلية الزيتونة صارت هي المورد لكل شارب والمرتع لكل راغب فعدلوا عن الارتحال الى الديار المصرية واخذ في الارتشاف من المعهد الزيتوني اما الصنائع فيشتغلون بالثياب الصوفية فترسل منها للخارج ميات لها بال وكذلك الصنائع الضرورية كالحدادة والنجارة والبناء وما يلحق بها .

فصل في الكلام على الحامة من بلاد قسطيلية

والنسبة اليها حامي الألف كما ان النسبة لقسطيلية قسطلاني كما ذكره ابن الشباط فيهما بناء على ان قسطيلية من الأوضاع العربية لأن اصلها قسطلانية سموها بذلك تشبيها لها بالقسطلانية التي هي قوس قزح كما في القاموس شبهوها به في بهجتها وتلونها في ازهارها وقيل انها من الاسماء الرومانية لأن القسطال في لغتهم هو القصر وعليه فالنسبة اليه قسطلي رجوعا للأصل اما الحامة فهي علم على بلد معروف تشتمل على ثلاث قرى وهي بـالالف بين الحاء والميم خلافا لمن زعم انها تكتب الحمّة بدون ألـف ووجه ذلك بأن سميت باسم العين الحارة التي بها لان الحمّة هي العين الحارة التي يستشفى بها المرضى ومن هـذا الاصل اشتاق الحمام وان بهذا العين سميت البلد الحمّة واستشهد على ذلك بقول بعضهم ومن الامثال في العلم قولهم ان العالم كـالحمّة يأتيها العلماء ويزهد فيها الغرباء وليس فيما ذكره دليل على صحة هذه الدعوى او لا فليس كل بلد به عين حارة تسمى بهذا الاسم اذ لا تلازم بينهما فان كثيرا من المدن بها عيون حارة يستشفى بها ولم تتعين تسميتها بهذا الاسم وثانيا علم والاعـلام لا تتغير ولا يلزم فيها مراعـاة الاشتقاق وثالثا ما ذكـره الامام ابو محمد عبد اللـه يرابي زيد القيرواني صاحب الـرسالة والنوادر فيما نقله عنه ابن الشباط في الجزء الاول من شرح القصيدة الشقراطسية فهو أدل دليل على ذلك لأنه ثقة في نقل المسائل الدينية فضلا عن غيرها فقد ذكر انه عثر على مكتوب بخط يد الامام ابي محمد عبد الله بن ابي زيد مخاطبا به فضلاء توزر في التوصية بتلميذه ابي زكريا يحيى صاحب الشقـراطسية وتعظيم شأنـه فانه كتبهـا الحامة هكذا بـالألف فقد ذكر في عـرض كلامه بعـد ان اكد عليهم في تعظيم شأن ابي زكـريا وعرفهم بحقوقه التـي توجب تعظيمه ومكانته من العلم والفضل قال وأبـو بكر الحامي بن منصور لمن يقرأ علينا ويكرم لـدينا وما بتوزر من يتلو أبـا زكرياء الا أبو بكـر الحامي الخ، فأي حجة واي برهـان اصح من نقل ابن ابي زيد وحسبك ما نقلـه ابن الشباط ايضا بأنـه رأى عقدا تضمن شراء الفقيه ابي زكرياء جنة من جنات توزر وتاريخ العقد سنة 407 شهد فيه ابو بكر الحامي المذكور فكتب اسم نفسه الحامي بالألف بعد الحاء في عقـده ورب الدار اعلم بما فيها انتهى، والحامـة هذه اختطها البربر في دور الفينيقيين قبل الميـلاد بنحو الف سنة وقـد أتت عليها أدوار من العمران والتخريب حسبما تقتضيه الانقـلابات الدورية والتعصبات القومية، قبل الاسلام وبعده النـاشئة عن الحروب وما أوقعته الأميرة البربرية دهيا الملقبـة بالكاهنة من تخريب القصور الشاهقة والأسـواق النافقة وتغوير المياه الدافقة وقطع الأشجـار وهدم الديار لأكبر عبرة لمن يعتبر وكذلك ما وقع من عـرب بني سليم وبني هلال في اواسط القرن الخامس وما وقع من ابي يزيد مخلـد ابن كداد الخارجي القائم ضد العبيديين الشيعية وكذلك حروب الموحدين وابن غانية القـائم بدعوة المرابطين وغيرها وقد تداولت عليها ادوار خصب وجدب مثل ما عرض لبقية الايالة وما يقال في بلدان الجريد من جهة الحالة العمرانية والاجتماعية يقال فيها لأنها جزء منها وقد استمرت آهلة باعقاب البربر الى أواسط القرن الثـامن هجري فقد ذكـر ابن خلدون ان الذين يقطنـونها في زمنه أي في أواسط القرن الثـامن، ثلاث قبائل من تـوجر وبني ورتاجن وهم في العصبيـة فرقتان اولاد يـوسف ورئاستهم في أولاد ابي المنيع وأولاد جحاف ورئاستهم في اولاد وشاح ثم بتـدرج الاسباب انحصرت رئاسة جميع القبائل المستوطنين بالحامة في اولاد ابي المنيع وسبب حصرها في من ذكر ان جدهم رجاء ابن يوسف كان له ثلاثة اولاد بوشباك وابو محمد ومـلالة وان الرئاسة بعده كانت لابنه بوشباك ثم لابنه ابي المنيـع ثم لابنه حسن بن ابي المنيع ثم لابنه محمد الحسن محمد بن الحسن ثم لأخيه مـوسى بن الحسن ثم لأخيهما ابي عناب وكانت رئاسة اولاد جحـاف محمد بن احمد بن وشاح واعقابـه وكان العمال من لدن الموحدين يتعاقبون فيهم حتى آل الأمر في دولة السلطان ابي بكر الحفصي الى ولاية ابنه عاملا عليهم فارتاب محمد بن وشاح هذا وتقبض عليه وقتله مع اهل بيته وولى موسى بن الحسن ولما هلك تولى اخوه ابو عناب وطال امـر ولايته عليهم وكان معروفا بالعفاف والخير وأقام الى سنة 742 هـ وتولى بعده ابو زيان ثم ابن عمه مولاهم بن محمد وهـو الذي وفد على السلطان ابي الحسن المريني مع وفد اهل الجريد ثم توفي وتولى ابن عمه حسان بن هجرس وقـام عليه محمد بن احمد ابن وشاح فعـزله وتولى مكانـه وبقي الى سنة 778 هـ فثار به أهل الحامة وقتلـوه وولوا عليهم حسان بن هجرس من أولاد ابي المنيع واستمرت الرئاسة فيهم الى سنة 960 هـ هذا ولما انحلت الدولة المرينية بسبب انقسامها الى عدة فروع ومن فروعها الدولة الـوطاسية فكان مما تسبب على انقسامها انتشار بعض العائلات الوطاسية فـاستقرت منها عائلة في بلاد الحامة وبما تأثل بهم من استحكام صبغـة الامارة انتحلوا اسبـابا فاستمالوا أهـالي البلاد بالترهيب والترغيب وابتـزوا الرئاسة منهم على البـلاد ثم في سنة 1010 الف وعشرة وفدت عائلات من اولاد صولة احدى قبائل الـزواودة الذين يرجع نسبهم الى بني سليم من العرب الوافدين في اواسط القرن الخامس فانتزعوا بعض الاملاك من ايدي اربابها بمقتضى الشوكة وقوة العصبية فرسخت اقدامهم وتأثلت الرئاسة فيهم واستمرت الى ان استولت العائلة الحسينية سنة 1117 وتغيرت الحالة الادارية والسياسية وذلك ان الترتيب الذي استقر عليه حالها فهي كبقية بلدان الجريد وهو ان يتقلد الرئاسة على كل بلد من يلقب بالشيخ بمقتضى ظهير يكتب عن اذن الوالي العام بتونس ويختم بختمه علامة على امضاءه ويباشر شؤون البلد وفي كل عام يرد معسكر تحت رئاسة نائب الوالي لاقرالواحة وجباية الاموال الاميرية.

وللحامة شيخ كهؤلاء المشائخ يباشر شؤونها كغيره وهي الآن تشتمل على ثلاث قرى احدها تسمى النخلات والثانية محارب والثالثة العرق، اما الاولى وهي الكبرى فيقطنها اولاد صولة الذين تقدم ذكرهم ولهم الرئاسة على جملة الحامة غالبا وامتزج معهم بعض نزلاء البلاد من عرب وبربر فصاروا كأنهم عنصر واحد، واما الثانية والثالثة فمعظم سكانها من البربر وقد اشتهرت الحامة بمياهها المعدنية من قديم فترد اليها القوافل للاستشفاء بمياهها المعدنية من الامراض العصبية وغيرها وظهر نفع ذلك في كثير من الامراض ولولا جهل سكانها وعدم اعتناء الحكومة لاستبحر عمرانها وارتفع شأنها لكثرة الوسائل العمرانية من مياه دافقة واستعدادها لأسواق نافقة وقد حاولت بعض الشركات اخذ امتياز للسعي في تنظيم وحفظ مياهها على الاسلوب النافع الصحي والاقتصادي ثم تأخرت لأسباب غير معلومة وقد حاول بعض عمال توزر وهو الحازم عبد الرحمان بن عمر سنة 1286 تخفيف الأداء المرتب على عدد نخيلها فطلب من الحكومة ذلك رجاء ان يحيى عمرانها وتنبعث فيها الروح وكذلك اسقاط البقايا المثقلة على ارباب النخيل التي عاقتهم على التعمير بسبب مطاردة العمال لهم واضطهادهم بالحبس والضرب وكذلك بقية بلدان الجريد فأجيب لذلك ولكن باسقاطه على بلدان نفزاوة والحامة فقط واسقطت ثلثي القانون فأما نفزاوة فقد جرى العمل به واما الحامة فلم يعمل به وتأخر العمل به حتى عزل العامل ولو بقي مستوليا لنهضت من السكون الى الحركة ولبقي من ملحقات الجريد مد اشرجل وهي ثلاث قرى تمغزة وميداس وشبيكة منفصلات عن بعضها ولكل منها واحة نخيل خاصة وعيون دافقة تسقي بها الواحة ويستنجون من ذلك بقولا وثمارا له اهميته لو كان لهم حزم واهتمام ولكن مع ذلك يغلب عليهم الكسل الذي يتولد منه الفقر وهم مزيج من البربر والعرب النازحين لتلك الجهة وهم تابعون لعمل الجريد مع البوادي الذين حولهم وهم قبائل رحالة وهم أولاد سيدي عبيد وهم قبائل مختلطة وفدت منذ سنين عديدة بعضهم من طرابلس وبعضهم من الجزائر والبعض من عرب افريقية.

بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد واله وسلم

الحمد لله العلي الاعظم — مصلي على الرسول الاكرم
محمد خير العباد المرتضى — وخير من يأت وخير من مضى
ثم ارض عن صحب كرام بررر — وآله ذوي الفخار الخير
واعلم بأن النسب المحقق — الى الرسول المصطفى والمنتقى
نسب اهل الفضل والاسعاد — آل النبي من بني ميعاد
نسبتهم معلومة محققة — في أفق المجد كشمس مشرقة
برهانها مبين منير — يعرف ذاك الحاذق البصير
يجحدها منتمص البصيرة — او الغبي سيء السريرة
دليل ذا عقلا ونقلا ثبت — من اصل دوحة النبي نبت
هم للمصابيح هداة الامة — الراسخون في العلوم الجمة
وحافظوا الشرع مدى الاحقاب — والفاتحون مغلق الابواب
والمطعمون عابري السبيل — من يحضى بالتكريم والتبجيل
وكالئوا اليتيم عند صغره — ملقنوه العلم عند كبره
هذا الى العقل المنير يسند — ومثله للنقل ليس يشحد
نسبتهم معروفة مشهورة — شائعة محفوظة مسطورة
نص عليها علماء فاس — وحققوا الامر بلا التباس
كالمقري وكولي الدين — اذ بينوه اوضح التبيين
فثبتت سلسلة الاجداد — موصولة بأحمد الميعاد
واحمد الميعاد منذ كان ولد — بتلمسان نال العلم واجتهد
وبارح الاصل بقصد الحج — وسلك النهج لكل فج
وغادر تلمسان بيت العز — مستعوضا عنها بذاك الكنز
وبعد ان حج وزار واعتمر — ونال كل ما ابتغاه من وطر
وآب راجعا الى الاوطان — وفاز بالرضا وبالرضوان
ومر في الطريق بالجريد — مكتنفا بالعز والتأييد
بنفطة (غلاب*) قد اطل — وبدره في أفقها قد حل
ونال حظوة وقد زاد اعتلى — بعلمه وفظه ما بخل
اذا علمت جده العوام — الحائز الملك والاحترام
فخذ اليك نسب محقق — مصغيا منقحا مدقق
احمد ميعاد كريم الاصل — ابن محمد السعيد وفي العقل
ابن علي نجل يحيى المرتضى — في طالع السعد استنار واضاء
وهو ابن عبد المعطي الهمام — من شد بالحزم عرى الاسلام
ابوه عبد العالي الذي حذا — حذو أبيه بخطاه أخذا
هو ابن احمد التومي المنتقى — وهو ابن مسعود سما المجد ارتقى
أبوه عبد القادر النزيه — ليس له في الفخر من شبيه
ابن الكريم عابد الجبار — بحر العلوم ماله مجاري
عمر تلمسان في وقت حرج — وفجره في أفقها قد انبلج
فنشر العلم وأمن السبيل — وساد الاطمئنان وامتد الأمل

ابوه احمد التقي النقي   وهو النزيه العابد المرتضى
والده اسماعيل ذاك البارع   ليس له في سبقه منازع
وهو ابن سعد بن عطاء الله   كلاهما ليس له مضاهاه
وهو ابن القاسم الذي قد احرز   علم وذا على الاصول ارتكز
نجل سعيد ابن عمران الاكرم   كلاهما ضوء بدا في ضلم
ابن محمد ابن يحيى الجوطي   من نال فضلا وافي الشروط
ابن محمد الذي قد درج   في روضة العلم على وعرج
ابوه يحيى يدعى العوام   الباسط الكف على الأنام
اذ حاز تخت الملك باستحقاق   وقد سيف الخلف والشقاق
ابوه القاسم الذي قد اعتزل   زعارف الملك عن الدنيا عدل
ابوه ادريس الاصغر الصنديد   موفق في فعله رشيد
والده سبط النبي ادريس   الشهم الهمام الفارس الخميس
فوطد الملك ونال السؤدد   وصار للنهج القويم المرشد
وآله الاكبر ادريس سطا   على الملوك يده قد بسط
فوطد الملك ونال السؤدد   وصار للنهج القويم مرشد
وآله الكامل عبد الله   صبط الرسول المشتبى الاواه
نجل الزكي حسن المثنى   من قد سما ونال ما نتمنى
نجل الحليم الحسن الصبط الذي   صان الدماء اذ حفظت من وقذ
وامه سيدة النساء   حاوية الفضل بلا امتراء
فاطمة النزيهة البتول   زكية والدها الرسول
صلى عليه الله ما هب الصبا   وغن قمري بروض طرب
وآله وصحبه وعشيرته   وكل من أم الهدى من امته

ناظمها ومحررها ومحققها ومدققها ابراهيم خريف بن محمد الكبير بن محمد التابعي بن ابراهيم خريف بن احمد البدوي بن محمد المبارك بن محمد مسلم بن علي ميعاد بن حمودة بن احمد ميعاد الجد المذكور. أخذ الله بيده وكان له في يومه وغده في 26 من جمادى الاولى سنة 1347رزقنا الله خيرها ووقانا شرها، والسلام.

الفهـــرس

الباب الاول

32ـ في أن ما احدثه الفرنساويون من الطرق غالبه توسعة او اصلاح للطرق الرومانية .
33ـ فصل
33ـ في أسباب انحطاط السلطنة الرومانية وتاريخ افتتاح الحرب بينها وبين القرطاجنيين وانتهائه .
34ـ في تقسيم الدولة الرومانية الى شرقية وغربية وسبب ذلك .
35ـ في اعتناق الملك قسطنطين للديانة المسيحية وتأثير ذلك في سياسة المملكة .
36ـ في ابطال دعوى ان الوشم الذي بجباه سكان افريقية اتخذه البربر علامة يتميزون بها على الوثنيين على شكل الصليب .
37ـ فصل
37ـ في تسلط الواندال على افريقية وانتزاعها من يد الرومان وأسباب ذلك وبيان اصل الواندال .
38ـ في أول ملوك الواندال .
39ـ في انقراض دولة الرومان من افريقيا نهائيا واستقرار الواندال على قرطاجنة وتأسيس اول دولة ملكية وراثية بها .
40ـ في هجوم الواندال على مدينة رومة واعادة قرطاجنة الكرة عليها بعد ستمائة سنة .
41ـ في انحطاط دولة الواندال والاسباب المؤثرة في ذلك .
42ـ فصل
42ـ في تسلط الروم وهو السلطنة الشرقية على بلاد افريقية والأسباب الداعية لذلك .
43ـ في انكسار أسطول الروم في مياه افريقية ورجوعهم بالخيبة والفشل .
44ـ في التعريف بالقيصر يوشطيناش الذي قصده امرىء القيس مستنجدا به .
45ـ في اعادة دولة الروم الكرة على دولة الواندال وسقوها عساكرها برا وبحرا حتى طحنتها بكلاكلها .
46ـ في دخول بلزار قائد الجيش الرومي لقرطاجنة بجيشه الجرار وتناوله طعاما كان اعد للملك بقصره .
47ـ في سقوط دولة الواندال نهائيا واستيلاء دولة الروم على افريقيا .
48ـ في أسباب سقوط دولة الواندال وانحلال عراها وهي الميل للترف والتعصب الديني واضطهاد الرعية .
49ـ في أن قبيلة الفراشيش اندمج فيها اغلب من بقي من الواندال يدل على ذلك الدم الجرماني الجاري في عقبهم .
50ـ في ان ايعيره كبير أمراء البربر جد الكاهنة الأميرة المشهورة .
51ـ في ابطال دعوى ان التوارق قبيلة من العرب .
52ـ ولادة نبينا عليه الصلاة والسلام بالتاريخ المسيحي .
53ـ في كيفية دخول امراء البربر تحت حكم دولة الروم .
54ـ في ان دولة الروم لم يرسخ قدمها إلا في المدن ذوات الحصون والقلاع .
55ـ ورود أمة الغوط المستقرة بالأندلس على بلاد المغرب الأقصى واذعان بعض القبائل لها .

الباب الثاني

56ـ في فتح العرب لافريقية ومبادىء ذلك .
57ـ في أن أول قيادة الجيش العربي الداخل لافريقية بعبد الله بن سعد بن ابي سرح .
58ـ في خلوص عبد الله بن الزبير بخبر الفتح لعثمان بالمدينة في خمسة وعشرين يوما وصلحهم بثلاثمائة قنطار من الذهب .
59ـ اختطاط مدينة القيروان على يد عقبة بن نافع .
60ـ ولاية حسان بن النعمان الغساني امر افريقية مؤسس قواعدها السياسية ونظاماتها الحربية .
61ـ على التعريف بالاميرة البربرية المعروفة بالكاهنة واسمها دهياء المسيطرة على امراء البربر .
62ـ على التحام تم بين جيش الكاهنة وجيش حسان، وهيزمة جيش حسان وانحيازه الى تخوم طرابلس .
63ـ في اعادة حسان الكرة على جيوش الكاتهنة وهزيمتها .
64ـ في أن الجريد فتح صلحا .

الباب الثالث

245- عثرات ابلغ الشعراء امرىء القيس في ابلغ المعلقات .
246- في ان النطق بالقاف الذي بين الكاف والقاف لغة العرب الاصلية بل هي . .
247- فصل
247- الكلام على مدينة قفصة واولية امرها .
248- علاقة قفصة السياسية .
249- استبداد بني الرند بأمر قفصة واعمال الجريد الى ان انتزعها عبد المؤمن بن علي .
250- في ان كنونة قرية من قرى الوديان وهي التي تسمى الان اولاد ماجد .
251- في مبادىء استبداد أمراء الجريد والأسباب الداعية لذلك .
252- في ان حصن قفصة جدده عبد العزيز ابو فارس الحفصي سنة 802هـ .
253- في شؤون قفصة الحديثة .
254- في التعريف بالمستوطنين بها .
255- في ان المحاميد الذين منهم اولاد بلوم هم من ذرية ذئاب الهلالي .
256- التعريف بحامة قسطيلية والاستدلال على انها الحامة بالالف وان النسبة لقسطيلية فسطلاني لأن اصلها قسطلانية .
257- شجرة المؤلف

طباعة : العربية للاعلام والتسويق 613 780



التعريف بالمؤلف :

ولد الشيخ ابراهيم خريف بن محمد الكبير التابعي الشريف بنفطة سنة 1862 وتوفي في 11 جانفي 1937 بتونس، ثم حمل جثمانه الطاهر الى نفطة حيث دفن بمدفن آل خريف.

زوجته شريفة بنت الصادق بن ميلاد المولودة في تونس سنة 1892 وتوفيت بها سنة 1952 بتاريخ 24 جويلية.

له الكثير من الأشعار والمقالات والدراسات في الفقه والأدب وكلها مخطوطة، وله بعض المقالات المنشورة في جريدة الزهرة.

- والد الشاعر الكبير مصطفى خريف
- والقاص الرائع البشير خريف
- والفنان الممثل الهادي خريف.

كما له ابناء من ثلاثة زوجات أخر، هو سليل عائلة شريفة تمتد شجرتها حسب قصيدته الى سبط الرسول صلى الله عليه وسلم، لا يمر جيل الا ويبرز احد النبغاء ويكون له تأليف في الفقه او الأدب او العلم او التاريخ.

(شرع في تأليف الكتاب سنة 1898 وأتمه بعون الله سنة 1914).